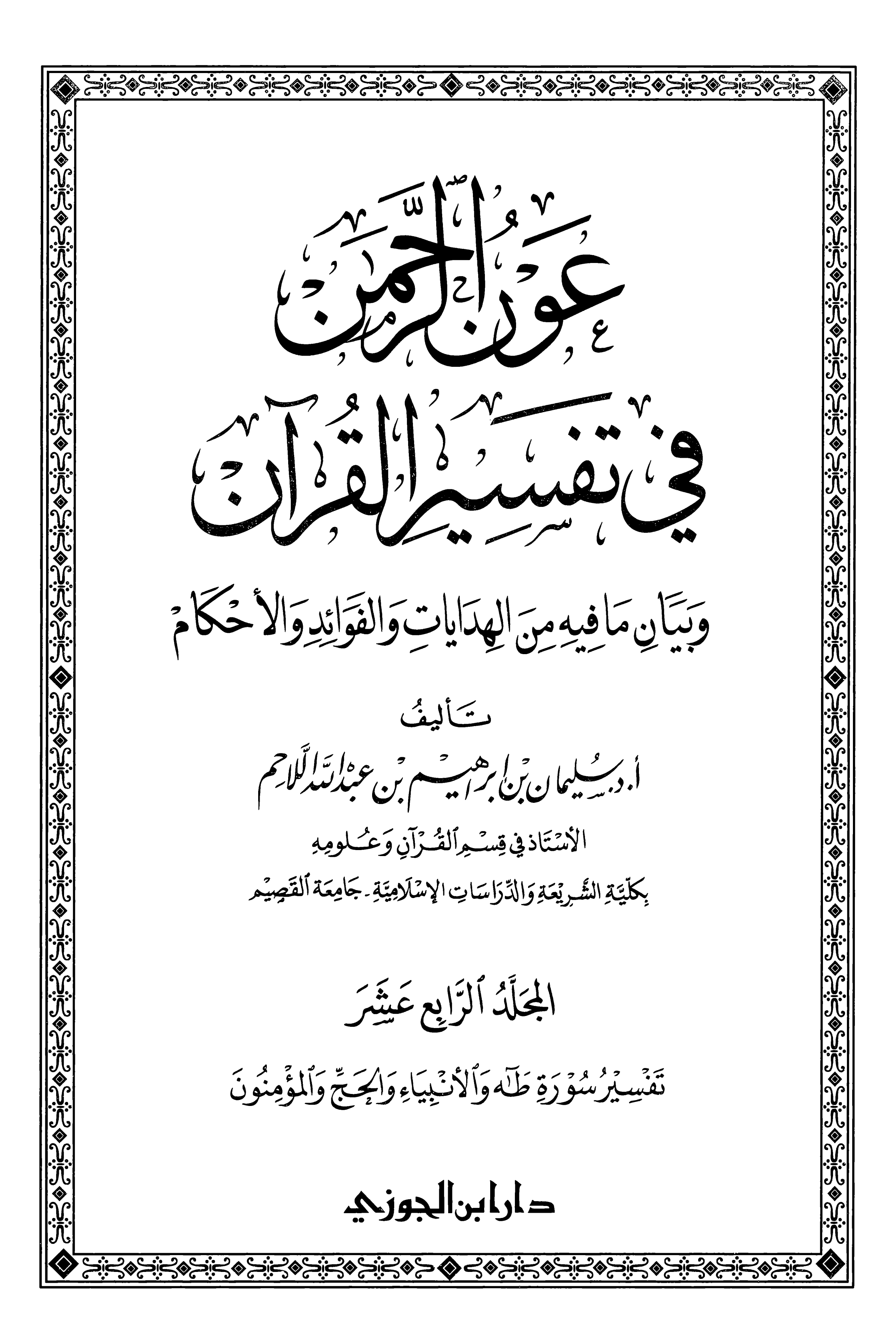


عون الرحمن في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ. د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

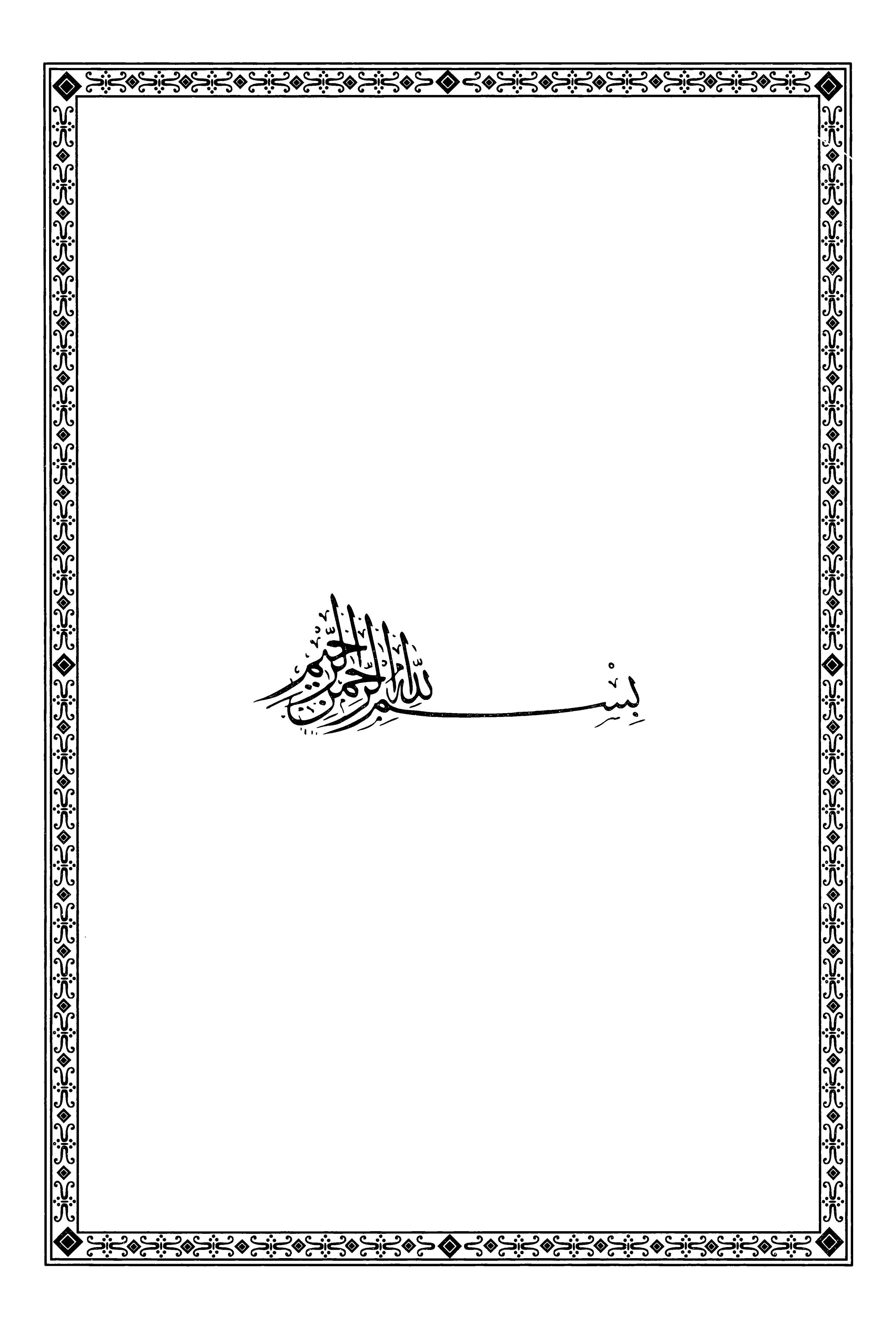
الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

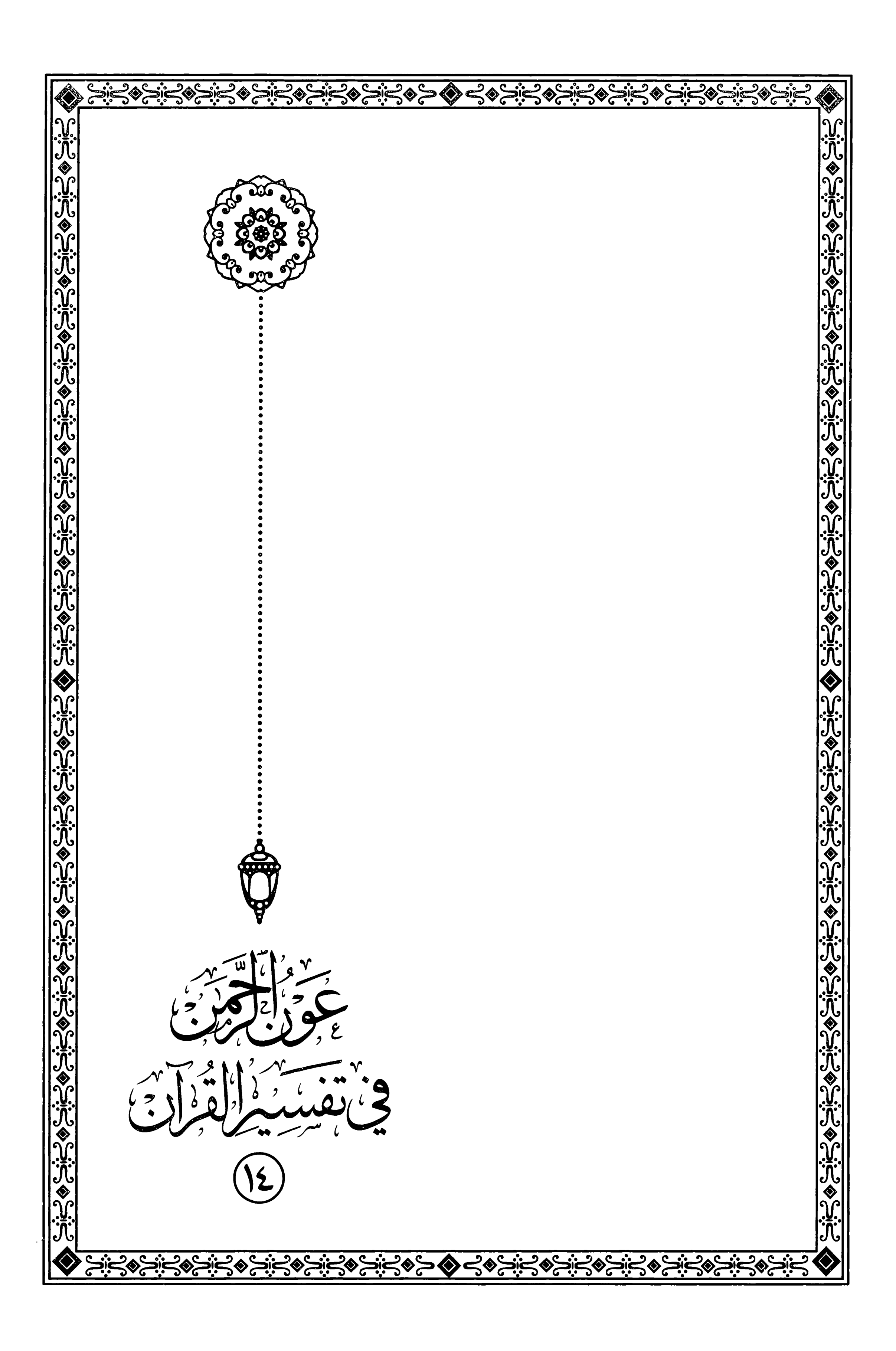
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الرابع عشر

تفسير سورة طه والأنبياء والحج والمؤمنون

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



عون الرحمن في تفسير القرآن

(١٤)



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.- الدمام، ١٤٤١هـ

٥٣٧ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

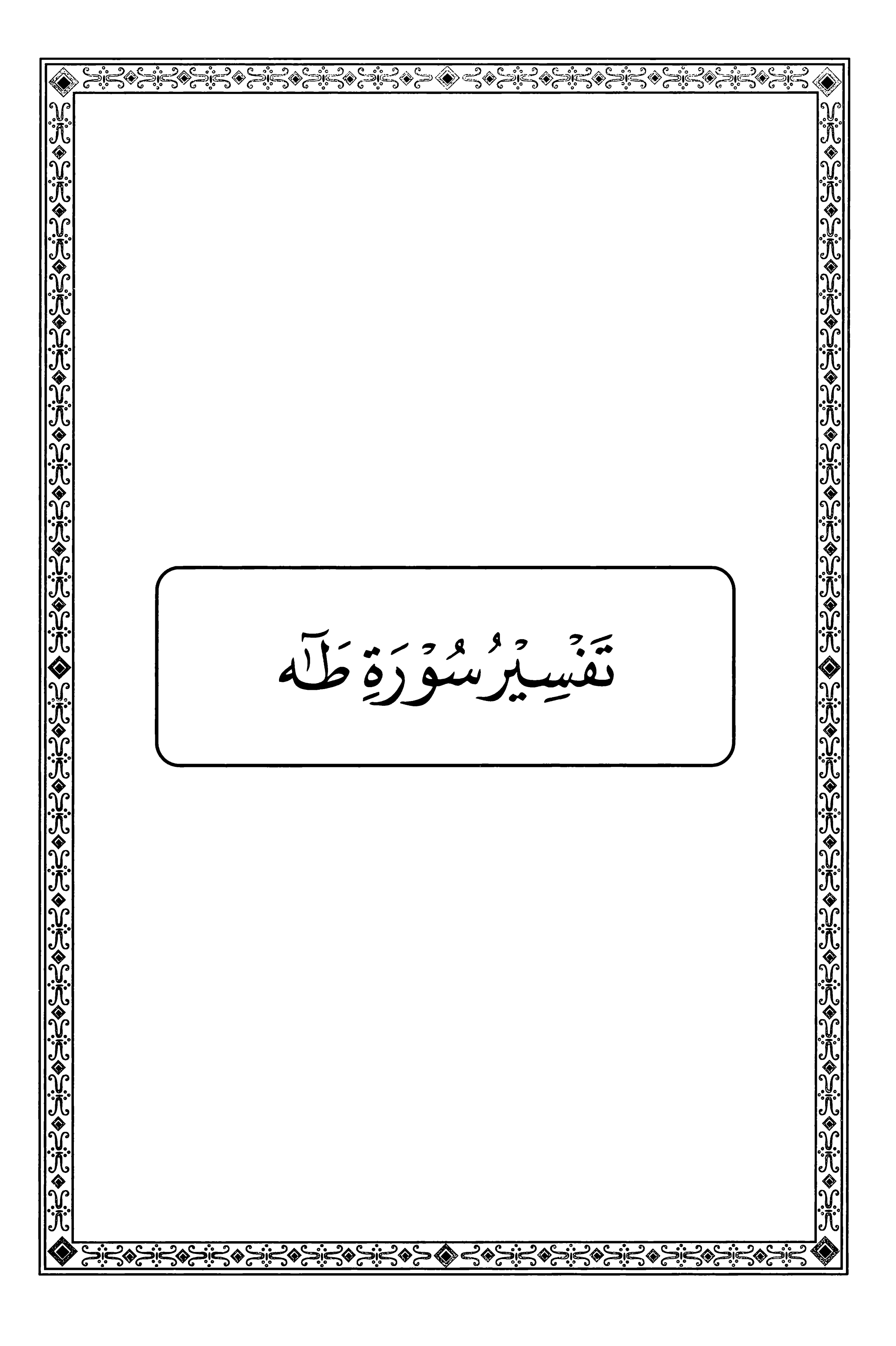
أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

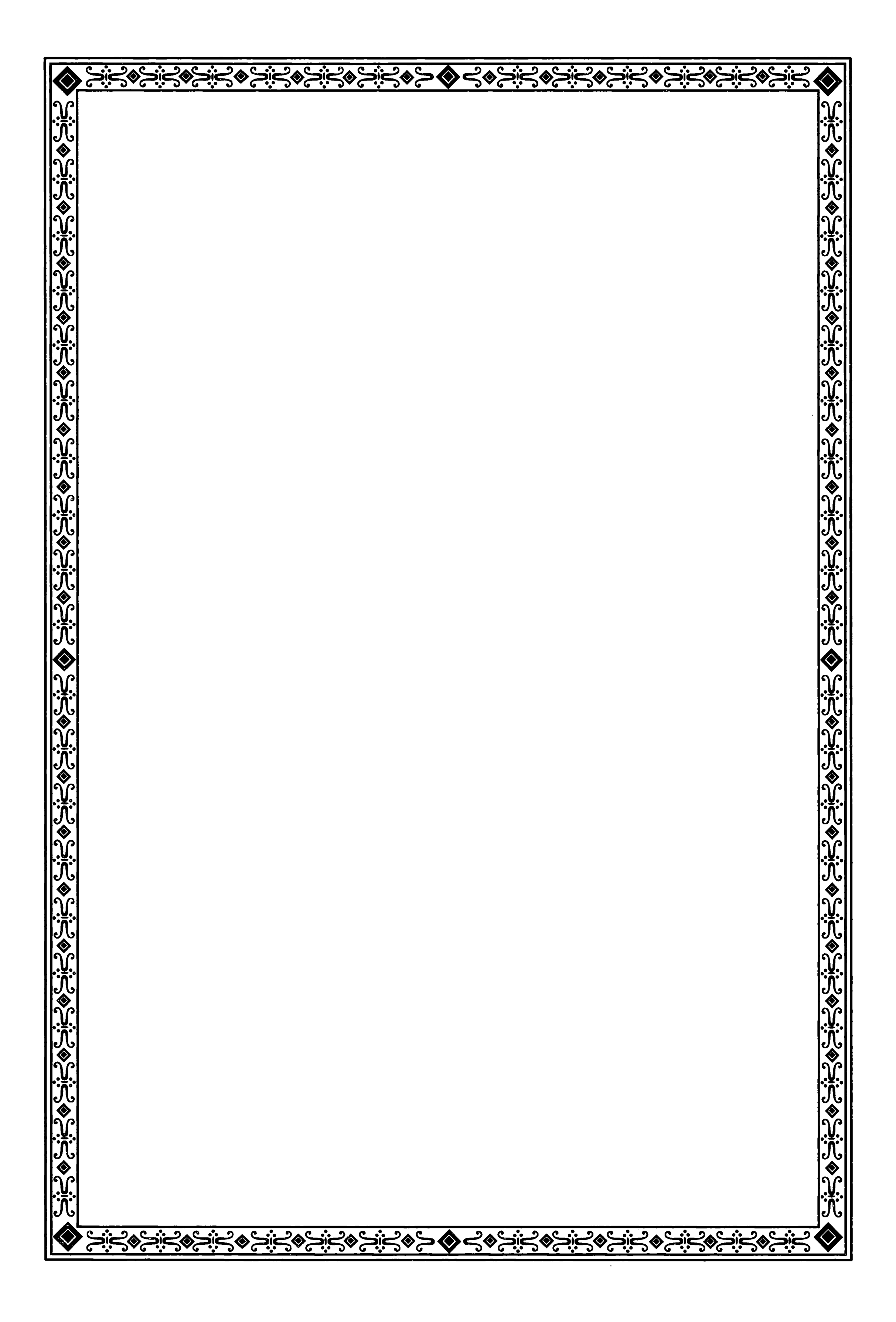
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958



تَفْسِيرُ سُورَةِ طٰه



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة طه»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿طه ①﴾، وهي من الحروف المقطعة أوائل السور، وقد جاء في الحديث في قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسميتها بهذا الاسم(١).

وتسمى سورة «الكلِم» كما ذكر ذلك السيوطي في «الإتقان» عن السخاوي.

وتسمى أيضًا «سورة موسى»، ذكره في «الإتقان» عن الهذلي في «كامله»(٢).

ب- مكان نزولها:

مكية.

جـ- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأُوَل، وهنَّ من تلادي»(٣).

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طه①﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

ووجِّه الخطاب في مطلعها إلى النبي ﷺ؛ لبيان مهمته وتقوية عزيمته، وبيان الحكمة من إنزال القرآن عليه، وهي التذكير والموعظة، وبيان عظمته، وعظمة منزله وعلوه، وعظيم ملكه، وسعه علمه، ووحدانيته، واختصاصه بالأسماء الحسنى، والصفات العلا.

٢- التذكير بقصة موسى عليه السلام، وابتداء وحي الله تعالى إليه واختياره لرسالته، ووحيه إليه بوحدانيته عز وجل في ألوهيته وعبوديته، وإقام الصلاة لذكره، وإثبات الساعة وقيام القيامة، ومجازاة كلٍّ بعمله.

٣- إيتاء الله تعالى موسى العصا آية من آياته تعالى، يلقيها فتكون حية، ويأخذها فتعود لحالها الأولى، وإيتاؤه اليد آية أخرى، يضمها إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ ليريه من آياته الكبرى، وإرساله إلى فرعون لطغيانه.

---

(١) انظر: «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١/ ٢٧٩)، «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٦٥٧).

(٢) انظر: «الإتقان» (١/ ١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنبياء (٤٧٣٩).

٤- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره، وييسر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأن يجعل له وزيرًا من أهله هارون أخيه؛ ليشد به أزره، ويشاركه في أمره وتسبيحه ربه وذكره كثيرًا، واستجابة الله له وإيتاؤه سؤله.

٥- تذكير موسى عليه السلام بمنة الله عليه قبل ذلك مرة أخرى، منذ كان جنينًا في بطن أمه، وإنجائه من فرعون، وإرساله وأخيه هارون بآياته إلى فرعون بسبب طغيانه، وأمره لهما بدعوته بالقول اللين؛ لعله يتذكر أو يخشى، وتخوفهما من بطشه وطغيانه، وطمأنته عز وجل لهما بسمعه ورؤيته لهما وحفظهما، وأمره لهما بإقامة الحجة عليه، بأنهما رسولا ربه، وطلبهما منه إرسال بني إسرائيل معهما وتحذيره عذاب الله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

٦- مجادلة فرعون لهما في ربهما، وردهما عليه بأن ربهما الذي أعطى كل شيء خلقه، وهدى كل مخلوق لما خلقه له، ذو القدرة التامة الذي خلق الأرض وسلك فيها السبل، وأنزل من السماء الماء وأخرج به أنواع النبات؛ لأكلهم ورعي أنعامهم.

٧- تكذيب فرعون لهما وإباؤه، بعد أن أراه الله آياته كلها، واتهامه موسى بالسحر، وتحديه له بالإتيان بسحر مثله، وجمعه السحرة، وغلبة موسى لهم بما معه من الآيات، وبطلان سحرهم، وإيمانهم برب موسى وتوعد فرعون لهم حين آمنوا.

٨- وحيه عز وجل لموسى بالإسراء ببني إسرائيل ليلاً، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر يبسًاً لا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى من الغرق. وإتباع فرعون بجنوده لهم، وغشيان البحر لهم وغرقهم، وإضلاله لقومه وإبعادهم عن الهدى.

٩- الامتنان على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون، ومواعدتهم جانب الطور الأيمن، وإنزال المن والسلوى عليهم، وأمرهم بالأكل من الطيبات، وتحذيرهم من الطغيان، وترغيبهم بالإيمان والعمل الصالح، وسلوك طريق الهدى.

١٠- معاتبة الله تعالى لموسى على الاستعجال عن قومه، وإخباره بما حصل لهم بعده من فتنة السامري وإضلاله إياهم بعبادة العجل، ورجوع موسى إليهم غضبان

أسفًا، ومعاتبته لهم على مخالفة موعده وطاعة السامري بعبادة العجل، الذي لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ومعصيتهم لهارون حين حذرهم من ذلك، وإصرارهم على العكوف على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى.

١١- معاتبة موسى لأخيه هارون بعدم اتباعه حين رآهم ضلوا، واعتذار هارون بخشيته أن يقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي.

١٢- معاتبة موسى وتأنيبه للسامري على ما فعل وتهديده له وتوعده، وابتلاء الله إياه أن يقول: لا مساس، وإحراق إلهه العجل، ونسفه في اليم نسفًا، وإثبات إلهية الله وحده الذي وسع كل شيء علمًا.

١٣- الامتنان على النبي ﷺ بقص أنباء ما قد سبق وإيتائه من لدنه علمًا، بما أوحى إليه من الكتاب والسنة، وتهديد ووعيد من أعرض عنه.

١٤- إثبات النفخ في الصور، وتهديد المجرمين بحشرهم زرق الوجوه والألوان، يتخافتون بينهم: إن لبثتم إلا عشرًا، بل يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يومًا.

١٥- ذكر أهوال القيامة من نسف الجبال، وجعلها قاعًا صفصفًا، واتباع الخلائق الداعي، وخشوع الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسًا، حين لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الله عز وجل ورضي له قولًا، وإحاطة علمه بهم، وقصد الوجوه للحي القيوم، وخيبة من حمل ظلمًا، وبشارة من آمن وعمل صالحًا فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا.

١٦- العودة لتعظيم القرآن، والامتنان بجعله قرآناً عربيًّا، وتصريف الوعيد فيه؛ لأجل أن يتقوا الله، ويحدث لهم ذكرًا، وتعظيم نفسه عز وجل بتعاليه وكونه الملك الحق، ونهيه له ﷺ أن يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وحثه على طلب مزيد العلم من ربه.

١٧- ذكر قصة آدم وعهده عز وجل إليه بعدم الأكل من الشجرة، وأمره الملائكة بالسجود له، وسجودهم له جميعًا إلا إبليس أبى، وتحذير آدم منه ومن عداوته له ولزوجه، وسعيه في إخراجهما من الجنة لدار الشقاء.

١٨- وسوسة الشيطان إلى آدم وتغريره له بالأكل من الشجرة، وأكله هو وزوجه منها وبدو سوءاتهما لهما، ومعصية آدم لربه وغوايته، ثم اجتباؤه عز وجل له وتوبته عليه وهداه، وإهبطاهما إلى الأرض بعضهم لبعض عدو.

١٩- الترغيب في اتباع هدى الله، ووعده عز وجل بعصمة من اتبع هداه من الضلال والشقاء، والتحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى، ووعيد من أعرض عن ذكر الله بالمعيشة الضنك، وحشره يوم القيامة أعمى، بسبب إعراضه عن آيات الله وعماه عنها ونسيانها، وإسرافه وعدم إيمانه بآيات ربه. وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

٢٠- توبيخ المكذبين وتقريعهم كيف لم يعتبروا بكثرة القرون المهلكة قبلهم بسبب تكذيبهم؟ وهم يمشون في مساكنهم، ويرون آثارهم، مما فيه العظة لكل ذي عقل ولب، وتهديدهم بتعجيل العذاب لهم، لولا أن الله جعل له أجلاً مسمًّى.

٢١- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر على قولهم، والتسبيح بحمد ربه في عموم الأوقات، وعدم النظر إلى ما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا فتنة لهم، فرزق الله خير وأبقى. وأمره ﷺ بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها وتكفله عز وجل برزقه والعاقبة للتقوى.

٢٢- عتوّ المشركين وعنادهم بطلبهم منه ﷺ الإتيان بآية من ربه وقد جاءهم بينة ما في الصحف الأولى.

٢٣- بيان أنه عز وجل لو أهلكهم بعذاب من قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم بالآيات، وقيام الحجة عليهم لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك، كذبًا منهم، وتهديدهم بالتربص وانتظار العذاب، فكل متربص، وسيعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ④ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⑥ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ⑦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ⑧﴾.

قوله: ﴿طه①﴾، من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، منها هذه السورة، لإثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به، مع أنه مؤلف من الحروف التي ينطق بها العرب، وقد سبق الكلام عليها في مطلع سورة البقرة.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ②﴾، الخطاب للنبي ﷺ، واللام في قوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ②﴾ للتعليل، أي: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لأجل أن تشقى، بأن يكون فيه من التكاليف ما يشق عليك وعلى أمتك، بل يسرنا ذكره وتكاليفه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑰﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وأيضًا: ما أنزلنا عليك القرآن لأجل أن تشقى وتتعب، وتذهب نفسك حسرات على المكذبين والكافرين من قومك بغية أن يؤمنوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ③﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

فليس عليك هداهم، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وأيضًا: ما أنزلنا عليك القرآن وأمرناك بالعمل به، وتلاوته وقيام الليل به أنت

وأصحابك لتشقى بذلك، بل ليكون ذلك عنوان السعادة لكم وسببها؛ ولهذا قال ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»**.

فما أنزله الله تعالى عليه ﷺ إلا ليكون سببًا للسعادة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة؛ كما هو مفهوم الآية، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»[1].

وقال قتادة: «لا والله ما جعل شقاءً، ولكن جعله نورًا ورحمة ودليلًا إلى الجنة»[2].

وقد أحسن القائل:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد[3]

ففي إنزاله القرآن عليه ﷺ تكريم له وعناية به وبأمته، ومنة عظيمة منه تعالى عليهم، ورحمة بهم وإسعاد لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾، «إلا»: للاستثناء المنقطع بمعنى: «لكن».

﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول لأجله، و«مَن» موصولة، أي: لكن أنزلناه؛ ليكون تذكرة وعظة وعبرة للذي يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى العلم النافع والعمل الصالح، وإلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر: ٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وخص به من يخشى؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكرة دون غيره، كما قال تعالى:

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٩).

(٣) البيتان للحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص٣٢١).

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝﴾ [الأعلى: ١٠ - ١١].

ويؤخذ من هذا أنه ليس عليك إلا أن تبلغ وتذكر بالقرآن، وليس عليك أن يؤمنوا لا محالة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝﴾، بعد أن نفى عز وجل أن يكون أنزل القرآن عليه ﷺ ليشقى، وقرر أنه إنما أنزله عليه؛ لإسعاده وإسعاد أمته؛ أتبع ذلك بذكر جلالة هذا القرآن، وعظمة منزِّله، ورحمته، وكمال صفاته؛ إغراءً وحثًّا على الأخذ به.

﴿تَنزِيلًا﴾، مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزلناه، «من»: موصولة، أي: من الخالق العظيم المتفرد بكمال الربوبية، الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة الأرض والسموات العلى، والكون بما فيه، ومعنى ﴿ٱلْعُلَى﴾، أي: اللاتي هن سقف هذا الكون وأعلاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قال الفرزدق[(١)]:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطول

وقد أجابه جرير بقوله[(٢)]:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعًا ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

ثم بعدما بيّن كمال ربوبيته عز وجل أتبع ذلك ببيان كمال رحمته، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، فقال:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾، «الرحمن» اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني أسماء الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

يدل على إثبات صفة الرحمة له عز وجل وسعتها: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، عامة وخاصة؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ١٥٥).

(٢) انظر: «ديوان جرير» (ص٣٥٧).

﴿يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، «العرش»: يطلق على سرير الملك، وعرشه عز وجل أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها وأرساها.

والاستواء: بمعنى العلو والارتفاع، أي: استوى عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم لما بين كمال ربوبيته وكمال رحمته وكمال علوه وكبريائه وعظمته؛ أتبع ذلك ببيان سعة ملكه، فقال:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، اللام: للملك والاختصاص، و«ما»: موصولة، أي له خاصة- خلقًا وملكًا وتدبيرًا- الذي في السموات والذي في الأرض، والذي بينهما من جميع المخلوقات.

﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، أي: وله الذي تحت الثرى، أي: الأرض وما تحتها، و«الثرى» في الأصل: التراب الندي.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾، معطوف على ما قبله، فبعد أن بين عز وجل سعة ملكه بين سعة علمه، أي: أنزله الذي له ملك كل ما في الكون، والذي يعلم الجهر من القول، كما يعلم السر وأخفى؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

و«السر»: ما أسر المرء في نفسه، و«أخفى»: ما حدث به نفسه من الخطرات.

أو السر: ما خطر على القلب، و«أخفى»: ما لم يخطر على القلب.

والمراد: أنه سبحانه محيط بجميع الأشياء كلها، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليها، فسواء أسررت في قولك أو جهرت به، فالكل سواء بالنسبة لعلمه عز وجل.

ولما بين عز وجل وقرر كمال ربوبيته، وعموم رحمته، وكمال علوه وعظمته، وسعة ملكه وعلمه، أتبع ذلك ببيان وتقرير وإثبات كمال إلهيته، استدلالًا بتوحيد الربوبية على

توحيد الألوهية؛ فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، «الله» علم على ذات الرب، وهو أصل الأعلام، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وهو أصل أسمائه عز وجل، وتأتي أسماؤه عز وجل كلها تابعة له، وهو الاسم الأعظم من أسمائه عز وجل.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، أي: له وحده الأسماء الكثيرة الكاملة، الحسنى من جميع الوجوه؛ الدالة على الحمد والثناء والمدح، وعلى جميع صفات الكمال؛ ولهذا أمر عز وجل عباده أن يثنوا عليه بها ويدعوه ويتعبدوا له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾.

٢- إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الآية، وقوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ الآية. وفي هذا إبطال لما ذهب إليه المعتزلة من القول بخلق القرآن، وما أثاروه من الفتنة والمحنة في ذلك أيام الخليفة المأمون(١).

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله سبحانه وتعالى علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾، وقوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية.

٤- إثبات نبوته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾.

٥- أن الله عز وجل ما أنزل القرآن عليه ﷺ ليشقى، بأن يُكلف ما يشق عليه وعلى أمته، ولا ليشقى ويتحسر أسفًا وندمًا على المكذبين له، ولا ليكون عمله بالقرآن، وتلاوته وقيامه الليل به شقاءً له، بل أنزله عليه ليسعد به هو وأمته في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، فمفهوم هذا: أنزلناه عليك لتسعد.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥٣-٥٥٥).

٦- أن الله عز وجل إنما أنزل القرآن تذكرة وعظة وعبرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى معرفة الحق والعمل به، وينجو به من طريق الضلال والزلل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝﴾.

٧- تعظيم القرآن الكريم ورفعة شأنه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الآية.

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وإثبات وتقرير كمال ربوبيته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ الآية.

٩- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن»، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له سبحانه، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

١١- إثبات العرش، وهو أكبر المخلوقات وأعلاها وأرساها.

١٢- بيان سعة ملك الله عز وجل وعمومه، وأن له سبحانه خاصة كل ما في هذا الكون؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝﴾.

١٣- سعة علمه عز وجل واطلاعه على الجهر، وعلى السر وأخفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝﴾.

١٤- إثبات وتقرير كمال إلهيته عز وجل وتفرده وحده سبحانه بالعبودية، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٥- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وامتداحه لها وثناؤه عليها بما له خاصة من الأسماء الحسنى، المتضمنة للصفات العلى؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾.

أعقب عز وجل تثبيت النبي ﷺ على التبليغ، والتنويه بشأن القرآن، وعظمة مُنَزِّله سبحانه، بذكر قصة موسى عليه السلام، وما جرى له منذ ولادته، وإلى أن بعثه الله وأرسله إلى فرعون، وما جرى له مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل؛ ليتأسى به ﷺ في الصبر على تحمل أعباء الرسالة، وتسلية له تجاه أذى المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم.

وهذه السورة من أوفى السور في ذكر قصة موسى، بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾.

وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام، وكررت في القرآن أكثر من غيرها مبسوطة ومختصرة؛ لأن اليهود في المدينة أهل جدل، فأراد الله أن يبين ما فيه دحض افترائهم، وأن يكون ﷺ أعلم بموسى منهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، الواو استئنافية، والاستفهام: للتشويق والتحقيق والتقرير، أي: قد أتاك وجاءك حديث موسى، أي: خبره العظيم وقصته العجيبة.

﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾، أي: إذ أبصر نارًا وهو في طريقه من فلسطين إلى مصر هو وأهله.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾، يبشرهم بعد أن لم يجد ما يقدح به النار:

﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي: أقيموا؛ إني أبصرت نارًا؛ كما قال تعالى في سورة

القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر من جانب جبل الطور الأيمن نارًا.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، «لعل» للترجي، أي: أرجو أن آتيكم منها ﴿بِقَبَسٍ﴾، أي: بشهاب قبس وجذوة وشعلة من النار توقدون منها ناركم، وتصطلون بها وتصنعون عليها طعامكم؛ كما قال في سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: ٧]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

قال ابن كثير[1] في مطلع كلامه على هذه الآيات: «من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصدًا مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلًا بين شعاب وجبال، في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند كان معه ليوري نارًا- كما جرت- فجعل لا يقدح شيئًا، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارًا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: بشهاب من نار، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وهي: الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾، دل على وجود الظلام».

قال السعدي[2]: «وكان مطلبه النور الحسي، والهداية الحسية، فوجد النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله».

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٧٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٦.

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾، «أو» عاطفة، أي: أو أجد على النار من يهديني الطريق، وهذا يدل على أنه قد تاه عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي آنسها من بعيد، واقترب منها.

قال السعدي[1]: «وكانت في الحقيقة نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**»[2].

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: ناداه الله عز وجل؛ كما قال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨]، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الهمزة: «أَنِّي»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنِّيٓ﴾.

أي: إني أنا ربك، أي: الذي يناديك ويكلمك ربك؛ كما قال في آية القصص: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فناداه عز وجل هنا باسم الربوبية، وناداه في آية القصص باسم الألوهية.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، تعظيمًا لهذه البقعة المطهرة؛ ليطأ بقدميه أرضها المقدسة المباركة فينال من بركتها. وقيل: لأنهما كانتا من جلد حمار ميت[3].

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٧٩، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٦/ ٢٣.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾، «الوادي»: هو المفرج والسهل بين الجبال والتلال، و«المقدس»: المطهر المبارك المعظم؛ لأن الله اختاره لمناجاة كليمه موسى عليه السلام.

﴿طُوًى﴾، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بالتنوين: ﴿طُوًى﴾.

وقرأ الباقون: «طُوَى» بغير تنوين، وهو اسم للوادي، فهو عطف بيان.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، قرأ حمزة: «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ» بتشديد النون: «أَنَّا»، و«اخْتَرْنَاكَ» بالنون المفتوحة وألف بعدها على لفظ الجمع.

وقرأ الباقون: «أنا» بتخفيف النون، و«اخترتك» بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الواحد، أي: تخيرتك واصطفيتك على الناس.

كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والمراد: الناس الموجودون في زمانه.

وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه توجب عليه تلقي ما أوحي إليه، وشكر الله تعالى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية الأعراف: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى له هنا.

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط، و«ما»: موصولة، أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أي: فألق سمعك للذي أوحيه إليك.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾، هذا تفسير وبيان لـ«ما» في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، أي: إنني أنا المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، أي: لا إله غيري، ولا معبود بحق سواي.

﴿فَٱعْبُدْنِي﴾، الفاء: رابطة للمسبب بالسبب، أي: فاخضع وذل لي، وأخلص لي أنواع العبادة كلها، لا شريك لي.

وهذا هو حق الله على العباد، وأول وأعظم واجب عليهم؛ كما قال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: **«حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٦٧، ومسلم في الإيمان ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، معطوف على ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأهمية الصلاة، فهي أعظم العبادات كلها، وأفضلها وأشرفها، متضمنة عبودية القلب واللسان والجوارح.

والصلاة في اللغة: الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

﴿لِذِكۡرِيٓ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تذكرني فيها بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأن الصلاة تذكّر بالله تعالى، أي: صل لتذكرني؛ لأن ذكره عز وجل أجل المقاصد.

قال ابن القيم: «قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها، وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكرني بها»(١).

ويجوز كونها للتوقيت، أي: صل الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري، أي: صل الصلاة لوقتها؛ كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

وأيضًا: صل الصلاة حين تذكرها، فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾**»(٢).

والأظهر أنها لام التعليل، أي: وأقم الصلاة لأجل ذكري.

قال ابن القيم: «ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ٥٩٧، ومسلم في المساجد، قضاء الصلاة الفائتة ٦٨٤، وأبو داود في الصلاة ٤٤٢، والترمذي في الصلاة ١٧٨، وابن ماجه في الصلاة ٦٩٦.

فذكر الله سابق على ذكره؛ فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق»[١].

فالصلاة- بل العبادات كلها- شرعت لذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولهذا قال ﷺ: «**إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»[٢].

قال السعدي[٣]: «وهذا النوع يقال له: توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده».

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، الجملة: تعليلية، أي: لأن الساعة آتية، أي: واقعة لا محالة، وكائنة ولا بد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، أي: أقارب أن أخفيها، أي: أسترها من نفسي؛ لشدة إخفائي إياها.

قال ابن عباس: «لا أظهر عليها أحدًا غيري[٤]».

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك ١٨٨٨، والترمذي في الحج ٩٠٢، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٨.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٤).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف: ٨٥].

فهي غيب استأثر الله بعلمها وأخفاها عن الخلائق، لم يطلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجزى كل نفس بما تسعى، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تسعاه، أو بسعيها، أي: عملها وكسبها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم: ٣١].

والمعنى: إن الساعة قائمة وواقعة لا محالة؛ لأجل أن تجزى كل نفس بسعيها وعملها خيرًا كان أو شرًّا، وأخفيت علم وقوعها عن الخلائق؛ ليجتهدوا في العمل، ويتنافسوا في الاستعداد لها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾، أي: فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والاستعداد لها، والخطاب لآحاد المكلفين.

﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يصدق بالساعة بل يكذب بها ويشكك ويجادل فيها بالباطل، قد أنكر البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغتر بدنياه.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي: اتبع ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، وآثر ذلك على طاعة مولاه، فخسر دينه ودنياه وأخراه.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾، جواب النهي، أي: فتهلك وتخسر وتشقى مثله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ١١]، أي: إذا هلك.

واتباع الهوى مردٍ ومهلك، قال الشاعر:

وآفـة العقـل الهـوى فمـن عـلا ... عـلى هـواه عقلـه فقـد نجـا[1]

(١) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤)، وانظر: «العقد الفريد» (٢/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

لما بين عز وجل لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى به إيمانه؛ بتأييد الله له على عدوه.

قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، الاستفهام: للتقرير والتنبيه والاهتمام والإيناس لموسى عليه السلام، أي: ما هذه التي في يمينك يا موسى.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، أي: أعتمد عليها في قيامي وفي مشيي.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: أهز بها الشجر ليتساقط ورقه فترعاه غنمي.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، أي: حاجات ومنافع ومصالح أخرى غير ذلك، كأن يضعها عنزة له في صلاته، أو يدفع بها عن نفسه الأذى ونحو ذلك.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: ألق هذه العصا التي في يدك يا موسى، أي: اطرحها على الأرض، ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾، أي: طرحها على الأرض.

﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هي ثعبان تسعى، أي: فإذا هي قد انقلبت ثعبانًا عظيمًا مخيفًا، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي بسرعة وخفة وشدة، وتضطرب، وتهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات مشيًا وحركة، فولى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: ٣١].

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لتوهم أنها تخييل لا حقيقة؛ كما هو حال سحر السحرة.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فلا بأس عليك منها.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، «سيرتها» منصوب بنزع الخافض، أي: سنعيدها إلى سيرتها الأولى، أي: سنرجعها إلى هيئتها وطبيعتها الأولى، أي: سنعيدها عصًا كما كانت من ذي قبل، وهذه هي الآية الكبرى؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠].

فامتثل أمر الله إيمانًا وتسليمًا، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، الضم: الإلصاق. والجناح: العضد وما تحته إلى الإبط.

أي: واضمم وألصق يدك، أي: كفك، إلى جنبك تحت عضدك، أدخلها في جيب قميصك حتى تماس بشرة جنبك.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: تخرج بيضاء بياضًا ساطعًا.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أي: من غير مرض كالبرص والبهق ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾، أي: آية ثانية غير الآية الأولى، فالآية الأولى: انقلاب العصا حية تسعى.

والآية الثانية: أن يلصق يده إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾، أي: أعطيناك هاتين الآيتين: العصا واليد؛ لأجل أن نريك ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أي: من حججنا وبراهيننا العظيمة التي هي غاية في الكبر، الدالة على كمال قدرتنا وعلى صدق رسالتك وصحة ما جئت به؛ ليطمئن قلبك وتثق بوعد الله ونصره وحفظه لك، ولتكون حجة على من أرسلناك إليهم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وتقريره بما جاءه من خبر موسى عليه السلام وقصته العظيمة العجيبة، وعناية الله تعالى به قبل بعثته وبعدها، وما أيده الله به من المعجزات، وما جرى له مع فرعون، ومع بني إسرائيل؛ ليتأسى به في الصبر في تحمل أعباء الرسالة، وتسلية له تجاه

المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتكريمه.

٣- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم ما حفلت به قصته قبل مبعثه وبعد مبعثه من الآيات والدروس والعبر؛ لهذا كانت قصته أكثر القصص ذكرًا وورودًا في القرآن الكريم.

٤- رؤية موسى عليه السلام نارًا، واستبشاره بذلك، وأمره أهله بالمكث، وإخباره إياهم أنه آنس نارًا، راجيًا أن يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾.

٥- حاجة موسى وأهله في تلك الحال إلى ما يشعلون به النار للاصطلاء عليها من البرد وصنع طعامهم؛ كما قال في الآيتين الأخريين: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، [القصص: ٢٩].

٦- أن موسى عليه السلام قد ضل الطريق؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، أي: من يهديني الطريق.

٧- مناداة الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أتى إلى النار التي رآها وآنسها، وتكليمه له، وثبوت نبوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ الآيات.

٨- إثبات الكلام لله عز وجل، وأنه يتكلم بحرف وصوت يُسمع من شاء، وأنه نادى موسى عليه السلام وكلمه؛ لقوله تعالى: ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ الآيات.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى، إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام.

١٠- تطهير وادي «طوى» وتعظيمه؛ لأن الله أمر موسى عليه السلام بخلع نعليه، تعظيمًا لهذا الوادي.

١١- أن الله فضل بعض البقاع على بعض، ففضل وادي طوى؛ كما جعل مكة أفضل البقاع.

١٢- إثبات اختيار الله عز وجل لموسى عليه السلام- واصطفائه ووحيه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

١٣- إثبات الألوهية لله تعالى، وأنه هو الإله المعبود بحق، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾.

١٥- أن أول واجب على الخلق، وأعظم حق لله تعالى عليهم؛ هو توحيده بالألوهية، وعبادته وحده لا شريك له.

١٦- أن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، وقوله بعده: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾.

١٧- وجوب إقام الصلاة، وأنها أعظم العبادات؛ لهذا خصها بالذكر من بين العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.

١٨- أن الله تعالى شرع الصلاة؛ لأجل ذكره عز وجل؛ كما شرع جميع العبادات لذلك، ففيها ذكر الله تعالى، والتذكير به عز وجل، وذكره عز وجل لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٩- أن المهم في الصلاة أن تقام إقامة صحيحة بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل: «فصل».

٢٠- إثبات الساعة والقيامة، وأنها آتية لا ريب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾.

٢١- شدة إخفاء الله عز وجل لعلم الساعة، وأنها من أعظم الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلمها، لم يطلع عليها أحدًا من خلقه، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ

﴿مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾ [النمل: ٦٦].

٢٢- أن الحكمة في إتيان الساعة وإقامة القيامة لأجل أن تجزى كل نفس بسعيها، خيرًا كان أو شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾.

٢٣- أن إخفاء الساعة والقيامة؛ لأجل أن يجتهد العباد في العمل والاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾.

٢٤- كمال عدل الله عز وجل بين العباد، فلأجل ذلك أثبت إتيان الساعة؛ ليقتص للمظلوم من الظالم في ذلك اليوم، ولأجل أن يجازى العباد حسب أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

٢٥- الترغيب والإغراء بالإيمان والعمل الصالح، والترهيب والتحذير من الكفر والمعاصي؛ لأن كل إنسان سيلقى جزاء عمله خيرًا كان أو شرًّا.

٢٦- التحذير ممن لا يؤمنون بالساعة ويصدون الناس ويصرفونهم عنها، ويشككونهم فيها، وأن من سلك سبيلهم فمآله كمآلهم: الهلاك والردى، والخسران والبوار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦﴾.

٢٧- التحذير من اتباع الهوى، وأنه سبب للهلاك والردى.

٢٨- طمأنة الله عز وجل لموسى عليه السلام، وإيناسه له قبل أن يريه الآيتين: في عصاه، وفي يده بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾.

٢٩- اتخاذ موسى عليه السلام العصا، للاعتماد عليها عند قيامه ومشيه، وليهش بها على غنمه، ولحاجاته الأخرى؛ لقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: ١٨].

٣٠- أن اتخاذ العصا- حتى ولو كان الإنسان نشيطًا وغير كبير- ليس عيبًا؛ لأن موسى عليه السلام اتخذها وهو نشيط وغير كبير.

٣١- تأييد الله عز وجل لموسى عليه السلام بالمعجزة العظمى، وهي انقلاب عصاه إذا ألقاها حية تسعى، ومن ثم أخذها وعودتها عصا كما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ۝٢١﴾.

٣٢- تأييده عز وجل له بآية أخرى، وهي أن يضمم يده إلى جناحه ويدخلها في جيبه فتخرج بيضاء تسطع بياضًا من غير برص ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

٣٣- منة الله تعالى على موسى عليه السلام بما أيده به وأراه من الآيات الكبرى، والمعجزات العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

٣٤- قدرة الله تعالى التامة على تأييد رسله وأنبيائه بما شاء من الآيات والمعجزات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾.

لما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، وأراه الآيات الكبرى؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر فقال: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارًّا منه وهاربًا، فادعه وبلغه ما أرسلناك به إليه.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، الجملة تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والعتو والتمرد والعناد، والبغي والعلو في الأرض وظلم العباد، فادعى الربوبية والإلهية، وأضل قومه وعذب بني إسرائيل وآذاهم أشد الأذى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: ٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام وقد تلقى أمر الله تعالى له بالذهاب إلى فرعون بالقبول، سائلًا ربه الوسائل المعينة على ذلك، معدًّا لذلك الأمر العظيم عدته، حيث بعثه الله إلى أعظم ملوك الأرض آنذاك، وأشدهم كفرًا وتجبرًا، وعنادًا وطغيانًا.

مع شدة عداوته لموسى الذي تربى في بيته، وما حصل من موسى من قتل القبطي من قوم فرعون، ومع هذا كله لم يتردد موسى عليه السلام في إجابة أمر الله تعالى له، لكنه سأله فقال:

﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾، أي: يا رب اشرح لي صدري، أي: وسِّعه وأفسحه بالحلم والصبر؛ لأستطيع القيام بهذا الأمر العظيم، وأتحمل في سبيل ذلك الأذى القولي والفعلي، فلا يضيق صدري بذلك فينفض الناس من حولي ولا يقبلوا قولي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥].

وهذا أعظم مطلب يحتاجه الداعي إلى الله، وذلك لأن من كان ضيق الحشا، سريع الانفعال والغضب؛ لا يصلح لهداية الخلق؛ لأنه لا يصبر على أذاهم، ولا على

معالجتهم، ويستعجل جني الثمرة قبل أوانها، وأكثر الخلق يرد الحق، حتى ولو جاء به حليم واسع الصدر، فكيف إذا جاء به من ليس كذلك؟!

﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦﴾، أي: سهل لي شأني، أي: جميع أموري بعونك وتسديدك لي، وهذا من أعظم المطالب، وأكبر أسباب التوفيق للعبد؛ أن ييسر الله له أمره ويعينه؛ فإن العبد لا يستطيع أن يعمل أي شيء إلا بتيسير الله وعونه، وقد أحسن القائل:

إذا لم يكـن عـون مـن الله للفتـى فـأول مـا يجنـي عليـه اجتهـاده[1]

ومن أعظم التيسير للداعي إلى الله: أن يوفق للدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإتيان الأمور من أبوابها، ومخاطبة كل بما يناسبه، وبأقرب الطرق إلى قبول قوله.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨﴾، أي: حل عقدة من لساني، أي: خفف ما في لساني من العقدة واللثغة والعي، التي لا أستطيع بسببها الإفصاح بالقول؛ ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء: ١٣].

وجملة ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ في محل نصب مفعول لأجله، أي: لأجل أن يفقهوا قولي، أي: يعوه ويفهموه.

ولم يقل عليه السلام: «واحلل عقدة لساني»، بل سأل قدر الحاجة، فقال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، أي: بقدر ما يفقهوا ويفهموا المعنى.

وقد استجاب الله له فحل عقدة من لسانه، لكن بقيت في لسانه بقية من لثغة، ولو سأل الله زوالها لزالت بالكلية.

ولهذا عيَّره فرعون- أخزاه الله- بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢].

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩﴾، «الوزير»: مأخوذ من المؤازرة والمساعدة والمعاونة، أي: اجعل لي مؤازرًا ومساعدًا ومعينًا.

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾؛ لأنهم أولى بالمعروف والبر، وأشفق وأنصح، والمرء أعرف بهم من غيرهم.

﴿هَٰرُونَ﴾، بدل من ﴿وَزِيرًا﴾، ﴿أَخِي﴾، عطف بيان لـ«هارون»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**وكان هارون أكبر من موسى**»[1].

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾، قرأ ابن عامر: «أَشْدُدْ» بقطع الهمزة وفتحها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وضمها: ﴿ٱشۡدُدۡ﴾.

أي: قوِّني به، وشُدَّ به ظهري؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾، قرأ ابن عامر بضم الهمزة: «وأُشركه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾، أي: أشركه في شأني ومشاورتي، واجعله نبيًّا رسولًا كما جعلتني.

﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾، أي: كي نسبحك تسبيحًا كثيرًا، والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾، أي: ونذكرك ذكرًا كثيرًا بأنواع العبادة كلها، من التهليل والتحميد والتكبير، وقراءة القرآن والصلاة، وغير ذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة والغاية من بعثة الرسل: هي عبادة الله تعالى وتعظيمه، وأنها أكبر معين للداعي إلى الله ولكل مؤمن في تيسير أمر دينه ودنياه.

أي: كي نتعاون ونتساعد على تسبيحك كثيرًا، وذكرك كثيرًا في سائر الأوقات والأحوال، آناء الليل والنهار، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبنا.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾، أي: تعلم أحوالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إلى عونك في جميع أمورنا، وقد أوليتنا عنايتك ورعايتك في اصطفائك إيانا بالنبوة، فمنَّ علينا بما سألناك، واستجب لنا فيما دعوناك، قال النابغة الذبياني[2]:

عهدتك ترعاني بعين بصيرة وتبعث حراسًا عليَّ وناظرا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ ٥٦١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٨١).

الفوائد والأحكام:

١- بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مصر في زمانه، يدعوه إلى الله عز وجل، ويبلغه ما أرسل به إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

٢- شدة طغيان فرعون وتجبره وعناده وتكبره، وتجاوزه الحد في الكفر والبغي والظلم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

٣- استجابة موسى عليه السلام لأمر الله له بالذهاب إلى فرعون، وتقديره وإعداده في نفسه لهذا الأمر الخطير قدره وعدته، وتحمله عليه السلام تجاه ذلك مسؤوليته؛ لهذا سأل ربه عز وجل أسباب العون على ذلك، بأن يشرح صدره، وييسر أمره، ويحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يجعل أخاه هارون وزيرًا له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾﴾.

٤- أن من أعظم الأسباب لنجاح الداعي إلى الله تعالى في دعوته: أن يشرح الله صدره؛ ليتحمل ما يلاقيه من الأذى والمكابرة والعناد بحلم وأناة، وصبر وسعة صدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾﴾.

٥- أن فقدان الحلم، وسرعة الانفعال والغضب، وضيق الصدر، وعدم التحمل والصبر؛ من أسباب إخفاق الداعي.

٦- أن نعمة انشراح الصدر للإسلام أعظم النعم، بها يستنير القلب بنور الله، ويهتدي بهدى الله، وبها ينشط العبد للقيام بأمر الله، وما ينفعه في أمر دينه ودنياه؛ لهذا سأل موسى ربه ذلك، بل وجعله أول مطالبه.

٧- أن قيام الإنسان بالدعوة إلى الله تعالى، أو بأي عمل كان؛ مرهونٌ بتيسير الله تعالى له أمره، فإن لم ييسر الله له أمره لم يستطع القيام بشيء؛ لهذا ينبغي التضرع دائمًا إلى الله تعالى بذلك؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾.

٨- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه؛ لما فيه من اللثغة، مما لا يستطيع معه إفهام قومه؛ لهذا سأل الله تعالى ذلك؛ لقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾.

٩- أدب موسى كغيره من الأنبياء عليهم السلام في الاقتصار في سؤاله على ما تدعو الحاجة إليه، وما تحصل به الكفاية في فهم قوله؛ لقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾، ولم يقل: «واحلل عقدة لساني».

١٠- حاجة الداعي إلى الله تعالى إلى لسان فصيح يبين فيه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويرغب في الحق والهدى، ويحذر من الباطل والضلال والردى.

١١- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا له، يشدد به أزره، ويشركه في أمره بالنبوة، وفي هذا- مع تقديره للأمر قدره- اعتراف منه عليه السلام بحاجته إلى من يكون له عونًا في هذا الأمر العظيم؛ لقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾.

١٢- عظم مكانة موسى ووجاهته عند ربه؛ ولهذا أجاب الله سؤاله وشفاعته في جعل أخيه هارون نبيًّا ووزيرًا له؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩].

١٣- أن الأهل والأقربين أولى بالمعروف والبر؛ لقول موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾.

١٤- بر موسى بأخيه هارون عليهما السلام غاية البر؛ حيث شفع فيه عند الله أن يجعله نبيًّا وزيرًا له؛ ولهذا قالوا: إن أنفع أخ لأخيه في الدنيا موسى عليه السلام؛ حيث سأل الله لأخيه النبوة، فاستجاب الله له(١).

١٥- سلامة قلب موسى عليه السلام، وصفاء ما بينه وبين أخيه هارون؛ ولهذا خصه بالوجاهة له عند ربه.

وقل أن تجد أخًا يرشح أخاه ليكون وزيرًا له، ولو كانت فيه الكفاءة، بل يبحث عن غيره، حكمة بالغة.

١٦- تمام معرفة موسى عليه السلام بربه، وما ينبغي له سبحانه من التعظيم، ومعرفته للحكمة العظمى من إيجاد الخلق وإرسال الرسل، وهي عبادة الله تعالى والمنافسة في ذلك؛ وأن ذلك هو الغذاء الروحي الذي هو أكبر معين للداعي إلى الله؛

لقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

١٧- الترغيب في الإكثار من تسبيح الله تعالى وذكره وعبادته، وأن ذلك أعظم معين للعبد لتيسير أمور دينه ودنياه.

١٨- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أحوال العباد، وعلى حال موسى وأخيه، وافتقارهما إلى عونه، وعنايته بهما واصطفائهما بالنبوة؛ لقول موسى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

١٩- إظهار موسى افتقاره وأخيه إلى الله عز وجل البصير بهما؛ ليَمنَّ عليه بالاستجابة لما سأله ودعاه، وقد فعل كما في الآيات التالية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل إخبارًا لموسى بإجابته سؤاله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾، أي: قد أعطيت سؤلك يا موسى، أي: قد أعطيتك ما سألت، وأجبتك فيما طلبت: من شرح صدرك، وتيسير أمرك، وحل عقدة من لسانك؛ ليفقهوا قولك، وجعل أخيك هارون وزيرًا لك.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾، بعدما وعده عز وجل بإجابة سؤاله، أتبع ذلك بما يقوي تحقق هذا الوعد وتقريره؛ وهو سابق منته تعالى عليه، وأن هذه ليست المنة الأولى؛ فقد سبقها غيرها.

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد، و«قد» حرف تحقيق، ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾، أي: أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المنة والنعمة، من غير سابق دعاء منك ولا طلب.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾، أي: حين أوحينا إلى أمك، أي: ألهمناها ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، «ما» موصولة، تفيد أهمية ما أوحي إليها، أي: الذي أوحيناه إليها، وألهمناها إياه وأنت رضيع: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾، «أن» تفسير للفعل «أوحينا» أو للفعل «يوحى»، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من «ما» الموصولة، وضمير الهاء يعود إلى موسى، أي: أن ألقيه وضعيه في التابوت، و«التابوت»: الصندوق.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، الفاء في الموضعين عاطفة، والهاء في الموضعين تعود إلى موسى أو إلى التابوت.

﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، أي: في البحر، والمراد به: نهر النيل، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ الفاء: عاطفة، و«الساحل»: شاطئ النهر.

والمعنى: فألقيه وضعيه في اليم ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ﴾ كونًا وقدرًا، ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾، أي: بالشاطئ خارج النهر.

وذلك أن فرعون رأى رؤيا: أنه سيولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكه على يديه، فكان يقتل المواليد الذكور منهم، وكانوا يستعملونهم في الخدمة، فخوِّف أن يفنى بنو إسرائيل، فكان يقتل المواليد عامًا ويتركهم عامًا، فولد موسى في العام الذي يقتل به المواليد، فخافت أمه من فرعون وملئه أن يقتلوه، فألهمها الله أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه وضعته في تابوت وألقته في البحر، وأمسكته إلى منزلها بحبل، فانفلت منها الحبل يومًا وذهب به البحر فألقاه بالساحل إلى حيث دار فرعون، ولهذا قال:

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، وهو فرعون عدو الله؛ لادعائه الربوبية والألوهية، وإنكاره ألوهية الله، بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وهو عدو لموسى عليه السلام عداوتان: عداوة قديمة؛ لأنه من بني إسرائيل الذين يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، أنجاه الله من قتله بأعجوبة كما ذكر الله تعالى في هذه الآيات وغيرها.

وعداوة جديدة أشد وأعظم؛ لأن موسى عليه السلام أنكر على فرعون دعواه الربوبية والألوهية، ودعاه إلى توحيد الله تعالى وحده، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

وهذه سبب عداوته القديمة له.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾، أي: وجعلت لك محبة مني، فأحببتك وحببتك إلى خلقي، حتى أحبك فرعون وزوجته.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان اللام وجزم العين: «وَلْتُصْنَعْ».

وقرأ الباقون بكسر اللام ونصب العين: ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾، أي: ولتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي وتحت رعايتي وعنايتي، وكفى به حافظًا؛ حيث جعله يتربى في بيت الملوك، وعلى فراش ألد أعدائه، حكمة بالغة، وعناية فائقة.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، الاستفهام: للعرض، أي: هل أدلكم على من يربيه ويضمن حضانته ورضاعه، وذلك أنه لما عرض عليه المراضع من آل فرعون أباها؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢]؛ لأنها علمت أنه سيقبل ثدي أمه، وهكذا حصل فاستأجروها لإرضاعه.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، أي: كي تطيب نفسها برؤيتك، ورجوعك إليها ووجودك عندها، فأكرمها الله بسببه فلم تفارقه إلا ساعات قلائل، عناية من الله عز وجل به.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، على فراقك، وتتحقق من سلامتك؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

فجمع الله لها بين قرة العين به وذهاب الحزن، والأجر الأخروي والغنم الدنيوي.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾، يعني: القبطي من آل فرعون؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: فخلصناك من الغم والهم بسبب عزم آل فرعون على قتلك قصاصًا بقتيلهم؛ كما قال عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠- ٢١].

حتى ورد ماء مدين وقال له الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾؛ «فتونًا»: مصدر فتنه يفتنه فتنًا، أي: ابتليناك ابتلاء، وامتحناك

واختبرناك.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً، فقال الله له:** ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾»[١].

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، أي: وأقمت سنين طويلة في أهل مدين، وذلك بعدما خرج هاربًا من فرعون وملئه خوفًا أن يقتلوه، ووصل إلى أهل مدين وتزوج منهم، وأقام فيهم معززًا عشر سنين أو ثمانيًا يرعى على صهره، فلما قضى الأجل المضروب بينه وبينه خرج وسار بأهله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩].

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: على قدر مقدر لتكليم الله لك، ووحيه إليك وإرسالك، لم تتقدم عنه ولم تتأخر، قال جرير[٢]:

جاء الخلافة أو كانت له قدرًا   كما أتى ربه موسى على قدر

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١﴾، «الاصطناع» في الأصل: اتخاذ الصنيعة، وهي الخير تهديه إلى غيرك، قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنيعة فاقصد بها   وجه الذي يولي الصنائع أو دع[٣]

والمعنى: اصطفيتك واجتبيتك واخترتك واختصصتك لنفسي؛ لتبليغ وحيي ورسالتي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**التقى آدم موسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة؟ قال: نعم، قال: فوجدته قد كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٣٩٠٥، والطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٢١١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤.

الفوائد والأحكام:

١- استجابة الله عز وجل دعاء موسى وسؤاله، بشرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة من لسانه، وجعل أخيه هارون وزيرًا له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: ٣٦].

٢- تذكير الله عز وجل لموسى بمنته السابقة عليه بإنجائه من قتل فرعون بأعجوبة وقدرة تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾ الآيات.

٣- إلهام الله عز وجل لأم موسى أن تلقيه في تابوت وتلقيه في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، وذلك بعد إرضاعه إذا خافت عليه من فرعون أن يقتله؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

٤- حكمة الله تعالى وقدرته وقدره المبرم في جعل البحر يلقيه بالساحل حيث دار فرعون؛ ليأخذه عدو الله وعدو موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

٥- أن الحذِر قد يؤتى من مأمنه، وأن الحذَر لا ينجي من القدر، فقد تربى موسى في بيت فرعون الذي كان يقتل غلمان بني إسرائيل حذرًا منه، وهو الذي هلاك فرعون وزوال ملكه على يده.

٦- أن من تسخير الله تعالى لموسى أن ألقى عليه المحبة، فأحبه عز وجل وحببه إلى خلقه، حتى أحبه فرعون وزوجته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾.

٧- عناية الله تعالى التامة بموسى، وجعله يتربى على نظره، وفي حفظه، وتحت كلاءته ورعايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

٨- أن من عناية الله تعالى بموسى عليه السلام وبأمه: أن حرم عليه المراضع كونًا؛ ليرده إلى أمه لترضعه وتقر عينها ولا تحزن؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾، وهذا بعد أن حرم الله

عليه المراضع؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٢-١٣].

٩- امتنان الله عز وجل على موسى بإنجائه من الغم وخوف القتل، بسبب قتله القبطي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

١٠- ابتلاء الله عز وجل لموسى بأنواع الابتلاء وامتحانه واختباره وتمحيص الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾.

١١- أن من قدر الله له السلامة سلم مهما ألمت به الحتوف والخطوب، فهذا موسى عليه السلام يلقى في البحر فينجو، ويصير إلى بيت فرعون عدو الله وعدوه، فيسلم من شره وبطشه.

١٢- لبثه عليه السلام في أهل مدين معززًا عشر سنين أو ثمان سنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ومن ثم خروجه منهم وسيره بأهله بعد أن قضى الأجل المضروب بينه وبين صهره في الرعي؛ كما قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩].

١٣- مجيء موسى عليه السلام- بعدما قضى الأجل بينه وبين صهره- على قدر مقدر لم يتقدم ولم يتأخر؛ لتكليم الله تعالى له بالوحي والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾.

١٤- اصطناع الله عز وجل موسى لنفسه، واصطفاؤه واجتباؤه واختياره لتبليغ وحيه عز وجل ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: اذهب يا موسى، أنت وأخوك هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي، الدالة على صدقكما وصدق ما جئتما به من الحق وعلى إبطال الباطل؛ من العصا واليد وغيرهما من الآيات التسع؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠١- ١٠٢].

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾، أي: ولا تضعفا ولا تفترا في ذكري، بل اذكراني على الدوام، والزما ذكري باستمرار في جميع الأحوال؛ كما وعدتما بقولكما: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وذلك لأن ذكر الله أعظم معين في الملمات، وأكبر قوة وسلطان في مواجهة الخطوب؛ ومن أهم أسباب تيسير الأمور؛ ولهذا أمر الله تعالى به وقت الجهاد والقتال والجلاد، قال تعالى بعد أن ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وشرعه في ختام الأعمال من الصلاة والصيام والحج، وغير ذلك.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، «إن»: تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والظلم والبغي والعناد، وادعى الربوبية والإلهية وتطاول على رب العباد.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: قولًا سهلًا رقيقًا لطيفًا برفق وأدب؛ لأن ذلك أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع؛ كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩]، فخاطبه عليه السلام بقوله: ﴿هَل لَّكَ﴾، الدالة على العرض والمشاورة، ولم يأمره أمرًا، أو ينكر عليه، أو ينهه.

وهكذا أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ وأمته بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۝١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: لعله يتعظ ويعرف الحق ويتبعه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: أو يخشى الله ويخاف عقابه، فينتهي عما هو عليه من المعارضة واتباع الهوى.

قال ابن تيمية: «الذي يذَّكر الذي إذا عرف الحق وتبين له اتبعه، فهو الذي يدعى بالحكمة، وهو الذي يتذكر، وهو الذي يُحدث القرآن له ذكرًا.

والثاني: أن يكون له من الهوى المعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم المذكور في قوله: ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، فقوله «سبحانه»: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] طلب وجود أحد الأمرين، بتبليغ الرسالة، وجاء بصيغة «لعل»؛ تسهيلًا للأمر، ورفقًا وبيانًا؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول الآخر، فلا يطلبان جميعًا في الابتداء»(١).

فالقول اللين داعٍ للتذكر والخشية وقبول الحق وترك الباطل، والقول الغليظ بخلاف ذلك داعٍ لرد الحق والتمادي في الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا، ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾، أي: أن يعاجلنا ويبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، أي: أو أن يتمرد ويزداد طغيانًا، اغترارًا بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله لهما: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أن يفرط فرعون عليكما.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، معية خاصة، بتوفيقي وحفظي لكما، وتأييدكما، ودفع شره عنكما، ونصركما عليه.

﴿أَسْمَعُ﴾، أي: أسمع كلامكما وكلامه.

﴿وَأَرَىٰ﴾ مكانكما ومكانه، وأعمالكما وأعماله، وأرقب أحوالكم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥].

فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بحفظ الله لهما، وهو خير الحافظين؛ ولهذا قال:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، أي: إنا أرسلنا من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره دونهما في هذا الموضع والذي بعده استدعاء لسمعه وطاعته؛ كما أن فيه إشعارًا له بكذب دعواه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: أطلقهم من الأسر والعبودية وسرحهم، واتركهم يذهبون معنا؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦- ١٧]، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤- ١٠٥].

﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، واستعبادهم، وتسخيرهم بالخدمة

والأعمال الشاقة.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد أتيناك بدلالة ومعجزة من ربك، وعلامة تدل على صدقنا، وأن ما جئناك به هو الحق من ربك.

ووحد «آية» مع أن معه آيتين؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قيل: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، ولذلك قال في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

ويحتمل أن المراد بـ«آية»: جنس الآيات، كاليد والعصا؛ ولهذا لما قال فرعون بعد هذه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦]، قال الله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨].

ويحتمل أن المراد بالآية هنا: الآية الكبرى وهي العصا؛ كما في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾، أي: والسلام على الذي اتبع الهدى، أي: أن من اتبع الهدى الذي أرسل الله به الرسل حصلت له السلامة، وفي هذا ترغيب باتباع الهدى، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

وهذا ليس بسلام تحية، بل هو خبر محض، بأن السلام المطلق على من اتبع الهدى، أي: أن السلامة له، دون من خالف الهدى، فإن له العذاب؛ كما قال تعالى بعد هذا: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن القيم: «أما قول موسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه؛ فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾»(١).

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله: «**بسم الله**

الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»[(١)].

وكتب إلى مسيلمة الكذاب: «**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين**»[(٢)].

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ أي: قد أوحى الله تعالى إلينا وأخبرنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل لـ«أوحي»، أي: أن العذاب في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: على الذي كذب بقلبه بآيات الله وما جاءت به الرسل.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: وأعرض عن الانقياد لذلك بجوارحه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات: ٣٧- ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل: ١٤- ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١- ٣٢]، أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: ٤٩- ٥٢].

قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للإنكار، أي: قال فرعون منكرًا ربوبية الله تعالى، ومنكرًا وجود الخالق الصانع: أي إذا كان الأمر كما تقول فمن هو ربكما يا موسى؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام إجابة لفرعون:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾، أي: الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، والملائم له، من حيث شكله وصورته ولونه وحسنه وكبره

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٢٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/ ١٤٨)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٥٧٢).

وصغره وجميع صفاته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أي: ثم هدى كل مخلوق لما خلق له، قدرًا وشرعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧- ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال ابن القيم: «والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه».

وقال أيضًا: «والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون»(١).

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١﴾، لما أخبره موسى بأن ربهما ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾، ولم يتمكن فرعون من رد هذا الدليل القاطع حاد عن المقصود، وأخذ بالمراوغة، فشرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله، أي: إذا كان الأمر كما تقول، فما بال القرون السالفة والأمم الماضية الذين لم يقروا بهذا الرب ولم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ أي: أن هذا لم يخف عليهم ولم يهملوه.

وهذا احتجاج فاسد؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وألوهيته بكفر الكافرين وشرك المشركين؟! هذا في غاية الفساد والبطلان.

وهذا السؤال من فرعون لصرف موسى عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني عما أرسل به.

ويحتمل أن يكون توهم أن موسى يعلم الغيب، فأراد أن يقف على ما مضى ويفتح بابًا للتكذيب والتخطئة بالفساد واللجاج؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٧، ١٥٨.

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وشتان بين الاحتجاجين، فموسى عليه السلام يحتج على وجود الخالق وإلهيته بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبيته في خلقه، وعدو الله فرعون يحتج على إنكار ذلك بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ كما هو شأن المبطلين.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، أي: قال موسى: علم القرون الأولى عند ربي، أي: خبرهم وعملهم وكفرهم وشركهم معلوم عند ربي.

﴿فِي كِتَابٍ﴾، أي: محصًى مضبوط في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، فعِلْمُه عز وجل محيط بالأشياء كلها قبل وجودها وبعد وجودها وبعد عدمها، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد علم عز وجل أعمالهم وكتبها وقدرها قبل أن يعملوها، وهداهم إليها فعملوها، وعلم بها وكتبها بعد أن عملوها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

أي: أنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عنهم، فسيحاسبون ويجازون بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وفي قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ تعريض بحال الإنسان؛ فإن علمه محفوف بنقصين: جهل سابق بالأشياء قبل علمها، ونسيان لاحق لها بعد علمها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الميم ومن غير ألف: ﴿مَهْدًا﴾، وقرأ الباقون بكسر الميم والألف: «مِهَادًا».

وهذا من تمام كلام موسى، و«الذي» اسم موصول مبني في محل رفع نعت لـ«ربي»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي جعل لكم الأرض مهدًا، أي: ممهدة مذللة قرارًا وفراشًا لكم؛ لتتمكنوا من السكن والقرار عليها، والبناء والغراس؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم فيها طرقًا، سهلها ويسرها وذللها لكم، تسلكونها وتمشون فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: وأنزل من السحاب الذي في العلو مطرًا.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾، أي: فأخرجنا من الأرض بسبب هذا الماء أصنافًا وأنواعًا وأشكالًا وألوانًا.

﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، أي: من نباتات وزروع وثمار كثيرة، مختلفة الطعوم والمآكل والروائح والمنافع وغير ذلك.

﴿كُلُوا۟﴾، الأمر للامتنان، أي: كلوا مما أخرجنا لكم من الزروع والفواكه والثمار.

﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾، فيما أخرجنا لكم من النبات والعشب والقضب، رطبًا ويابسًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، الإشارة تعود إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الآية، أي: إن في جعل الأرض ممهدة، وسلك السبل فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج النبات المتعدد الأصناف والأنواع المختلف الطعوم والمنافع منها

﴿لَآيَٰتٍ﴾، أي: لعلامات ودلالات، وحججًا وبراهين ساطعات.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لأولي العقول السليمة المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم، فيهتدون بها إلى الاستدلال بذلك على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ومنته ونعمته واستحقاقه العبادة وحده، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، بخلاف من عداهم ممن لم ينتفعوا بعقولهم، فهم كالبهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا تفيدهم الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾، أي: من الأرض خلقناكم بخلق أبيكم آدم منها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، بدفنكم فيها بعد موتكم وصيرورتكم ترابًا ورميمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٧].

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، أي: مرة أخرى ببعثكم من قبوركم يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾، وقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

٢- نهيهما أن يضعفا في ذكر الله أو يفترا فيه؛ لأن ذكر الله تعالى أكبر معين لهما، وهو أعظم قوة في مواجهة جميع الملمات والخطوب، ومن أعظم أسباب تيسير الأمور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، ولهذا أمر الله به حال الجهاد، وجعله ختام كثير من العبادات.

٣- شدة طغيان فرعون وعلوه وتكبره وعناده وتجبره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وقد فاق بذلك جميع طغاة الأرض فادعى الربوبية والألوهية، أخزاه الله.

٤- سعة حلم الله عز وجل؛ لأمره عز وجل موسى وهارون بتليين القول لفرعون، وفتح باب التوبة له، لعله يتعظ ويخشى الله ويخاف عقابه، مع ما وصل إليه من التمادي والطغيان، وإنكار ألوهية الواحد الديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

٥- يجب على الدعاة إلى الله تعالى والمربين والمصلحين استلهام هذا الدرس العظيم من قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنه إذا كان هذا مع فرعون أكبر طغاة الأرض، فغيره من المدعوِّين أولى بالرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

٦- سعة رحمة الله تعالى ومغفرته وعفوه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، فمن تاب وأناب إليه قبله مهما ارتكب من الموبقات؛ لأن الله عرض التوبة على فرعون مع ما ارتكبه من الطغيان.

٧- مخافة موسى وهارون عليهما السلام من فرعون أن يفرط عليهما فيعاجلهما بالعقوبة، قبل أن يبلغاه رسالة الله، أو أن يتمرد ويزداد طغيانًا؛ اغترارًا بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾، وقوله: ﴿رَّبُّكُمَا﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّى﴾.

٩- طمأنة الله عز وجل لهما بكلاءته ورعايته لهما، وعنايته بهما بسمعه وبصره وحفظه وتسديده وتوفيقه لهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

١٠- إثبات معية الله الخاصة لأوليائه، معية الحفظ والتسديد والعون والتوفيق، ونحو ذلك.

١١- إثبات صفة السمع لله تعالى، وأنه تعالى يسمع جميع الأصوات، وإثبات صفة الرؤية والإبصار له، وأنه سبحانه يرى ويبصر كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

١٢- أمر الله لهما أن يأتيا فرعون ويخبراه أنهما رسولا ربه، ويدعوانه إلى الله، ويطلبان منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، ويخلصهم من استعباده وأسره وقهره لهم وتعذيبه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

١٣- جمع فرعون بين أشد أنواع الظلم بدعوى الربوبية والألوهية، وصرف حق الله لنفسه، وباستعباد بني إسرائيل وتعذيبهم وظلمهم.

١٤- إقامة موسى وأخيه الحجة على فرعون بما جاءا به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لفرعون ولجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦- الإخبار بأن السلام على من قبل الهدى واتبعه؛ لقول موسى وهارون: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

١٧- وحي الله عز وجل وإخباره لموسى وأخيه أن العذاب على من كذب بقلبه بالحق، وتولى وأعرض عن العمل به بجوارحه؛ لقولهما: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

١٨- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى ووجود الخالق والصانع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

١٩- إفحام موسى عليه السلام لفرعون، وإبطال دعواه الربوبية في إجابته له بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، حيث بين أن ربهم هو رب العالمين كلهم، الذي يشاهد فرعون وغيره آثار ربوبيته في خلقه، لا رب لأحد سواه.

٢٠- عدول فرعون لما أفحمه موسى بالجواب القاطع لحجته إلى المشاغبة والمراوغة؛ لصرف موسى عما يدعوه إليه، بالاحتجاج بالقرون الأولى الذين لم يقروا بربوبية الله تعالى ولم يعبدوه بل عبدوا غيره، وهذا في غاية الفساد والبطلان؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وإلهيته بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

٢١- رد موسى عليه السلام هذا الاحتجاج الباطل بأنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عن القرون الأولى، فعلمهم وخبرهم وأعمالهم عند الله تعالى يحصيها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

٢٢- إثبات سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، وكتابته، وكتابة أعمال العباد، ومجازاتهم عليها، لقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾.

٢٣- إثبات اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال.

٢٤- كمال علم الله عز وجل، فلا يعتري علمه سبحانه ضلال وجهل سابق، ولا نسيان لاحق، لقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

٢٥- التذكير بنعم الله تعالى على العباد، ودلائل وحدانيته؛ من جعل الأرض ممهدة للاستقرار والحياة عليها، وسلك الطرق فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج أصناف النباتات المختلفة منها؛ ليأكلوا منها، ويرعوا أنعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

٢٦- أن كل ما يخرج من الأرض فهو حلال مباح، ما لم يكن فيه ضرر على البدن والعقل، كالسموم والمخدرات ونحوها؛ لأن الله عز وجل ساق الآية مساق الامتنان.

٢٧- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة، والبصائر المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾، وفي هذا امتداح لهم وثناء عليهم.

٢٨- أن من لم ينتفع بالآيات فهو- وإن كان عنده عقل الإدراك- فليس من أولي النهى، بل هو أضل من البهيمة.

٢٩- إخبار العباد وتذكيرهم بمبدئهم ومنتهاهم، وأنهم خلقوا من الأرض بخلق أبيهم من أديمها وترابها، وفيها يعيدهم بدفنهم فيها بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا ورميمًا، ومنها يخرجهم مرة أخرى ببعثهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

٣٠- الترغيب والحث على التواضع والعمل الصالح، فالخلق خلقوا من التراب،

ويعودون إلى التراب، ثم يخرجون للحساب، فإما ثواب وإما عقاب.

٣١- الاستدلال بدليلين عقليين على قدرة الله التامة على البعث، وهما: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإيجاد المكلفين وخلقهم منها أول مرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾، الواو: استئنافية، اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أرينا فرعون آياتنا كلها، كالعصا واليد، وغيرها من الآيات التسع، وغيرها، الدالة على صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الحق، وأنه مرسل من عند الله تعالى إليه.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وجحدها ظاهرًا مع استيقانها باطنًا، ﴿وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾، أي: امتنع من الانقياد لما دلت عليه من الأمر والنهي، كفرًا وعنادًا وبغيًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا﴾، الاستفهام: للإنكار، واللام للتعليل، أي: قال فرعون منكرًا ما جاء به موسى من الآيات البينات والدلالات والمعجزات: أجئتنا لأجل أن تخرجنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: أرض مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب سحرك، فجعل ما جاء به موسى عليه السلام من معجزة العصا واليد، من السحر؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠﴾ [الأعراف: ١٠٦- ١١٠].

وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٥].

فزعم أن ما جاء به موسى سحر، وأنه يريد به إخراجهم من أرضهم، ليؤثر في قلوب الناس، ويحرك مشاعرهم؛ لأن الناس تعز عليهم أوطانهم، ويصعب عليهم فراقها، وهذا أمر جبلي، فقد وقف المصطفى ﷺ على الحزورة، وقال مخاطبًا مكة: «**والله لأنت أحب البلاد إلى الله- أو إليّ- ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**»[1].

قال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعه … وألّا أرى غيري له الدهر مالكا

عمرت به شرخ الشباب منعمًا … بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا

وحبب أوطان الرجال إليهمُ … مآرب قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ … عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه … لها جسد إن بان غودر هالكا[2]

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة … وأهلي وإن ضنوا علي كرام[3]

وقال الآخر الذي اضطره الفقر والبحث عن لقمة العيش إلى ترك بلده «نَجْد» حانًا إليها، ومتوجّداً عليها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد … لقد زادني مسراك وجدًا على وجد

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد، أي: فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/ ١٨٢٦).

(٣) انظر: «تفسير المراغي» (٢٤/ ٨٢).

﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء جزمًا: «نُخْلِفْهُ»، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿نُخۡلِفُهُۥ﴾.

أي: فأمهلنا واجعل لنا ﴿مَوۡعِدٗا﴾، أي: وعدًا، ومكانًا للوعد، أي: اجعل لنا وقتًا ومكانًا محددين معينين نجتمع فيهما.

﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ﴾، أي: لا نخلف ذلك الموعد، ﴿نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ توكيد لضمير الفاعل المستتر في «نخلف».

﴿مَكَانٗا سُوٗى﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم وحمزة وخلف بضم السين: ﴿سُوٗى﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «سِوًى».

وقوله: ﴿مَكَانٗا﴾ بدل من «موعدًا»، ﴿سُوٗى﴾، أي: يستوي علمنا وعلمك به، أو مكانًا مستويًا معتدلًا؛ لنتمكن ويتمكن الناس كلهم من رؤية ما يجري فيه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، أي: يوم العيد، أي: يوم عيدكم الذي تتزينون فيه وتتفرغون فيه من مشاغلكم وتجتمعون فيه، قيل: هو يوم عيد نَوْروزهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان يوم الزينة يوم عاشوراء»[1].

﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾، أي: وأن يجمع الناس ضحى، أي: في ضحوة من النهار؛ ليكون الأمر أوضح وأجلى، وليظهر الحق لكل ذي عينين، ويزهق الباطل.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤﴾.

قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾، أي: انصرف فرعون وشرع يعد لهذا الأمر عدته؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣﴾ [النازعات: ٢٢-٢٣].

﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾، أي: فجمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع كل ما لديه

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢٩٣.

من وسائل الكيد والمكر والحيل، لإظهار غلبة السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١١- ١١٢]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٦- ٤٠].

وقال في سورة يونس: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء: ٥٣].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي: حضر الموعد هو وملؤه وجنوده.

قال ابن كثير[1]: «أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم، وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف حوله أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١- ٤٢]».

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ واعظًا ومحذرًا لهم، ومنذرًا ومخوفًا.

﴿وَيۡلَكُمۡ﴾، الخطاب للسحرة، وقيل: لفرعون وملئه وللسحرة، و«الويل»: تهديد ووعيد بالعذاب.

﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، أي: لا تختلقوا على الله كذبًا بما تخيلون للناس من السحر والشعوذة؛ لتنصروا ما أنتم عليه من الباطل، وتغالبوا الحق.

﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الياء والحاء: «فَيَسْحَتَكُمْ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء: ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾، أي: فيستأصلكم بعقوبة تبيدكم عن آخركم، ولا تبقي منكم بقية، ولا تذر منكم أحدًا.

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٢٩٤.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، أي: وقد خسر الذي افترى واختلق على الله الكذب.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، لما وعظ موسى عليه السلام السحرة وأنذرهم وخوفهم عقوبة الافتراء، وبين لهم خيبة وخسران من افترى؛ ارتبكوا فتنازعوا أمرهم بينهم فيما يقولون في موسى، هل هو على حق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل ما توعدهم به من العذاب حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾، أي: لما تنازعوا واختلفوا، اختلوا وأسروا الحديث والتناجي بينهم؛ ليصدروا عن رأي واحد يتفقون عليه، لا يدخل معهم فيه غيرهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، قرأ ابن كثير وحفص بتخفيف النون: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: «إِنَّ هَذَانِ»، قال ابن تيمية: «وهي أصح القراءات لفظًا ومعنى، ورفعت «هذان»؛ لأنها من الأسماء المبهمة»(١).

وقرأ أبو عمرو بالياء: «هَذَيْنِ»، وقرأ ابن كثير على أصله في تشديد النون: «هَذَانِّ».

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾، يعنون موسى وأخاه هارون، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لساحران خبيران بصناعة السحر، وهذه المقالة: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وما بعدها خلاصة ما اتفقوا عليه في نجواهم.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: يريدان إخراجكم من أرضكم مصر، بحيث تكون لهم الغلبة في الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلان فرعون وجنوده فينتصران عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقد توافقوا مع فرعون في مقالته السابقة، وزادوا عليها قولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، أي: ويريدان أن يستبدا بطريقتكم المثلى في السحر، وينفردا بها، ويصرفا وجوه الناس إليهما، وتكون لهما الرياسة والتعظيم وجباية الأموال دونكم.

وهذا حض من بعضهم لبعض على الاجتهاد في مغالبتهما؛ ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾، قرأ أبو عمرو بوصل الهمزة وفتح الميم: «فَاجْمَعُوا»، وقرأ الباقون بقطعها وكسر الميم: ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٤٨.

ومعنى ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾، أي: اعزموا عليه، وابذلوا فيه غاية جهدكم، وأجمعوا عليه ولا تختلفوا.

﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾، أي: ثم ائتوا مجتمعين صفًّا واحدًا متظاهرين متناصرين، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتكون لكم الغلبة والانتصار.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾، أي: واعلموا أنه قد فاز ونجح اليوم وبعده من غلب من الفريقين.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد قيام الحجة على فرعون بما أراه الله من الآيات والمعجزات على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾.

٢- تكذيب فرعون بآيات الله تعالى، وامتناعه من قبول الحق، والانقياد للأمر والنهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

٣- إنكار فرعون على موسى مجيئه بالآيات، وزعمه أنها من سحر موسى، جاء به ليخرجهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

٤- اغترار فرعون بمن عنده من السحرة، وأنه سيقابل بسحرهم ما جاء به موسى من الآيات، حسب زعمه أنها سحر؛ لقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

٥- طلب فرعون من موسى ضرب موعد بينهم وبينه، أي: وقتًا يجتمعون فيه، لا يخلفونه لا هم ولا هو، ومكانًا يستوي علمهم وعلمه به، مستويًا يتمكن كل من حضر من الناس من رؤية ما فيه؛ لقول فرعون: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

٦- حرص موسى عليه السلام على بيان دعوته وما جاء به من الحق لجميع قوم فرعون، وعلى شهودهم كلهم ما يجري بينه وبين السحرة، وثقته عليه السلام التامة بأن الغلبة له ولما جاء به من الحق؛ ولهذا ضرب لهم موعدًا يوم زينتهم وعيدهم، وأن يكون جمع الناس ضحوة في رابعة النهار؛ ليعلنها صريحة في الملأ؛ وليزهق الباطل ويظهر الحق لكل ذي عينين؛ لقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

٧- رفق موسى عليه السلام بالناس، وعدم تكليفه إياهم موعدًا آخر غير موعد

عيدهم وزينتهم.

٨- انصراف فرعون وسعيه في جمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع ما عنده من وسائل المكر والحيل؛ لإظهار غلبة السحرة، وإتيانه وملؤه وجنوده هذا المشهد العظيم؛ ليكيد للحق ويغالبه، غرورًا منه.

٩- تحذير موسى عليه السلام للسحرة، وإنذاره إياهم من افتراء الكذب على الله، وتهديدهم بإهلاكهم واستئصالهم بالعذاب والخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

١٠- أن نهاية كل مفتر على الله الهلاك والخيبة والخسران.

١١- تأثر السحرة بموعظة موسى، وتنازعهم أمرهم بينهم بسبب ذلك: هل موسى على الحق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل لوعيده حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

١٢- أن الموعظة والدعوة إلى الحق لها أثرها في القلوب مهما كان حال المدعو.

١٣- إسرار السحرة النجوى واختلاؤهم فيما بينهم؛ ليصدروا برأي موحد قوي يتفقون عليه، يرضي فرعون وملأه، ولا يطلع عليه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾.

١٤- موافقة السحرة لقول فرعون في حكمهم على موسى وهارون بأنهما ساحران يريدان أن تكون لهما الغلبة والأمر، ويخرجا فرعون وقومه من أرضهم؛ لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾، وقد قال فرعون قبلها: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

١٥- اتهام السحرة موسى وهارون بأنهما يريدان أن يستبدا بالطريقة المثلى في صناعة السحر، ويسلبانها منهم، وتكون لهما الشهرة والرئاسات وجباية أموال الناس؛ لقولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾.

١٦- حض السحرة بعضهم بعضًا على جمع كيدهم ومكرهم، والحزم والعزم وتوحيد جهدهم وكلمتهم؛ لقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾.

١٧- اتفاقهم على أن يأتوا مجتمعين متعاونين صفًّا واحدًا؛ ليلقوا ما في أيديهم من السحر ليبهروا الأبصار، وتكون لهم الغلبة والانتصار؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾.

١٨- توهم السحرة الباطل بأنهم سيكون لهم الفوز والاستعلاء يومهم ذلك وما بعده؛ لقولهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥﴾، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝١١٥﴾ [الأعراف: ١١٥].

«إما» في الموضعين: أداة شرط وتفصيل، وفيها معنى التخيير، أي: إما أن تلقي يا موسى أنت أولًا عصاك وما معك، مما يزعمون أنه سحر سيغالبونه عليه، وخيروه وقدموه في تخييرهم له موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حال، ومغترين بذلك.

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، أي: وإما أن نكون نحن السحرة ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، أي: وإما أن نلقي نحن أولًا ما معنا من السحر.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ﴾، أي: بل ألقوا أنتم؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وإنما قال لهم هذا ثقة بأن الله سيبطل كيدهم، وإرخاء للعنان لهم؛ ليرى ماذا يصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، أي: فألقوا حبالهم وعصيهم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ [الآيات: ٤٣- ٤٤].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾، قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وروح عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «تُخَيَّلُ»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير: ﴿يُخَيَّلُ﴾.

أي: يخيل إلى موسى من شدة سحرهم ﴿أَنَّهَا﴾، أي: أن هذه العصي والحبال ﴿تَسْعَىٰ﴾، تتحرك وتضطرب وتميد بسبب ما أودعوها من الزئبق، مما يخيل للناظر أنها تسعى باختيارهم، وإنما كانت حيلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، أي: شعر وأحس في داخل نفسه خيفة؛ كما هو

مقتضى الطبيعة البشرية، مع ثقته وجزمه بوعد الله ونصره، ولهذا لم يظهر ذلك على ملامحه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾، أي: قلنا له تثبيتًا وتطمينًا: لا تخف.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، الجملة: استئنافية، أي: إنك أنت الأعلى عليهم، أي: ستعلو عليهم وتنتصر، ويخضعوا ويذلوا لك.

وقد أكد حصول العلو له والغلبة عليهم بست مؤكدات، هي: «إن» التي تؤكد ما بعدها، وضمير الفصل «أنت»، ولام التعريف في قوله: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: أنت الأعلى دون غيرك، وأفعل التفضيل، ولم يقل «العالي»؛ ليشعر بزيادة العلو، وإثبات الغلبة من «عالٍ»، والاستئناف في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولم يقل: لأنك أنت الأعلى، فنفى الخوف عنه أولًا بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ثم استأنف بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١). ويحتمل كون الجملة تعليلية، أي: لأنك أنت الأعلى.

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾، أي: عصاك التي في يمينك؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾، روى ابن ذكوان برفع الفاء: «تَلْقَفُ»، وقرأ حفص بإسكان اللام مع تخفيف القاف: ﴿تَلْقَفْ﴾، وقرأ الباقون بالجزم وفتح اللام والتشديد: «تَلَقَّفْ»، وذلك أنها صارت ثعبانًا بينًا، وحية كبرى، وتنينًا عظيمًا هائلًا، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي فتبتلعها حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس كلهم ينظرون إلى ذلك في ذلك الجمع العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧- ١١٩].

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سِحْرٍ» بكسر السين، وإسكان الحاء من غير ألف، وقرأ الباقون بالألف وفتح السين وكسر الحاء: ﴿سَٰحِرٍ﴾.

«إنما»: أداة حصر، أي: ما صنعوا إلا كيد ساحر، أي: مكر ساحر وتخييله وتمويهه،

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٩.

لا ثمرة منه، ولا ثبات له أمام الحق؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، أي: لا يفوز الساحر ولا ينجح، بل هو مغلوب مقهور، ثمرة عمله وعاقبة أمره الخيبة والخذلان، والبوار والخسران، في الدنيا والآخرة.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾، لما رأى السحرة هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة- وهم أعلم الناس بفنون السحر وطرقه- علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والتخييل، وأنه برهان من رب العالمين، على ما جاء به موسى من الحق المبين، فخروا لله ساجدين.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا، وانقدنا له بجوارحنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء: ٤٦- ٤٨].

الفوائد والأحكام:

١- تخيير السحرة لموسى وتقديمهم له في التخيير، موهمين ثقتهم بالظهور عليه، ومغترين بسحرهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾.

٢- ثقة موسى عليه السلام بوعد الله تعالى له بالنصر والغلبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾، ولكي يظهر للناس جلية أمر السحرة، ويتبين لهم بطلان أمرهم.

٣- تمويه السحرة على موسى وعلى الناس، وتخييلهم عليهم بسحرهم وحبالهم وعصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

٤- شعور موسى عليه السلام وإحساسه في نفسه خيفة- كما هو مقتضى الطبيعة البشرية- مع تمام ثقته وجزمه بوعد الله ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾.

٥- تثبيت الله عز وجل لموسى وطمأنته له بأن الغلبة له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

٦- أمر الله عز وجل لموسى بإلقاء عصاه لتلقف ما صنعوا من السحر، وابتلاع

كل ما صنعوه وأفكوه من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الشعراء: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٧].

٧- أن ما صنعه سحرة فرعون هو من كيد ومكر وتخييل السحرة وتمويههم مما لا حقيقة له ولا ثبات؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

٨- خيبة الساحر وخذلانه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

٩- سجود السحرة لله عز وجل لما ظهر وتبين لهم- وهم أرباب صناعة السحر- أن ما جاء به موسى من الآيات الظاهرةْ، والمعجزات الباهرةْ، ليس من قبيل السحر والتخييل، وإنما هي براهين ودلالات على ما جاء به من الحق المبين؛ ولهذا خروا لله ساجدين، وآمنوا برب هارون وموسى رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهارون وموسى عليهما السلام، ولأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

١١- إبطال ادعاء فرعون الربوبية والألوهية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: آمنتم لموسى وصدقتم له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا، وقال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، أي: صدق له.

أي: قال فرعون لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأسقط في يده مستغربًا ومنكرًا على السحرة ومهددًا لهم ومتوعدًا: كيف آمنتم لموسى وصدقتموه.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل»، أي: قبل إذني لكم، فاستغرب واستنكر منهم ذلك؛ لذلهم وانقيادهم له طوعًا أو كرهًا، أي: كيف آمنتم له وما أذنت لكم بذلك وما أمرتكم به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى موسى، فاعتبره فرعون كبير السحرة وأنه علمهم السحر، وأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

فيا سبحان الله! كان بالأمس يفتخر بسحرته ويعتز بهم وبسحرهم، ويقول لموسى

متحديًا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٧- ٥٨].

واليوم لما آمنوا تبرأ منهم ومن سحرهم، بل جعل إيمانهم سحرًا، واعتبر موسى كبير السحرة، بعد أن كان يحتقره وسحره كما يزعم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وهذه مكابرة، يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنها بهت وكذب، ولكنه لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأصبح صديق الأمس عدو اليوم؛ اضطرب وارتبك وفقد شعوره، فأخذ يهذي بما لا يدري، فاتهم السحرة بعد أن اتهم موسى بأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته، وأن موسى لم يكن ليغلب لولا مكر السحرة وتمالؤهم معه، وأخذ يتهددهم ويتوعدهم بقوله:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، أي: والله لأقطعن أيديكم وأرجلكم ﴿مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾، أي: بأن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، الجملة معطوفة على ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾، والصلب: ربط المصلوب قائمًا على خشبة بعد قتله، أو قبل قتله، وتركه حتى يموت، للخزي والتشهير به.

و«التقطيع»، و«التصليب» بالتشديد: تحتم القطع والصلب.

﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، «في» بمعنى: «على»، أي: على جذوع النخل؛ لأن المصلوب لا يصلب داخل الجذع، وإنما يصلب عليه.

وهذه الآية؛ كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾ [الآية ٤٩].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾، معطوف على ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾، أي: ولتعلمن أيها السحرة.

﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، أي: أهو أنا، أو رب هارون وموسى الذي آمنتم به؟ وهذا تهديد منه ووعيد لهم، أي: إنني أنا أشد وأعظم عذابًا وأبقى وأدوم، فخافوني.

وقيل: المعنى: ولتعلمن أينا يكون له العذاب الشديد الدائم الباقي.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال السحرة ردًّا على فرعون في استغرابه واستنكاره إيمانهم لموسى، وتوعده إياهم بالقطع والصلب والعذاب الشديد الدائم، في تحدٍّ صارخ له، واستهانة لما يصيبهم في ذات الله:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: لن نفضلك ونختارك ونقدمك على الذي جاءنا من الآيات البينات والهدى واليقين والحق المبين.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾، الواو: عاطفة، والاسم الموصول معطوف على «ما» الموصول السابق، أي: لن نؤثرك على الذي جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا، أي: الذي خلقنا وهو الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي: خالقهما.

والمعنى: سنؤثره ونفضل ونختار الذي جاءنا من البينات والحق، ونؤمن به ونتبعه، دون ما أكرهتنا عليه من السحر والكيد للحق واتباع الباطل.

وسنؤثر الذي فطرنا وخلقنا وهو الله عز وجل، ونؤمن به ربًّا وإلهًا، ونعبده وحده لا شريك له، دون ما تلزمنا به من الإيمان بك، واعتقاد ربوبيتك وإلهيتك.

ويحتمل أن تكون الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ للقسم، والموصول مقسم به، والتقدير: وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا من الحق.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، أي: فافعل ونفذ الذي أنت قاضيه؛ مما توعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، هذا جواب لقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ الآية.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، أي: إن ما توعدنا به غايته قضاء هذه الحياة الدنيا الزائلة، ونحن نطمع في الحياة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾، أي: صدقنا بربنا بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا له بجوارحنا.

﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يغفر لنا خطايانا وذنوبنا.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا على فعله من السحر وألزمتنا لنعارض به الحق؛ كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الآيات: ٥٠- ٥١].

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ هذا في مقابلة قول فرعون: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾، أي: والله خير لنا منك ومما وعدتنا، أي: وهو سبحانه ورضاه وثوابه أبقى لنا وأدوم؛ كما أن عذابه لمن عصاه أبقى وأدوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أول النهار سحرة، فصاروا آخره شهداء بررة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: ٧٤- ٧٦].

يحتمل أن يكون هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون، يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي. ويحتمل أن يكون هذا استئنافًا من كلام الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، هذه الآية كقوله في سورة الأعلى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾ [الأعلى: ١١- ١٣].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ﴾، أي: إنه من يأت ربه يوم القيامة ويلقاه ﴿مُجۡرِمٗا﴾، حال، أي: قد مات على الإجرام، أي: على الكفر والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾، جواب الشرط «من»، والفاء رابطة لجواب الشرط، واللام للاستحقاق، أي: فإن له نار جهنم، الشديد حرها وعذابها، البعيد قعرها، الشديدة ظلمتها، أي: أنه صائر إليها لا محالة.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾، حياة طيبة كريمة يهنأ ويلتذ بها، وإنما حياة عذاب أبدي سرمدي للقلب والروح والبدن؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

---

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون..**» الحديث(١).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾، أي: ومن يأت ربه يوم القيامة ويلقه حال كونه مؤمنًا بقلبه ولسانه، أي: قد مات على الإيمان.

﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: قد عمل الأعمال الصالحات بجوارحه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، وأشار بإشارة الجمع مراعاة لمعنى «من»، وأشار بإشارة البعيد تنويهًا برفعة شأن المؤمنين.

﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: المنازل العالية الرفيعة في الجنة.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم؛ كما يتراءون الكوكب الدري العابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(٣).

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، بدل من «الدرجات العلى»، أي: جنات إقامة أبدية.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إتيان الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣/ ١١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٠، وأحمد ٥/ ٣١٦.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة، ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء ٢٨٣٠.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا.

﴿وَذَٰلِكَ﴾، أي: الثواب العظيم من الدرجات العلى، وجنات عدن، والخلود فيها ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: ثواب الذي تطهر من الشرك والمعاصي، والأرجاس المعنوية، بالإيمان والعمل الصالح، وتطهر من النجاسات والأحداث الحسية؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار فرعون على السحرة إيمانهم برب هارون وموسى دون أن يأذن لهم؛ لأنه كان قد أذلهم واستعبدهم، فلا يصدرون عن أمر دونه قبل ظهور الحق لهم؛ لقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾.

٢- مكابرة فرعون، وزعمه أن موسى كبير سحرته الذي علمهم السحر؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾.

٣- تهديد فرعون للسحرة، وتوعده إياهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، وتعذيبهم العذاب الشديد؛ لقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

٤- شدة علو فرعون وجبروته وتسلطه واغتراره بقوته وسلطانه وجنوده، حتى وصل به الغرور إلى الاعتقاد أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله.

٥- أن ما يفعله الطغاة والمتسلطون على الناس لإخضاعهم لما يريدون بالتهديد والقوة؛ سياسة فرعونية.

٦- ثبات السحرة على الإيمان بربهم، وبما جاءهم من البينات، وكفرهم بفرعون وما يدعو إليه من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾.

٧- تضحية السحرة بأنفسهم وبالدنيا كلها في سبيل الإيمان بربهم، والتمسك بدينهم، وتحديهم بذلك فرعون؛ لقولهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

٨- حسن ظنهم بربهم، وقوة رجائهم به، بمغفرته خطاياهم وما أكرههم عليه فرعون من السحر؛ لقولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ

ٱلسِّحۡرِۗ﴾.

٩- أن الإيمان إذا وجد المرء حلاوته، وخالطت بشاشته قلبه؛ ثبت عليه بإذن الله وتوفيقه ثبات الجبال الراسيات، نسأل الله التوفيق؛ ولهذا قال ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»[(١)].

وفي حديث هرقل مع أبي سفيان، قال: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»[(٢)].

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾.

١١- أن ما صنعه السحرة من السحر بإكراه من فرعون لهم على ذلك؛ ليرد بذلك الحق، ولكن خاب مسعاه.

١٢- أن الله خير وأبقى، وما عنده من الثواب والأجر خير من الدنيا بما فيها لمن آمن به وأطاعه واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

١٣- الوعيد الشديد لمن لقي الله على الإجرام والكفر بنار جهنم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة طيبة كريمة هنيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾.

١٥- خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾.

١٦- الوعد لمن لقي ربه مؤمنًا قد عمل الصالحات بالدرجات العلا في جنات عدن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾.

١٧- إثبات البعث ولقاء الله تعالى- والحساب والجزاء على الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ٦٧٧٣، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

١٨- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.

١٩- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى- موافقًا لشرعه.

٢٠- أن الجنات منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض.

٢١- أن الجنات لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

٢٢- الترهيب والتحذير من الإجرام والكفر والترغيب والإغراء في التزكي والتطهر من الشرك والمعاصي والأرجاس المعنوية، ومن الأحداث والنجاسات الحسية.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، أي: أمرنا موسى حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير لـ«أوحينا»، والمعنى: أوحينا إلى موسى الإسراء بعبادي، أي: بني إسرائيل.

والإسراء: السير ليلًا، أي: أوحينا إلى موسى وأمرناه بأن يخرج ويسير ليلًا بعبادي بني إسرائيل، ليخلصهم من قبضة فرعون واستعباده إياهم.

وقد أخبره الله عز وجل أن فرعون سيتبعهم؛ كما قال تعالى في سورة الدخان: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، أي: فاضرب بعصاك لهم طريقًا في البحر يابسًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٤].

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾، قرأ حمزة بسكون الفاء دون ألف: «تَخَفْ»، وقرأ الباقون بالرفع مع الألف: ﴿تَخَٰفُ﴾.

﴿دَرَكًا﴾: إدراكًا، أي: لا تخاف أن يدركك وقومك فرعون وجنوده؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٠- ٦٢].

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾، أي: ولا تخشى غرقًا في البحر أنت ولا قومك.

ومن الذي لا يخاف ولا يخشى أمام هذا الخطب الجسيم، والأمر العظيم، إلا من رحم الله، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾، لما خرج موسى ببني إسرائيل، وسار بهم ليلًا، وأصبحوا ليس في مصر منهم داع ولا مجيب، غضب فرعون غضبًا شديدًا، وقرر وعزم على اللحاق بهم وإرجاعهم مكرهين، وأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون جنوده وجيشه للخروج في أثر بني إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الآيات: ٥٠- ٥٦].

فأتبعهم هو وجنوده وسلكوا وراءهم في البحر، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، أي: فغشي فرعون وجنوده بعد أن أنجى الله موسى وقومه، أي: غطاهم وأغرقهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، «ما» للتهويل، أي: من الأمر العظيم الذي غشيهم مما يصعب وصفه، ولا يستطاع دفعه ولا منعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣- ٥٤].

وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر أن يرتطم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: ٢٤]، فغرقوا عن آخرهم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾، أي: أوقعهم في الضلال، بما زين لهم من عبادته، وتكذيب موسى ورد دعوته، وبما ألزمهم من اعتقاد ربوبيته لهم وإلهيته.

﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، تأكيد لما قبله؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾ [النحل: ٢١]، أي: وما هداهم إلى خير البتة.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أنه أضلهم إضلالًا تامًّا عن الحق، أي: أضلهم غاية الإضلال، وما هداهم إلى خير أبدًا، وفي هذا إبطال لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ [غافر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ

وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «أَنْجَيْتُكُمْ»، و«وَعَدتُّكُمْ»، و«رَزَقْتُكُمْ» بالتاء مضمومة، على لفظ الواحد من غير ألف في الثلاث، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

أي: قد خلصناكم من عدوكم فرعون، وأهلكناه وجنوده بالغرق، وهذه من أعظم نعم الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال تعالى ممتنًّا عليهم بذلك: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منهم، فصوموه**»[(١)].

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾، أي: وواعدناكم مع موسى جانب جبل الطور الأيمن بعد هلاك فرعون؛ لإنزال الكتاب العظيم: «التوراة» على موسى، الذي فيه النعمة الدينية الكبرى عليكم.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، أي: ونزلنا عليكم في التيه «المن» وهو: طعام حلو يشبه العسل، و«السلوى» وهو: طائر كالسماني، رزقًا رغدًا هنيئًا لكم، بلا مشقة ولا تعب، رحمة من الله تعالى بكم، وإحسانًا إليكم؛ ولهذا امتن الله تعالى عليكم بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، الأمر: للإباحة والامتنان، وهو واجب في قدر ما يسد الرمق ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، «الطيبات»: الحلال وما يستلذ ويستطاب.

﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، «ما»: موصولة، أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم، أي: الذي أعطيناكم، أو مصدرية، أي: كلوا من طيبات رزقنا، أي: عطائنا إياكم، والمراد: كلوا واشكروا نعم الله تعالى عليكم الدينية والدنيوية.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤٧٣٧، ومسلم في الصيام، صوم عاشوراء ١١٣٠، وأبو داود في الصوم ٢٤٤٤.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾، أي: ولا تطغوا فيما رزقناكم، فتكفروا نعم الله عليكم بنسبتها إلى غيره، وبطرها، واستعمالها في معاصيه، وعدم شكرها، وتعالي بعضكم على بعض، وظلم بعضكم لبعض، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، قرأ الكسائي بضم الحاء: «فَيَحُلَّ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿فَيَحِلَّ﴾، أي: فينزل عليكم غضبي؛ بسبب طغيانكم وكفركم بنعمي.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾، قرأ الكسائي بضم اللام: «يَحْلُلْ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَحْلِلْ﴾، أي: ومن يحل وينزل عليه غضبي.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط لاقترانه بـ«قد»، أي: فقد ردي وشقي وخسر وهلك؛ لأن من حل عليه غضب الله، عذبه الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، لما نهى عن الطغيان وحذر منه وتوعد عليه، وعد بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؛ ترغيبًا في ذلك.

قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾، اللام: للتوكيد، و«غفار» على وزن «فعَّال»، أي: كثير المغفرة، يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة مهما اقترف من الشرك والكفر والمعاصي إذا تاب وأناب.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «**إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، فيقول: يا فلان، أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم. إلى قوله: فيقول: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(١).

﴿لِّمَن تَابَ﴾، أي: للذي تاب، أي: رجع وأناب إلى الله تعالى من الكفر والمعاصي، فأقلع عن ذلك وندم، وعزم على عدم العودة إليه، مخلصًا لله تعالى في توبته، في وقت تقبل فيه التوبة، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَءَامَنَ﴾، أي: وآمن وصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ

(١) سبق تخريجه.

صَٰلِحٗا﴾، أي: وعمل الأعمال الصالحات بجوارحه؛ من صلاة وصوم وحج وغير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أي: استمر على الهدى وثبت عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: ١٧].

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا. قال: «**قل: آمنت بالله، فاستقم**»، أو: «**ثم استقم**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- أوحى الله عز وجل لموسى بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم ليلًا؛ لتخليصهم من قبضة فرعون واستعباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾.

٢- إثبات عبودية بني إسرائيل لله عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾.

٣- أمره عز وجل لموسى بضرب البحر بعصاه؛ ليتخذ لبني إسرائيل فيه طريقًا يبسًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾.

٤- طمأنة الله عز وجل لموسى وتثبيته له أمام هذا الخطب العظيم بألا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى الغرق في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

٥- إنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وخروجهم جميعًا من البحر سالمين؛ لمفهوم قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم﴾.

٦- خروج فرعون وجنوده في أثر موسى وبني إسرائيل، واتباعهم إياهم في طريقهم على البحر، وارتطام البحر عليهم وإغراقهم جميعًا في أمر مهول؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

٧- إضلال فرعون لقومه غاية الإضلال، وصده إياهم عن الهدى غاية الصد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

٨- تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم الدينية والدنيوية؛ من إنجاء أسلافهم من عدوهم فرعون، ووعدهم جانب الطور الأيمن لإنزال الكتاب عليهم، وتنزيل المن والسلوى عليهم، رزقًا لهم دون مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾.

٩- أن النعمة على المتقدمين من بني إسرائيل نعمة على المتأخرين منهم؛ لأن الله امتن على بني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ بما أنعم به على أسلافهم الماضين.

وهكذا كل نعمة على السلف هي نعمة على الخلف.

١٠- الامتنان على بني إسرائيل بإباحته عز وجل لهم الأكل من طيبات ما رزقهم؛ ليشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

١١- إباحة الأكل من كل ما أحل الله وطاب أكله.

١٢- أن الأرزاق كلها من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

١٣- النهي والتحذير من الطغيان وكفر نعم الله تعالى الدينية والدنيوية، وعدم القيام بحقها وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

١٤- في النهي عن الطغيان وكفر النعم- بعد الامتنان بذكر النعم- إشارة إلى أن من أسباب الطغيان كثرة النعم؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦- ٧].

١٥- حلول غضب الله ونقمته وعذابه على من طغى وكفر نعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾.

١٦- إثبات صفة الغضب لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾.

١٧- أن من حل عليه غضب الله فقد ردي وشقي وهلك، ووقع في النقمة والعذاب، وخسر دينه ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

١٨- وعد الله تعالى بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

١٩- أن مغفرة الله تعالى ورحمته تسبق غضبه؛ لأن الله لما حذر من حلول غضبه أتبع ذلك بذكر سعة مغفرته.

٢٠- سعة مغفرة الله تعالى؛ فهو يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة، مهما كثرت ذنوبه وعظمت، إذا تاب إليه وأناب.

٢١- الترغيب بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان الباطن وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٢٣- لا يقبل العمل إلا إذا كان ﴿صَٰلِحًا﴾، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٢٤- وجوب الثبات على الإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك، وأن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿* وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ۝٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ۝٨٩﴾.

قوله: ﴿* وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾، الواو: استئنافية، و«ما»: استفهامية، والاستفهام هنا فيه معنى اللوم، ويقوي هذا قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾.

أي: ما الذي جعلك تتقدم عن قومك وتأتي قبلهم، وفي هذا إيماء إلى أن الأولى أنك صبرت وأتيت أنت وإياهم، ولم تتركهم وتفارقهم.

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، روى رويس بكسر الهمزة وإسكان الثاء: «عَلَى إِثْرِي»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾.

أي: هم هؤلاء خلفي قريبون، سيصلون في أثري، أي: أني لم أتقدمهم كثيرًا.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ترضى، أي: عجلت إليك يا ربي مسارعة في رضاك.

وذلك أنه عليه السلام لأجل المسارعة إلى ربه استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾، الفتنة: الابتلاء والامتحان، ويكون بالشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: فإنا قد امتحنا قومك يا موسى من بعدك، وابتليناهم بشر بلية، وهي عبادة العجل.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أي: أوقعهم في الضلال، فعبدوا العجل من دون الله، و«السامري»: نسبة إلى «السامرة» من بني إسرائيل من اليهود، يخالفونهم في بعض دينهم.

قيل: كان من أناس يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان من أهل «سامرا».

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾، أي: فلما أخبر الله تعالى موسى بما حصل لقومه من الفتنة وإضلال السامري لهم بعبادتهم العجل؛ رجع إليهم.

﴿غَضْبَٰنَ﴾ حال، أي: شديد الغضب، أي: في غاية الغيظ والحنق عليهم.

﴿أَسِفًاۚ﴾، حال ثانية، أي: حزينًا جزعًا مغمومًا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾، الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أنه عز وجل قد وعدكم وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليكم، التي فيها شرعكم وشرفكم، ووعدكم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فلم عبدتم غيره؟!

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾، الاستفهام: للإنكار. والعهد: المدة، أي: أفطالت عليكم مدة غيبتي وهي قصيرة؟!

أو: أفطال عليكم عهد النبوة فانمحت آثارها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل؟!

أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

أي: أنه ليس وقوعكم في ذلك بسبب طول غيبتي؛ فهي قصيرة، وليس ذلك بسبب طول عهد النبوة عليكم؛ فالنبوة بين أظهركم.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، «أم»: للإضراب الإبطالي، والاستفهام: إنكاري، أي: لم يطل عليكم العهد، بل ﴿أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردتم»، أي: أردتم حلول غضب من ربكم عليكم، أي: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾، أي: حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت هارون بكم، وأمرتكم بطاعته.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال بنو إسرائيل في جوابهم على إنكار موسى عليهم عبادة العجل:

﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بفتح الميم: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها: «بِمُلْكِنَا»وقرأ الباقون بكسرها: «بِمِلْكِنَا».

أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا وقدرتنا وتعمدنا.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح بفتح الحاء والميم مخففة: «حَمَلْنَا».

وقرأ الباقون بضم الحاء وكسر الميم المشددة: ﴿حُمِّلۡنَآ﴾.

أي: ولكن عذرنا في ذلك أنا حملنا أثقالًا من زينة القبط قوم فرعون، التي استعرناها منهم حين خروجنا من مصر، ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾، أي: ألقيناها تورعًا وتأثمًا، قيل: ألقوها في حفرة من نار.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أي: فكذلك مثل إلقائنا ألقى السامري، وهذا عذر أوهى من نسج العنكبوت، لا يبرر لهم عبادة العجل من دون الله.

قال السعدي[1]: «وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر، أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب؛ يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ- يعني الحسين- وهم يسألون عن دم البعوض!»[2].

﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾، أي: فصنع السامري لهم من تلك الزينة عجلًا مجسدًا صاغه من الذهب، فصار له خوار، أي: صوت، كخوار البقر، بسبب حفيف الريح، ودخولها من جهة وخروجها من جهة أخرى.

﴿فَقَالُواْ﴾، أي: فقال السامري والذين افتتنوا بعبادة العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، أي: هذا العجل هو معبودكم ومعبود موسى.

﴿فَنَسِيَ﴾، أي: فنسي موسى، أي: ضل الطريق، يطلب ربه، فضَلَّ ولم يعلم مكانه،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٣٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٥٩٩٤، والترمذي في المناقب ٣٧٧٠، وأحمد ٢/ ٩٣، ١١٤.

أو نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهكم وإلهه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع لهم، وتسفيه عقولهم وأحلامهم.

أي: أفلا يرون أن هذا العجل الذي عبدوه من دون الله لا يرجع إليهم قولًا؟! أي: أنه لا يتكلم، فلا يراجعهم ويراجعونه، ولا يجيبهم إذا سألوه، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: لا يملك أن يدفع عنهم ضرًّا، ولا يجلب لهم نفعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

قال ابن القيم: «فجَعلَ امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلًا على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يُكلِّم ويتكلم، ويملك لعابده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلهًا»[(١)].

الفوائد والأحكام:

١- استعجال موسى عليه السلام عن قومه، مسارعة إلى موعد ربه وطلبًا لرضاه، ولومه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾، أي: لماذا لم تصبر حتى تأتي أنت وهم؟ ويدل على أن في هذا لومًا له قوله تعالى له بعد ذلك: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾، أي: إن هذا حصل بسبب تركك لهم.

٢- إثبات تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام.

٣- أن الأنبياء عليهم السلام لا يقرون على أي مخالفة مهما كانت، بل ينبهون إليها، ويرجعون عنها.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٣.

٤- أن الإنسان طبع على العجلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

٥- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام لا يعلمون الغيب؛ لأن موسى لم يعلم بما جرى لقومه من بعده حتى أعلمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾.

٦- أن موسى عليه السلام إنما عجل إلى ربه؛ طلبًا لرضاه عز وجل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

٧- ذم العجلة؛ لأنها قد تكون سببًا لحصول ضرر، أو فوات نفع، بخلاف المبادرة، فإنها مندوبة أو واجبة.

٨- أن الأناة في الأمور محمودة، وسبب لإدراكها؛ ولهذا قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

وقد قيل:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ[1]

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيبًا، فموسى عليه السلام تقدم قومه مسارعة إلى رضا ربه، ولو صبر وأتى هو وإياهم لكان أولى.

١٠- إخبار الله عز وجل لموسى بما حصل من الفتنة والابتلاء لقومه من بعده بعبادتهم العجل، وإضلال السامري إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾.

١١- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾.

١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾.

١٣- رجوع موسى عليه السلام لما أعلمه الله بافتتان قومه بعبادة العجل وضلالهم إليهم، قد اشتد به الغضب، غضبًا لله تعالى، وأسفه وحزنه لما وقع منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾.

١٤- توبيخ موسى عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم ما وقع منهم؛ لقوله: ﴿أَلَمْ

---

(١) البيت للقطامي عمير بن شييم. انظر: «ديوانه» (ص٢٥).

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾.

١٥- أن الله عز وجل وعد بني إسرائيل وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليهم فيها شريعتهم، وشرف لهم، ووعدهم بالعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ كما من عليهم بإنجائهم من فرعون وإهلاكه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾.

١٦- أن العهد لم يطل ببني إسرائيل بعد ذهاب موسى لوعد ربه، فلم تكن غيبته عنهم طويلة، فيبرروا إخلاف موعده ونقض وصيته لهم بذلك، بل كانت غيبته مدة قصيرة، ومع ذلك خالفوا أمره؛ لقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

١٧- إذا كانت مدة غيبة موسى عنهم قصيرة، وليست مبررًا لمخالفة أمره، فلم يبق إلا الأمر الثاني، وهو أنهم أرادوا تعريض أنفسهم لحلول غضب الله عليهم، فأخلفوا موعده بلا عذر؛ لقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

ولهذا استحقوا ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

١٩- اعتذار بني إسرائيل من موسى بما لا يصح عذرًا ولا يقبل، وهو أن ذلك لم يكن باختيارهم وقدرتهم، بدعوى أنهم حملوا أوزارًا من زينة القبط، استعاروها منهم عند خروجهم من مصر، فتورعوا عنها فألقوها، فصنع السامري وصاغ منها صورة عجل مجسد له خوار، فقالوا هم والسامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسيه موسى أو ضل عنه، فعبدوه؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

فادعوا أن ما فعلوه ليس باختيارهم ولا قدرتهم، وهذا باطل، فمن الذي ألزمهم ذلك وأجبرهم عليه؟! وتأثموا وتورعوا عن أمر حقير، وهو ما حملوه من زينة القبط،

ووقعوا في أمر خطير، وهو الشرك الكبير.

٢٠- وجوب الحذر من دعاة الضلال والشرك والبدع، ولزوم هدي الرسل وطريقهم عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الإنكار على عبدة العجل وتقريعهم، وبيان سخافة عقولهم وسفه أحلامهم؛ حيث عبدوا جمادًا لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه، ولا يدفع عنهم ضرًّا ولا يجلب لهم نفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

٢٢- أنه لا يستحق الإلهية إلا من كان يكلم ويتكلم، ويملك لعابديه الضر والنفع؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ۝٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝٩٠ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾، أي: ولقد قال لبني إسرائيل هارون لما عبدوا العجل من قبل رجوع موسى إليهم:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: يا قوم إنما ابتليتم ﴿بِهِۦ ۖ﴾، أي: بعبادة العجل، أي: ما هو إلا فتنة لكم وليس ربًّا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي: وإن ربكم ورب جميع الخلائق الذي يستحق العبادة وحده دون سواه هو الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي.

﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، أي: اقتفوا أثري واسلكوا طريقي.

﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾، أي: امتثلوا أمري إذا أمرتكم، واجتنبوا نهيي إذا نهيتكم.

﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال عبدة العجل من بني إسرائيل مخالفين لأمر هارون، معاندين له: ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾، أي: لن نزال ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على عبادة العجل ﴿عَٰكِفِينَ﴾، مقيمين على عبادته، ملازمين لها ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾، أي: إلى غاية أن يعود إلينا موسى فنسمع كلامه فيه، وهذا يدل على توقيرهم لموسى وخشيتهم منه، واستضعافهم هارون، وهوانه عندهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟

يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾، الاستفهام: للإنكار والتوبيخ واللوم، أي: ما الذي منعك حين رأيت بني إسرائيل ضلوا بعبادتهم العجل.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾، أي: ألا تلحق بي فتخبرني، فأبادر بالرجوع إليهم؛ لإنكار ما وقعوا فيه؟!

﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾، إنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، أي: كيف ولم خالفت أمري في قولي لك: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال هارون لموسى مجيبًا على لومه له وإنكاره عليه، ومعتذرًا مما حصل: ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾؛ قال هذا ترقيقًا وتحننًا واستعطافًا له، وإلا فهما شقيقان.

﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾، وذلك أن موسى لما رأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه من شدة الغضب والعتب عليه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

قال ابن القيم: «وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال شاهدة حدث له غضب آخر؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة»(١).

﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾، أي: إني خفت أن أتبعك وألحق بك؛ لأخبرك بضلالهم.

﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ﴿خَشِيتُ﴾، أي: خشيت قولك: فرقت بين بني إسرائيل، أي: لم تركتهم وحدهم، وفرقت بينهم؟ لأن تركهم بلا راعٍ سبب لتفرقهم.

قال ابن القيم: «فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨.

موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، وكان له هائبًا مطيعًا»[١].

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أي: ولم تراع قولي لك حين استخلفتك عليهم: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى مستفهمًا من السامري، مؤنبًا له، بعد أن ندم على ما صنع بأخيه هارون وهو غير مستحق لذلك؛ لأنه لم يقصر، ولا ذنب له، وبعد أن دعا لنفسه وأخيه بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: ١٥١]، فقال:

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«ما»، استفهامية، أي: ما شأنك فيما فعلت؟ وما حملك على ما صنعت؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال السامري: ﴿بَصُرْتُ﴾، أي: أبصرت ورأيت ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «تَبْصُرُوا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَبْصُرُواْ﴾، و«ما» موصولة، أي: بالذي لم يبصروا به، أو نكرة موصوفة، أي: بشيء لم يبصروا به، أي: لم يروه. قيل: رأى جبريل عليه السلام لما جاء لهلاك فرعون وقومه.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾، أي: أخذت قبضة من التراب والقبضة: ملء الكف، أو بأطراف الأصابع.

﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، أي: من أثر حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام، أي: من تحت حافر فرسه.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: فألقيتها وطرحتها على حلي بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، أي: زينت وحسنت لي نفسي أن أقبض هذه القبضة فأنبذها، فكان ما كان و«التسويل»: تزيين ما ليس بزين.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾، أي: انصرف وابتعد؛ فإن عقوبتك في الحياة الدنيا: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، أي: أن تكون كالأجرب، منبوذًا، تقول لكل أحد: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، أي: لا أَمس ولا أُمس، أي: لا تماس الناس ولا يماسونك، ولا تقرب منهم ولا يقربونك، عقوبة لك؛ كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوم القيامة تجازى فيه بعملك.

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام: «لَنْ تُخْلِفَهُ»، أي: لن تخلفه أنت، أي: لن تغيب عنه ولا محيد لك، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، أي: أنه آتٍ لا محالة، ولا بد منه.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، أي: إلى معبودك، وهو العجل.

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: الذي ظللت عليه، أي: أقمت على عبادته ﴿عَاكِفًا﴾، أي: ملازمًا لعبادته.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الحاء وتخفيف الراء: «لَنَحْرِقَنَّهُ».

وقرأ الباقون بفتح الحاء وتشديد الراء: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾.

واللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، «النسف»: ذرء الأجزاء وتفريقها، ويطلق أيضًا على قلع الشيء من أصله وأساسه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥].

والمعنى: ثم بعد إحراقه وصيرورته رمادًا لنذرونه، أي: في البحر، والمراد به: البحر الأحمر «بحر القلزم».

﴿نَسْفًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: ذروًا شديدًا.

فحرقه عليه السلام، وذراه في البحر؛ ليبين لهم أنه ليس بإله، فلو كان إلهًا لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى في إتلافه.

وأتلفه بهذه الطريقة؛ لأن قلوب بني إسرائيل قد أشربت بحبه، فاختار إتلافه بهذه

الطريقة، بإحراقه ثم نسفه في اليم حتى لا تبقى منه بقية يرونها، ولتزول من قلوبهم محبته، بزواله واضمحلاله بشخصه، بطريقة لا يمكن إعادته؛ لأن في القلوب أقوى داعٍ إلى الباطل.

ولما بين لهم بطلان عبادة العجل، أخبرهم بالذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، «إنما»: أداة حصر، و«الحصر»: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، أي: ما إلهكم إلا الله الذي لا إله إلا هو، أي: ما معبودكم إلا الله الذي لا معبود بحق لجميع الخلائق إلا هو، ولا رب لهم سواه.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾، «علمًا»: منصوب على التمييز. و«العلم»: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا. وعلم الله عز وجل واسع للأشياء كلها، محيط بها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يعتري علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦].

الفوائد والأحكام:

١ - تنبيه هارون عليه السلام بني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم، أن ما وقعوا فيه من عبادة العجل فتنة وابتلاء، وأن ربهم الرحمن جل وعلا وحده، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وأمرهم باتباعه وطاعة أمره، وإعذاره منهم، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٣- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٤- تمرد بني إسرائيل على هارون، وعصيانهم له، ومخالفتهم أمره، وإصرارهم على ملازمة عبادة العجل إلى رجوع موسى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

٥- استضعاف بني إسرائيل هارون وهوانه عندهم؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ [الأعراف: ١٥٠].

٦- معاتبة موسى لهارون ولومه له: لماذا لم يتبعه فيخبره بما حصل من ضلال قومه، لعله يتدارك الأمر في أوله؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾.

٧- المبادرة إلى إنكار المنكر قبل أن يتسع ويستشري وتألفه القلوب؛ لأنه إذا كثر الإمساس قل الإحساس.

٨- ترقيق هارون في ندائه لموسى بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ مع أنه شقيقه، تحننًا إليه، واستعطافًا له.

٩- أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره من شدة الغضب لما رأى ما أصاب قومه؛ لقول هارون له: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١٠- أنه ليس الخبر كالمعاينة؛ فإن موسى لما أعلمه الله بافتتان قومه رجع إليهم غضبان أسفًا، ولما رجع ورأى الحال مشاهدةً ازداد غضبًا.

١١- لم يعتب الله تعالى على موسى في إلقائه الألواح وفيها كلامه عز وجل، ولا في أخذه برأس أخيه يجره إليه؛ لأن الذي حمله على ذلك هو الغضب لله تعالى.

١٢- اعتذار هارون لموسى في عدم اتباعه له لما رآهم ضلوا بخشيته منه أن يلومه على ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

١٣- حرص هارون واهتمامه وعنايته بتنفيذ وصية موسى له في قومه على التمام، وشدة هيبته له وطاعته.

١٤- أن عدم وجود راعٍ وخليفة على الناس سبب لتفرقهم وتشتتهم واختلافهم.

١٥- قبول موسى اعتذار أخيه هارون؛ ولهذا لم يرد عليه، بل سأل الله المغفرة له ولأخيه؛ كما في قوله في سورة الأعراف: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

١٦- تأنيب موسى للسامري بسؤاله: ما شأنه؟ وما الذي حمله على ما صنع؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾.

١٧- أن ما قام به السامري من إخراج العجل وصنعه لبني إسرائيل، وأمره إياهم بعبادته؛ مما سولته له نفسه الأمارة بالسوء؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾.

١٨- عقوبة السامري في الحياة بعقوبة شديدة، بسلبه الأنس الذي في طبيعة البشر فيما بينهم، وجعله منبوذًا يقول: ﴿لَا مِسَاسَ ۖ﴾، أي: لا أمس أحدًا، ولا يمسني أحد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ﴾، فصار بهذه العقوبة كأنه ليس بين الناس، وهو بين أظهرهم.

١٩- توعده بأن له موعدًا يوم القيامة لا بد منه، ولا محيد له عنه، يجازى فيه بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ﴾، وفي هذا إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٠- تبكيت السامري وإغاظته وتسفيه رأيه وفعله، بإحراق معبوده العجل، وأنه لا يملك الدفع عن نفسه ولا عن غيره؛ لقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

٢١- حكمة موسى عليه السلام في إحراق العجل ونسفه في البحر؛ ليزول بالكلية ويضمحل، بحيث لا تمكن إعادته، ولا يبقى في قلوب بني إسرائيل بقية من محبته التي أشربوها بقلوبهم.

٢٢- إثبات أن إله الخلق كلهم هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود لهم بحق سواه حصرًا وقصرًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾.

٢٣- سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء علمًا؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾.

٢٤- أن من أعظم وأهم صفات الإله الحق: الإحاطة بكل شيء علمًا، وليس ذلك لأحد سوى الله عز وجل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾، أي: مثل ما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون، ومع قومه بني إسرائيل، كذلك نقص عليك بعضًا من أنباء الذين سبقوا؛ لما فيها من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، والتسلية، والشهادة على صدقك وصدق ما جئت به.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾، الواو: عاطفة، أو حالية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والحال أنَّا أعطيناك من عندنا ذكرًا وهو القرآن العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وسمي القرآن: ذكرًا؛ لأن فيه ذكر الله تعالى وأسمائه وصفاته وآياته، ويذكِّر بالله تعالى، وما يجب له من التعظيم، وفيه ذكر الأحكام والحكم والمواعظ، والعبر والدروس، والحساب والجزاء، وذكر الأخبار السابقة واللاحقة، وهو سبب لذكر الله تعالى لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولأن الله تعالى يسر ذكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ولأن الله جعله شرفًا لمن اتبعه وعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولهذا أوجب الله تعالى على الأمة تلقيه بالقبول والتسليم، والانقياد والتعظيم، والاهتداء بنوره إلى الصراط المستقيم؛ لأن فيه نبأ ما كان قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما

بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: من أعرض عن القرآن، فكذب به بقلبه، وتولى عنه ببدنه؛ فلم يعمل به بجوارحه، فلم يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولم يعمل بأحكامه، وابتغى الهدى من غيره.

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، أي: إثمًا عظيمًا، بسبب إعراضه عن القرآن وكفره به وهجره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾، أي: فيما يحملون من وزر، وفي العذاب.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحمل الذي يحملونه يوم القيامة ويعذبون به، وهذا عام في كل من بلغه القرآن وأعرض عنه من جميع الناس من العرب والعجم وأهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، قرأ أبو عمرو بالنون وفتحها وضم الفاء: «نَنْفُخُ فِي الصُّورِ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها وفتح الفاء: ﴿يُنفَخُ﴾.

والصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام النفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الصور، فقال: «**قرن ينفخ فيه**»(١).

وقال ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟!**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٤٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٠، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) سبق تخريجه.

والمعنى: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور لقيام الناس من قبورهم.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: ونجمع المجرمين، أي: أهل الإجرام بالكفر والشرك والمعاصي.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿زُرْقًا﴾، أي: زرق الألوان والعيون من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، المخافتة: المسارّة والتناجي بخفية، أي: يتسارون بينهم ويتناجون خفية.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، بيان لما يتسارون به، أي: يقول بعضهم لبعض متقاصرين مدة الدنيا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، «إن»: نافية في الموضعين، أي: ما لبثتم إلا عشرًا، أي: إن أقمتم في الدنيا إلا عشرًا، أي: عشرة أيام؛ لقوله بعده: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحن أعلم بقولهم، أو بالذي يقولونه حال تناجيهم ومسارتهم بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أي: حين يقول أعدلهم وأحسنهم طريقة، وأعلمهم وأوفاهم عقلًا، وأقربهم تقديرًا.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: ما لبثتم إلا يومًا واحدًا، وإنما كان هذا هو أمثلهم طريقة؛ لتوسطه في قوله؛ لأن منهم من يقسم أنهم ما لبثوا غير ساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وإنما استقصروا مدة لبثهم في الحياة الدنيا لما رأوا من أهوال القيامة وشدائدها؛ لأنهم ضيعوا في الدنيا أعمارهم بالكفر والسهو واللهو واللعب والغفلات، وتزجية الأوقات، واتباع الشهوات، وأعرضوا عن القرآن وما يدعوهم إليه من الإيمان والأعمال الصالحات، والاستعداد لما بعد الممات، فانشغلوا بما يضرهم، وأعرضوا عما ينفعهم.

ولهذا ندموا حين لا ينفع الندم، واستقصروا مدة لبثهم في الدنيا، وهي كافية لإقامة الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا

لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٥].

الفوائد والأحكام:

١- أنه كما قص عز وجل على نبينا محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون ومع بني إسرائيل، قص عليه بعض أنباء ما قد سبق من الأمم الماضية، فالكل من مشكاة واحدة؛ لاستلهام ما في تلك القصص من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، وغير ذلك، والشهادة بصدقه ، وصدق ما جاء به، والتسلية له ﷺ وتثبيت قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

٢- تشريف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ، بخطابه عز وجل له، وبما خصه به من إتيانه من لدنه الذكر الحكيم والقرآن العظيم، والإشادة والتنويه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾.

٣- أن القرآن هو أعظم الذكر، فيه ذكر العبد لربه وأسمائه وصفاته وآياته، وفيه ذكر التشريع والأحكام والأخبار والمواعظ والعبر، والحساب والجزاء، إلى غير ذلك، وبسببه يذكر الله عباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٤- التهديد والوعيد لمن أعرض عن القرآن، لا يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولا يعمل بأحكامه؛ بالوزر الثقيل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾﴾ الآية.

٥- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٦- خلود المعرضين عن القرآن، المكذبين به فيما حملوه من الوزر، وفي العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾.

٧- ساء الوزر والحمل يوم القيامة حمل من أعرض عن القرآن وكذب به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾.

٨- إثبات النفخ في الصور لبعث الناس من قبورهم والمعاد وحياة الأجساد؛

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾.

٩- حشر المجرمين يوم القيامة زرق الألوان والعيون، من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم الأهوال والكروب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

١٠- تسار المجرمين بينهم في عرصات القيامة، وتناجيهم مستقلين مدة لبثهم في الحياة الدنيا بسبب تضييعهم أعمارهم فيها بالكفر واللهو والغفلات واتباع الشهوات، ولما يرونه في ذلك الموقف من الأهوال والشدائد والكربات؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾.

١١- علم الله تعالى بما يقولون وما يتسارون به، ومدى استقلالهم للبثهم في دار الدنيا، وأن أمثلهم طريقة يقول: إن لبثتم إلا يومًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝١٠٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي: ويسألك الناس يا محمد ﴿عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾، أي: عن هذه الجبال الراسيات الصلبة العظيمة، هل ستبقى بحالها يوم القيامة أو تزول؟

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، «نسفًا» مفعول مطلق منصوب، أي: نسفًا تامًّا، أي: يزيلها عن أماكنها إزالة تامة، ويقتلعها من أصولها اقتلاعًا تامًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: ١٠]، ويسيرها فتمر مر السحاب، وتكون سرابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير: ٣].

وتكون في الخفة كالصوف المنفوش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٩].

وتبس وتدك وترجف، وتكون كثيبًا مهيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: فيذر الأرض، أي: يتركها بعد نسف الجبال وإزالتها منها وتسويتها بها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: أرضًا مستوية ملساء، بساطًا واحدًا.

﴿لَّا تَرَىٰ﴾، أيها الناظر ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾، أي: ميلًا، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾، أي: ولا ارتفاعًا

ولا انخفاضًا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾:

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة حين يخرجون من قبورهم، ويرون هذه الأحوال والأهوال.

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾، أي: يستجيبون للداعي لهم إلى موقف الحشر والحساب، مهطعين إليه مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، أي: مقبلين من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعوجون عنه يمنة ولا يسرة، ولا يميلون، فدعوته تسمع الجميع، لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي، لا يعوج عنه[1].

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: سكنت ذلًّا وخضوعًا لله عز وجل.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، الهمس: الصوت الخفي، والمراد به في الآية: وطء الأقدام في السير والمشي إلى المحشر بسكون وخضوع، أو المخافتة سرًّا بتحريك الشفتين، ونحو ذلك.

قال ابن كثير[2]: «وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم القيامة، لا تنفع الشفاعة عند الله.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣١٠.

والشفاعة: هي التوسط بطلب الخير للغير، أو دفع الشر عنه ممن يقدر على ذلك.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، «إلا»: أداة حصر، أو للاستثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي أذن له الرحمن بالشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، أي: رضي قوله، أي: شفاعته، ورضي عن المشفوع له؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨].

وفي حديث أنس رضي الله عنه الطويل في الشفاعة: قوله ﷺ: «**ثم يقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع**»[(١)].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بالخلائق كلهم، يعلم الذي بين أيديهم، والذي خلفهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والضمير في «به» على هذا يرجع إلى الله عز وجل.

وقيل: الضمير يرجع إلى قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، فعلى القول الأول يرجع إلى العالِم، وعلى القول الثاني يرجع إلى المعلوم.

والقول الثاني يستلزم الأول، من غير عكس؛ لأنه إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم، فأن لا يحيطوا علمًا به سبحانه أولى[(٢)].

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، أي: خضعت وذلت الوجوه، واستكانت واستسلمت وانقادت.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩.

﴿لِلۡحَيِّ﴾، «الحي» من أسماء الله تعالى، أي: ذو الحياة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿ٱلۡقَيُّومِۖ﴾، من أسماء الله عز وجل، أي: القيم على جميع شؤون خلقه، كل شيء فقير إليه؛ لا قوام له إلا به، القائم بنفسه، الغني عن جميع خلقه.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، الواو: حالية، أي: وقد خسر الخسران المبين في ذلك اليوم كل من حمل ظلمًا، بالشرك بالله تعالى الذي هو أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وكل من حمل ظلمًا، بأن ظلم أحدًا من عباد الله؛ لأن ذلك اليوم يوم رد المظالم، والانتصار للمظلومين وإنصافهم، فالخيبة كل الخيبة، والخسران المبين لمن ظلم بالشرك بالله؛ لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

ولأن الله حرم على المشرك الجنة، وجعل مأواه النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

والخيبة لمن ظلم الناس بالاعتداء على حقوقهم؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرمًا، وبيَّن أن عاقبته وخيمة، وأنه ظلمات يوم القيامة، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»(١).

وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»(٢).

كما أوجب عز وجل على نفسه إنصاف المظلوم، والاقتصاص من الظالم، قال ﷺ: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى إنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(٣).

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾، لما توعد

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، تحريم الظلم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الظالمين بالخيبة والخسران، وعد المؤمنين بحسن المجازاة والعدل.

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، «من»: شرطية، أي: ومن يعمل بجوارحه، ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: بعض الأعمال الصالحات، التي يتوفر فيها الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن بقلبه، أي: مصدق بكل ما أوجب الله الإيمان به.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، قرأ ابن كثير: «يَخَفْ» بالجزم، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿يَخَافُ﴾.

أي: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ بزيادة في سيئاته، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بنقص من حسناته، بل تضاعف حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾.

لما ذكر تحقق البعث والمعاد، والمجازاة على الأعمال خيرها وشرها، وحذر من الظلم، ورغب في الإيمان والعمل الصالح، أتبع ذلك ببيان أنه أنزل القرآن عربيًّا فصيحًا، وصرف فيه من الوعيد؛ لأجل تقوى الله تعالى، والاستعداد ليوم المعاد، بالإيمان والذكر والأعمال الصالحة.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب العظيم.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: باللسان العربي الفصيح المبين؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وفي هذا امتنان على الأمة بإنزال هذا القرآن العظيم أفضل كتب الله وأعظمها، بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾، أي: فصلنا فيه أنواعًا من الوعيد، بذكر أسماء الله

الدالة على العدل والانتقام، وذكر المثلات التي أحل الله بالمكذبين من الأمم السابقة، وذكر آثار المعاصي والذنوب، وذكر أحوال القيامة وأهوالها، والنار وعذابها، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بترك الكفر والشرك والمعاصي، ويتقوا شر يوم القيامة.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ «أو» عاطفة، أي: ويحدث لهم ذكرًا، أي: تذكرة وموعظة بالإيمان والعمل الصالح والطاعات والقربات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ الفاء :عاطفة، أي: فتقدس وارتفع وتعاظم وتنزه عن كل نقص وعيب.

﴿الْمَلِكُ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما.

والمَلِك: من له المُلْك، وله حق التصرف والتدبير في ملكه، فهو عز وجل المالك لذلك كله، وهو المتصرف فيه والمدبر له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ملكٍ مالك، وليس كل مالكٍ ملك.

﴿الْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فوجوده حق، وملكه حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وقوله حق، وفعله حق، وشرعه حق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، قرأ يعقوب بالنون مفتوحة وكسر الضاد وفتح الياء نصبًا، ونصب «وحيه»: «نَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ»، وقرأ الباقون بالياء مضمومة وفتح الضاد ورفع وحيه: ﴿يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، أي: أنصت، فإذا فرغ جبريل من قراءته فاقرأه بعده، وكان ﷺ من حرصه على حفظ القرآن، ومخافة نسيانه؛ يستعجل ويبادر بالقراءة قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، فكلما قرأ جبريل قرأ معه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو أخف وأسهل، وهو أن يقرأ بعد فراغ جبريل من القراءة، وتكفل له عز وجل بجمعه وقراءته وبيانه.

كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يعالج من القرآن شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية[١].

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، أي: اطلب من ربك زيادة العلم، وقد أعطاه الله عز وجل من العلم ما لم يعط لأحد سواه، فلم يزل في زيادة من العلم حتى توفاه الله تعالى، وكان الوحي أكثر ما كان تتابعًا عليه ﷺ يوم توفي عليه الصلاة والسلام[٢].

وكان ﷺ يقول: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار**»[٣].

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة، فالجبال مع عظمتها ورسوها وصلابتها تنسف فيه نسفًا، فتكون قاعًا مستويًا، لا ميول فيها ولا ارتفاع ولا انخفاض؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- جواز السؤال في مثل هذا إذا كان لغرض صحيح، وليس تعنتًا ومكابرة وتعجيزًا.

٤- توجيه السؤال لمن هو أهل للإجابة؛ للرسول ﷺ في حياته، ولأهل العلم بعد وفاته؛ كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

٥- خروج الناس يوم القيامة من قبورهم، واتباعهم الداعي للحشر، واستجابتهم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥ ومسلم في الصلاة، الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠١٦، وأحمد ٣/ ٢٣٦، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٦٦٩، وابن ماجه دون قوله: «وأعوذ... إلخ، في المقدمة، الانتفاع بالعلم والعمل ٢٥١، من حديث أبي هريرة رضي لله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

له، وتوجههم صوبه لا يميلون عنه يمنة ولا يسرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

٦- خشوع الأصوات كلها للرحمن من شدة الهول والكرب، فلا تسمع إلا وطء الأقدام، أو صوتًا في غاية الخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٨- أن الشفاعة يوم القيامة لا تنفع إلا ممن أذن له الرحمن، ورضي قوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

٩- علم الله عز وجل المحيط بما بين أيدي الخلائق وما خلفهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

١٠- عدم إحاطة الخلائق بالله عز وجل علمًا، ولا بشيء من علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

١١- خضوع الوجوه في ذلك اليوم واستكانتها وتذللها واستسلامها وانقيادها لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وصفة الحياة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ﴾.

١٣- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْقَيُّومِ﴾، وأنه سبحانه القائم على جميع شؤون خلقه، القائم بذاته؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومِ﴾.

١٤- خيبة وخسارة من حمل ظلمًا بالشرك بالله، وظلم عباده، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

١٥- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا بإثابته بعمله، لا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا هضمًا بالنقص من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

١٦- تمام عدل الله تعالى في مجازاته عباده، فلا يظلمون لديه ولا يهضمون.

١٧- لا بد من كون الأعمال صالحة يتوفر فيها: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

١٨- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح الظاهرة وإيمان القلب.

١٩- أن النعمة كما تكون بجلب الخير، تكون بدفع الشر من الظلم والهضم ونحو ذلك.

٢٠- الامتنان بإنزال القرآن عربيًّا بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها، لهداية الخلق إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾.

٢١- تصريف الوعيد في القرآن وتنويعه؛ لحمل الناس على تقوى الله، بترك ما حرمه ونهى عنه من الكفر والشرك والمعاصي، وذكره بالإيمان والعمل الصالح والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

٢٢- تعاظمه عز وجل وتقدسه، وتنزهه عن النقائص والعيوب وتعاليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الملك»، وتفرده بملك السموات والأرض وما بينهما وتدبيره والتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾.

٢٤- أن الله عز وجل هو الملك الحق، وجوده حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وشرعه حق، وخبره حق وصدق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

٢٥- استعجاله ﷺ بقراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، حرصًا منه ﷺ على حفظه، ومخافة نسيانه، ونهي الله عز وجل له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

٢٦- إرشاده عز وجل له ﷺ لما هو الأسهل والأخف في حقه، وأرفع للمشقة عنه، وهو أن ينصت حتى يفرغ جبريل من قراءته، فإذا فرغ قرأ بعده؛ لمفهوم قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، أي: أنه إذا قُضي إليك وحيه وفرغ جبريل من قراءته فاقرأ بعده.

٢٧- الأدب في طلب العلم، وأنه ينبغي للمتعلم التأني وعدم العجلة، فلا يقاطع

المعلم أو المملي حتى يفرغ.

٢٨- أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعاء ربه بزيادة العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ولهذا لم يزل ﷺ في زيادة من طلب العلم حتى لحق بربه.

٢٩- فضل العلم؛ لأنه ينير للمسلم طريقه، ويهديه إلى ما فيه خيره وصلاحه وفلاحه في دينه ودنياه وأخراه، فرأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع، وعمل صالح؛ ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعائه بطلب زيادة العلم، وقال تعالى ممتنًّا عليه ﷺ وعلى الأمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٣٣]، [الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾، أي: وصيناه وعهدنا إليه، ونهيناه عن الأكل من الشجرة.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، أي: حفاظًا لما أمر به.

قال ابن القيم: «فتأمل أول نقص دخل على أبي البشر، وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ الآية.

والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر؛ كما فسر به ههنا؛ فهو أمر عدمي»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ الآيات.

ذكر الله عز وجل قصة خلقه آدم وأمره الملائكة بالسجود له إكرامًا واحترامًا، في عدد من السور، منها سورة البقرة[(٢)]، والأعراف[(٣)]، والحجر[(٤)]، والإسراء[(٥)]، والكهف[(٦)]، وص[(٧)]، وفي هذه السورة[(٨)]؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر، ومن

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩، ١٧٠.
(٢) [الآيات: ٣٠- ٣٨].
(٣) [الآيات: ١١- ٢٥].
(٤) [الآيات: ٢٨- ٤٠].
(٥) [الآيات: ٦١- ٦٥].
(٦) [الآية: ٥٠].
(٧) [الآيات: ٧١- ٨٥].
(٨) [الآيات: ١١٦- ١٢٣].

أهم ذلك: أن يعلم بنو آدم شدة عداوة إبليس لهم ولأبيهم؛ لامتناعه من السجود له، وأن عداوته لهم ولأبيهم قديمة، فيحذروا منه أشد الحذر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا له، وإظهارًا لفضله، وعبودية لله تعالى، وطاعة له.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾، أي: فسجدوا جميعًا إلا إبليس امتنع من السجود مخالفة لأمر الله عز وجل، وتكبرًا على آدم واحتقارًا له؛ كما قال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٣].

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾، يعني: حواء عليها السلام، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾، أي: فاحذر أن يسعى ويتسبب في إخراجكما من الجنة، دار النعيم المقيم.

﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾، أي: فتتعب في طلب رزقك والمكابدة في الدنيا، بعد أن كنت في الجنة في عيش رغيد هنيء، بلا كلفة ولا مشقة.

وشرَّك بينه وبين زوجه في الخروج، وخصه بالشقاء؛ لاشتغاله بالكسب والمعاش دون المرأة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨﴾، أي: إن لك ألا تجوع في الجنة ولا تعرى، أي: ولا تعرى من اللباس على بدنك، وقابل بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، كما أن الأكل كسوة البطن، واللباس كسوة الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة: «وَإِنَّكَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّكَ﴾، أي: لا يصيبك الظمأ، وهو العطش.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾، أي: لا يصيبك حر الشمس. وهنا قابل بين الظمأ، وهو: حر الباطن، والضحى، وهو: حر الظاهر.

وبانتفاء ذل الباطن والظاهر، وحر الباطن والظاهر؛ تنتفي جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: سوّل وزين له وغره؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾، أي: الشجرة التي من أكل منها خلد ودام مكثه وبقاؤه، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد**»(١).

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، أي: لا ينقضي ولا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، أي: فظهرت لهما عوراتهما، بسقوط ما عليهما من اللباس، بسبب الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأباح لهما الأكل من حيث شاءا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أخذا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترهما.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، بارتكابه ما نهاه الله عنه بالأكل من الشجرة.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: اصطفاه واختاره ووفقه إلى التوبة، فتاب إلى ربه وأناب؛ كما

(١) أخرجه أبو داود في صفة الجنة ونعيمها ٢٨٣٣، وأحمد ٢/ ٤٥٥، ٤٦٢.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، أي: فقبل توبته وتاب عليه وهداه، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**حاج موسى آدم، فقال له: أنت آدم الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟**» قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»[1].

الفوائد والأحكام:

١- عهد الله تعالى ووحيه إلى آدم، ونهيه له عن الأكل من الشجرة، ونسيانه عليه السلام، وضعف عزمه، وأكله منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

٢- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم وسجودهم جميعًا؛ احترامًا وتكريمًا له إلا إبليس أبى، استكبارًا وكفرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

٣- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام، وطاعتهم لله تعالى بفعل ما يأمرهم به.

٤- فضل آدم على الملائكة؛ لأن الله أمرهم بالسجود له، إكرامًا واحترامًا له، وإظهارًا لفضله.

٥- أن سجود الملائكة لآدم بأمر الله تعالى، إنما هو عبادة لله تعالى؛ لأن الله هو الذي أمرهم بذلك.

٦- فضل الملائكة ومبادرتهم بالسجود لآدم طاعة لله تعالى.

٧- إخبار الله عز وجل لآدم بعداوة إبليس له ولزوجه، وتحذيرهما من أن يسعى

---

(١) سبق تخريجه.

ويتسبب في إخراجهما من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

٨- أن عداوة إبليس لبني آدم قديمة قدم عداوته لأبيهم قبل ذلك.

٩- أن آدم وزوجه عليهما السلام كانا في الجنة يتمتعان بما فيها من النعيم والعيش الهنيء الرغيد، قبل أن يتسبب إبليس في إخراجهما منها إلى دار العناء والشقاء.

١٠- الإشارة إلى أن المطالب بالسعي وطلب الرزق هو الرجل، يسعى على نفسه وعلى أهله؛ لقوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، أي: فتشقى في طلب الرزق.

١١- تكفله عز وجل لآدم بالجنة بانتفاء جميع الآفات عنه ظاهرًا وباطنًا؛ فلا يناله جوع ولا عري ولا ظمأ ولا حر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

١٢- أن الجنة التي أسكنها آدم وزوجه هي جنة الخلد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، وهذا لا يكون في الدنيا.

١٣- وسوسة الشيطان وتزيينه وتسويله لآدم الأكل من الشجرة، وتغريره له ولزوجه بأنها شجرة الخلد والملك الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

١٤- انخداع آدم وزوجه بتسويل الشيطان، ووسوسته لهما، وأكلهما من الشجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾.

١٥- انكشاف عوراتهما، وظهورها لهما بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذهما بالإلصاق عليهما من ورق الجنة؛ لسترهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٦- معصية آدم لربه ومخالفته لنهيه، وغوايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

١٧- اجتباء الله تعالى لآدم، واصطفاؤه له، وتوفيقه للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لآدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾.

١٩- قبول الله تعالى توبة آدم وهدايته له، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية، فضلًا من الله تعالى وكرمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا﴾، أي: من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾، يعني: آدم وحواء وإبليس؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني: آدم وذريته وإبليس وذريته.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، الفاء عاطفة، و«إن» حرف شرط جازم، و«ما» زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم تلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»[(١)].

قال ابن القيم: «فنفى الضلال عنه الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح»[(٢)].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، أي: ومن أعرض عن ذكري الذي أنزلته وهو القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ١٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٠.

عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

والمعنى: ومن أعرض عن القرآن الكريم، أي: تركه، فلم يتدبره بقلبه، ولم يعمل به بجوارحه، بل نسيه، وخالف أمر الله واتبع هواه؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝﴾.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: عيشة ضيقة شديدة في الدنيا، فلا سعادة، ولا طمأنينة، ولا انشراح صدر، وهو وإن تنعم ظاهرًا، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن ما شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى في قلق وحيرة وشك وضيق وحرج.

وله عيشة ضنك ضيقة بعذاب القبر في البرزخ، وهذا أشد من ضنك الدنيا، حتى إنه ليضيق قبره حتى تختلف أضلاعه كما جاء في الحديث[(١)].

قال ابن القيم: «والصحيح أنها في الدنيا وفي البرزخ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته، فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر».

وقال أيضًا: «فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا»[(٢)].

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، «الحشر»: الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٥٣ - من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٢، ١٧٤.

موقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: ٥]، وقال ﷺ: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا**»(١).

ويطلق ويراد به: الحشر إلى دار المستقر، فحشر المتقين إلى الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ [مريم: ٨٥].

وحشر الكافرين إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم: ٨٦].

فالحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، وهم عند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويتكلمون ويجادلون، وعند الحشر الثاني لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧](٢).

ولهذا قال هنا: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، أي: أعمى البصر؛ لقوله بعده:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥﴾، أي: وقد كنت في الدنيا مبصرًا أرى الأشياء وأشاهدها.

ودلالة هذا على أن المراد بالعمى: عمى البصر واضحة جدًّا، بل إن السياق لا يدل إلا عليه، بخلاف ما قيل: إن المراد بذلك: عمى البصيرة؛ لأنه لم يكن بصيرًا في كفره، بل إنه قد تبين له أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فجازاه الله على إعراضه عن الذكر وعمى بصيرته عنه في الدنيا، بأن أعمى بصره يوم القيامة، وجازاه على تركه الذكر في الدنيا بتركه في العذاب يوم القيامة جزاء وفاقًا.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الحشر ٦٥٢٦، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٩- ١٨٠.

وقد استدل من قال: المراد بالعمى: عمى البصيرة لا عمى البصر؛ بالآيات التي أثبتت لهم الرؤية في الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦- ٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ [الطور: ١٣- ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣].

وقد استظهر ابن القيم بعدما ذكر القولين وأدلتهما: أن الصواب هو القول بأنه أعمى البصر، قال: «فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذٍ»[1].

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، أي: فأعرضت عنها وتركتها وأغفلتها.

﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: تترك ويتخلى عنك وتسلم للنار والعذاب، ونعاملك معاملة من نسيك؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فجمع الله لمن أعرض عن القرآن وخالف أمر الله واتبع هواه بين المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة أعمى البصر، وتركه ونسيانه في العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٦].

قال ابن كثير[2]: «فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه؛ فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعدًا عليه من جهة أخرى؛ فإنه قد وردت

السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك».

عن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة وهو أجذم**»(١).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾، بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، أي: ولم يصدق بآيات ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره، بل كفر وكذب بها وأعرض عنها.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، الواو استئنافية، واللام للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة بالنار، وما فيها من صنوف العذاب، أشد ألمًا وأعظم من عذاب الدنيا أضعافًا مضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [القلم: ٣٣].

ولهذا قال ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»(٢).

﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وأدوم؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة: ٣٧].

بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه مهما طال ينقطع.

الفوائد والأحكام:

١- إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

٢- الترغيب والإغراء باتباع هدى الله؛ لضمانه عز وجل لمن اتبع هداه بحفظه من الضلال، وإسعاده في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

٣- التحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى «القرآن الكريم» وتركه ونسيانه، والوعيد لمن فعل ذلك بالمعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٨٥، ٣٢٣، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٣، وأبو داود في الطلاق، باب في اللعان ١٢٠٢، والنسائي في الطلاق ٣٤٧٣، والترمذي في تفسير سورة النور ٣٢٢٨، وأحمد ١/ ٣٠٩، ٣١٠، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أعمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

٤- أن الهدى الحق هدى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

٥- أن سعادة الدنيا والآخرة باتباع هدى الله، لا طريق لها سوى ذلك.

٦- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ على ثبوت عذاب القبر.

٧- إثبات الحشر والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وأن من عميت بصيرته عن الحق في الدنيا أعمى الله بصره يوم القيامة، وأن من أتته آيات الله فنسيها وتركها، تركه الله في العذاب يوم القيامة ونسيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

٩- التحذير من الإسراف بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم، والكفر بآيات الله والإعراض عنها، والوعيد بالمجازاة على ذلك بمثل الجزاء السابق.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

١١- أن عذاب الآخرة أشد ألمًا من عذاب الدنيا، وأبقى زمنًا؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات تحذير وتهديد للمكذبين، وتسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، الاستفهام للإنكار، أي: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين ما جئتهم به يا محمد.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾، «كم» للتكثير، أي: أفلم يهد لهم كثرة الذين أهلكنا قبلهم ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾، أي: من الأمم لما كذبوا الرسل فبادوا عن آخرهم، ولم تبق منهم باقية.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، أي: يمشون ويسيرون في ديارهم الخالية، ومساكنهم وبيوتهم الخاوية التي خلفوهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، الإشارة تعود إلى إهلاك كثير من الأمم الماضية المكذبة للرسل ﴿لَآيَاتٍ﴾، اللام للتوكيد، أي: لعلامات ودلالات على صحة ما جاءت به الرسل.

﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة، والألباب المستقيمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات، وتهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، دون من سواهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، الواو استئنافية، و«لولا» حرف امتناع لوجود فيه معنى الشرط، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد، وهي أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾، اللام رابطة لجواب «لولا»، أي: لكان العذاب والهلاك عاجلًا لازمًا.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، «أجل» معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أي: ولولا أجل مسمى، أي: وقت معين محدد لهلاك هؤلاء المكذبين، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

والمعنى: ولولا كلمة سبقت من ربك أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ولولا أجل مسمى ووقت معين معلوم محدد ضربه الله لإهلاكهم؛ لكان الهلاك والعذاب لهم عاجلًا لازمًا.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فاصبر على قولهم، أو على الذي يقولونه، من تكذيبهم لك، ورميهم لك بالسحر والجنون والكهانة والشعر ونحو ذلك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: وسبح ربك متلبسًا بحمده، أي: قارنًا بين تسبيحه وتحميده.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾، يعني: صلاة الفجر.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، يعني: صلاة العصر.

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى

القمر ليلة البدر، فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته. قال: فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ هذه الآية**»(١).

وعن عمارة بن رؤيبة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الفجر والعصر**»(٢).

﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أي: ومن ساعات الليل وأوقاته فسبح وصل وتهجد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وحمله بعضهم على صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، في مقابلة ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾، أي: وسبح وصل أطراف النهار.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، قرأ الكسائي وأبو بكر بضم التاء: «تُرْضَى»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَرْضَىٰ﴾، أي: لأجل أن ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، والجزاء الأوفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل صلاة العصر ٥٥٤، ومسلم في المساجد، فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤١٧، وأحمد ٤/ ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار ٦٥٤٩، ومسلم في الجنة، إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا ٢٨٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾:

بعد أن أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه، والاستعانة بالتسبيح والتحميد والصلاة فرضًا ونفلًا، تسلية له وتثبيتًا لقلبه، نهاه عن الالتفات إلى ما هم فيه من زهرة الحياة الدنيا معجبًا بذلك فهو فتنة لهم، وما عند الله من الرزق خير وأبقى.

قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، أي: لا تنظر ولا تلتفت معجبًا.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾، أي: إلى الذي متعنا به أصنافًا من المشركين المعرضين عن ذكر الله، من الأموال والأولاد والمآكل والمشارب والمساكن والمراكب ونحو ذلك.

أي: لا تنظر إلى ذلك نظرة إعجاب واستحسان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، ولهذا قال:

﴿زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، قرأ يعقوب بضم الهاء: «زَهُرَةَ»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿زَهْرَةَ﴾، أي: زهرة الحياة الدنيا وزينتها الحقيرة الزائلة.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن نبتليهم ونختبرهم في الذي متعناهم به، ونمتحنهم، ونستدرجهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧- ٨].

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وعطاء ربك خير خيرية مطلقة من جميع الوجوه.

﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وأدوم، أي: خير مما متع به هؤلاء وأبقى، وخير وأبقى من الدنيا كلها وما فيها؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧- ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ

يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٤- ٨].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، وهو مضطجع على حصير، قال: فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي. قال: «**ما يبكيك يا بن الخطاب؟**» قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك، لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟! فقال: «**يا ابن الخطاب: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟**».

وفي رواية: «**فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»(١).

فما أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ ولعباده الصالحين من الرزق والعطاء الديني والدنيوي، وما أعد لهم من ذلك، ومن العطاء الأخروي خير وأبقى؛ لأنه لا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: بإقام الصلاة فرضها ونفلها؛ لأنها قوام الدين، وعمود الإسلام، وسبب العون والتوفيق والحفظ من الشرور، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وخص الأهل هنا؛ لأن المسؤولية عنهم أعظم، وهم أولى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم- الغرفة العلية المشرفة ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم، ومسلم في الطلاق- الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١٤٧٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣١٨.

وفي الحديث: «**رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله**»[١] الحديث.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قام من الليل أقام أهله، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٢].

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، الاصطبار: شدة الصبر، أي: واصطبر أنت على الصلاة بإقامتها بأركانها وواجباتها وخشوعها ونحو ذلك؛ لأن ذلك شاق على النفس؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأمر أهله بالصلاة، وأن يصطبر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، في إشارة واضحة ودلالة بينة على أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه.

قوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أي: أمرناك بأمر أهلك بالصلاة والصبر عليها ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾، بل لنرزقك؛ لأن الصلاة سبب الرزق؛ ولهذا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أي: عليك إقام الصلاة وحفظها وعلينا رزقك، فإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته ورحاه التي يدور عليها، وهي أعظم الأسباب وأوسع الأبواب للعون والتوفيق لمصالح الدين والدنيا والآخرة؛ ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، فمن صدق الله ودخل عليه من باب الصلاة فليبشر بالخير.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: والعاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للتقوى وأهلها، ففي

---

(١) أخرجه أبو داود في قيام الليل(١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل (١٦١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٢١٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٢١.

الدنيا لهم التوفيق والسعادة بالإيمان، وفي الآخرة لهم الجنة دار السلام.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن نافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا، ولم أسد فقرك**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا هم المعاد، كفاه هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي وادٍ هلك**»(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»(٤).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم الاتعاظ بإهلاك كثير من الأمم المكذبة قبلهم ممن يرون آثارهم، ويسمعون أخبارهم، والوعيد والتهديد لهم أن يحل بهم ما حل بأولئك القرون قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾.

٢- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما حل بمن خالفوا أمر الله، والسعيد من وعظ بغيره.

٣- أن فيما أحله الله بالمكذبين من الأمم الماضية من العقوبات والهلاك؛ علاماتٍ

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا، رؤيا النبي ﷺ ٢٢٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، وابن ماجه في الزهد- الهم بالدنيا ٤١٠٧- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٠٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٦٠٥.

ودلالاتٍ على صحة ما جاءت به الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

٤ - أنه لا ينتفع بالآيات ويستفيد منها إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى التأمل بالآيات والانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

٥ - استحقاق المشركين المكذبين للنبي ﷺ معاجلتهم بالهلاك، وأنه لولا كلمة سبقت منه عز وجل أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار والإعذار منه، وأنه عز وجل جعل لإهلاكهم أجلًا مسمًّى ووقتًا معلومًا محددًا، ولولا هذا وذاك لكان العذاب عاجلًا لازمًا لهم. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد وتحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

٦ - كمال عدل الله عز وجل، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٧- إثبات القدر، وأن الله قدر الأقدار والآجال، فكل شيء خلقه بقدر، وكل شيء عنده بمقدار وأجل مسمًّى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

٨- أمره عز وجل للنبي ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون من التكذيب له ﷺ وغير ذلك؛ تثبيتًا لقلبه، وتسلية له؛ لأن الصبر أعظم أسباب النصر والعون من الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٩- إرشاده إلى الاشتغال بما يعينه على ذلك ويسليه، وهو التسبيح بحمد ربه، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن ساعات الليل وأطراف النهار؛ ليرضى ويطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

١١- فضل الصبر والترغيب فيه؛ لأنه أكبر عون للعبد على تحقيق أمور دينه

ودنياه.

١٢- أن وقت صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، ووقت صلاة العصر قبل غروبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

١٣- فضل التسبيح بحمد الله، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن ذلك سبب لحصول الرضا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

١٤- نهي الله عز وجل له ﷺ أن ينظر نظرة إعجاب، إلى ما مُتع به المشركون المعرضون عن ذكر الله من متاع الحياة الدنيا وزهرتها وزينتها الفانية؛ لأن ذلك ما هو إلا فتنة لهم واستدراج؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

١٥- ينبغي عدم الاغترار بمتاع الدنيا الزائل؛ لأن ذلك قد يكون فتنة وابتلاءً واستدراجًا.

١٦- ليس في نهيه عز وجل له ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ ما يدل على حصول ذلك منه، وحاشاه صلى الله عله وسلم من ذلك، وهو الذي عرضت عليه الدنيا فرفضها، وقال ﷺ: «**ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

١٧- أن رزق الله تعالى وعطاءه لنبيه ﷺ خير مطلقًا، وأدوم وأبقى، وقد أعطاه الله من خيري الدنيا والآخرة ما لم يعطه لأحد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

١٨- إرشاده ﷺ لأمر أهله بالصلاة، والاصطبار عليها؛ لعظم مكانتها في الإسلام، وما رتب على حفظها وإقامتها من صلاح أمور الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

١٩- الأقربون أولى بالمعروف؛ بالأمر والنهي، والتوجيه والدعوة إلى الخير، وغير ذلك.

٢٠- تمام غنى الله تعالى عن خلقه، وحاجة الخلائق كلهم إلى رزقه وتكفله عز وجل بأرزاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

٢١- أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر أهله بها ويصطبر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ في دلالة واضحة وإشارة بينة إلى هذا المعنى.

وكم من إنسان انغلقت أبواب الرزق دونه، وتعسرت عليه أسبابه بسبب التفريط في الصلاة أو التهاون فيها، وعدم حفظها وإقامتها كما شرع الله، والمصيبة أنه لا يدري ما سر تعاسته، وما سبب تعسر أموره وسوء أحواله.

وكم من أناس يسر الله رزقهم، وشرح صدورهم بسبب العناية والاهتمام بالصلاة، وحفظ حدودها.

٢٢- أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للتقوى ولعباد الله المتقين، فلهم في الدنيا التوفيق والسعادة بالإيمان، ولهم في الآخرة سكنى الجنان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟﴾، أي: وقال المشركون المكذبون للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾، أي: هلا يأتينا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، تدل على صدقه في أنه رسول الله، يريدون: من الآيات التي يقترحونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٢].

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب وابن جماز وحفص بالتاء: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾، وقرأ الباقون بالياء: «أو لم يأتهم».

الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أو لم تأتهم بينة الذي في الصحف الأولى: التوراة والإنجيل والكتب السابقة، وهو مصداق ما أخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمعنى: أنه قد جاءهم القرآن العظيم الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى، وأنباء الأمم الذين أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها، وهو الآية الكبرى، والمعجزة الخالدة العظمى، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠- ٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**ما من نبي من الأنبياء قبلي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٤، ومسلم في الإيمان ١٥٢.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين بعذاب من قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل إليهم هذا القرآن العظيم.

﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لكانوا قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولًا قبل أن تهلكنا؟

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، أي: فنؤمن ونتبع آياتك، ونعمل بها.

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾، أي: من قبل أن نذل ونهان بالعذاب، ﴿وَنَخْزَىٰ﴾، أي: نفتضح بحشرنا مع المكذبين والمجرمين.

وهم في هذا كذبة مبطلون؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦- ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩- ١١٠].

﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذبين، ولكل من كذبك وخالفك: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾، أي: كل منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾، أي: منتظر، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾، أي: فانتظروا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾، أي: مَن أصحاب الطريق المستقيم أأنا أو أنتم؟ و«من» استفهامية في الموضعين والسين في: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ للاستقبال والتحقيق.

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي: ومن اهتدى إلى الحق وسلك سبيل الرشد، أي: أأنا أو أنتم؟ أي: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ممن ضل وصار من أصحاب الطريق العوج والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ

ﵟٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًاﵞ [الفرقان: ٤٢]، وقال تعالى: ﵟسَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ﵞ [القمر: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- مطالبة المشركين أن يأتيهم الرسول بآية من ربه مما يقترحونه من الآيات؛ مكابرة وعنادًا، وإمعانًا منهم في تكذيب القرآن، أعظم الآيات، وأكبر المعجزات؛ لقوله تعالى: ﵟوَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓﵞ.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﵟمِّن رَّبِّهِۦٓﵞ، وفي تعبير المشركين بهذا دون أن يقولوا: «من ربنا» دلالة على جفائهم.

٣- الإنكار على المشركين في نفيهم وزعمهم أنه لم يأتهم بآية من ربه، وإثبات وتقرير أنه جاءهم بأعظم الآيات: القرآن الكريم، الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى والكتب السابقة وتصديقها، وأنباء الأمم الذين هلكوا لما اقترحوا الآيات وكفروا بها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﵟأَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰﵞ.

٤- في بيان القرآن الكريم ما في الصحف الأولى والكتب السماوية السابقة، وتصديقه لها، وكونه مصداق ما أخبرت به؛ دلالة واضحة تامة على صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن من عند الله عز وجل.

٥- أن الله لو أهلك المشركين المكذبين بعذاب قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم، وإنزال القرآن العظيم عليهم؛ لكانوا احتجوا قائلين: هلا أرسلت إلينا رسولًا قبل ذلك؟ لقوله تعالى: ﵟوَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ﵞ.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﵟرَبَّنَاﵞ.

٧- أن الله أراد بإرسال الرسول وإنزال القرآن إقامة الحجة، والإنذار والإعذار؛ لقوله تعالى: ﵟوَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَﵞ الآية.

٨- تمام عدله عز وجل؛ لأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

٩- الإشارة إلى استحقاق المكذبين للهلاك بعد مجيء الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، بسبب تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية.

أي: فإهلاكهم إنما كان بعد إتيان الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، وتكذيبهم، فليس لهم حجة أن يقولوا: أهلكنا قبل ذلك. وفي هذا تكذيب لقولهم: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾.

١٠- أن العذاب إذلال وإهانة للمكذبين، وخزي وفضيحة لهم؛ لقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

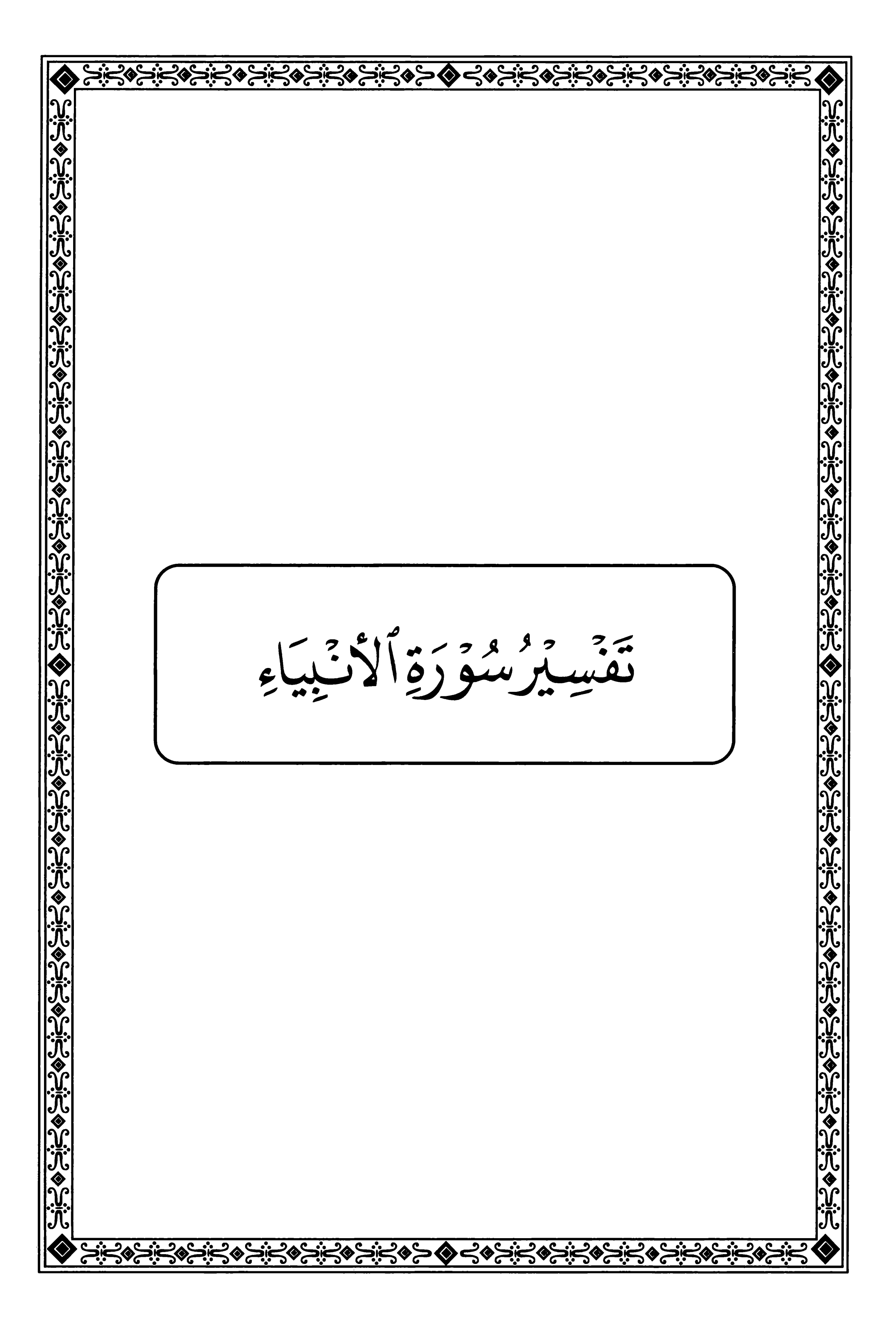
١١- تربص جميع الخلق وانتظارهم موافاة الحساب، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾.

١٢- تهديد المكذبين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وأمرهم بالتربص والانتظار؛ لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ممن هم خلاف ذلك، وهم أهل طريق العوج والضلال.

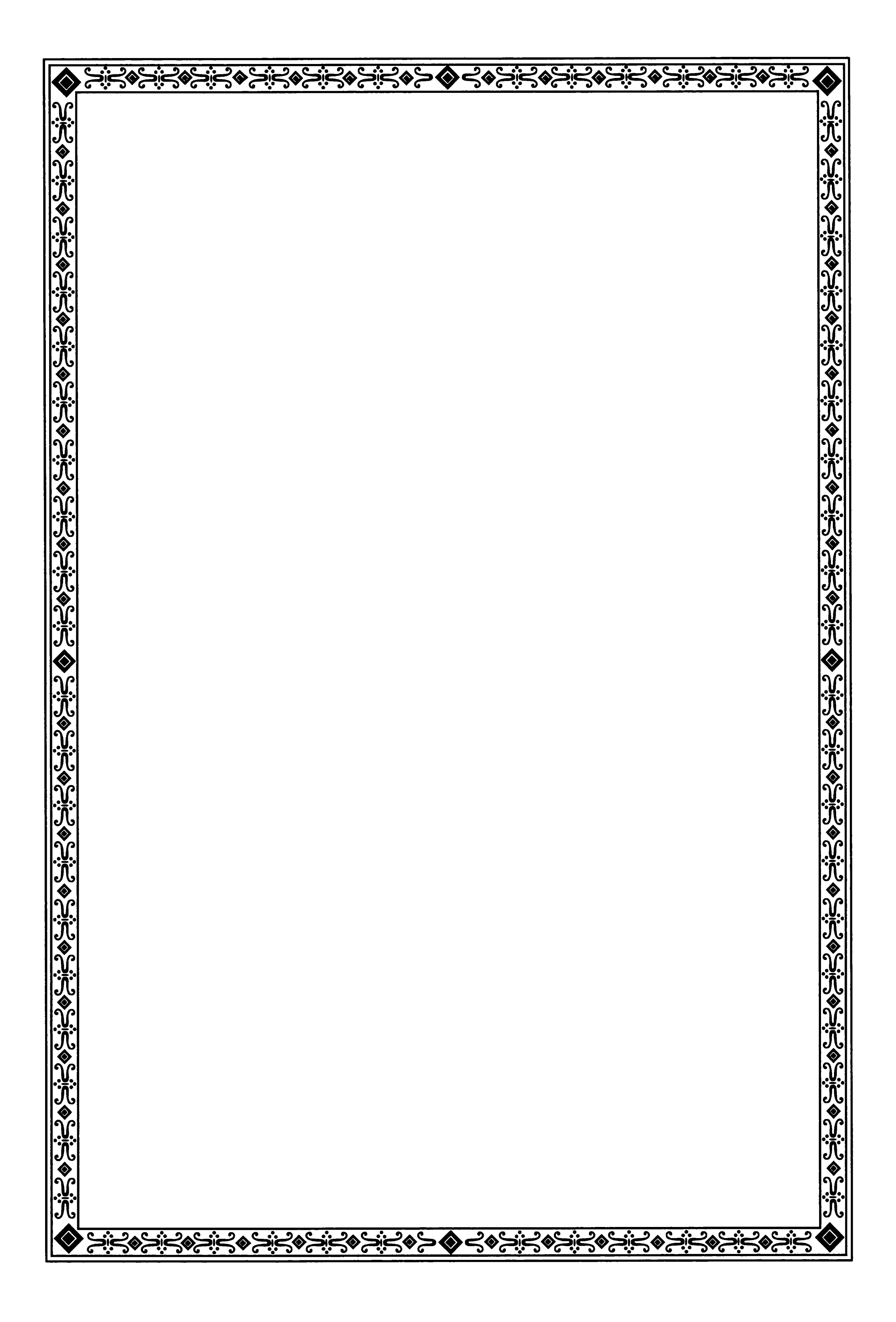
١٣- تنازله مع المكذبين له ﷺ بالخطاب؛ لقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، أي: أأنا أو أنتم؟ مع يقينه أنه هو وأتباعه أصحاب الصراط السوي والهدى.

١٤- تحقير طريق العوج والضلال؛ ولهذا آثر عدم ذكره.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلأَنْبِيَاءِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأنبياء»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها ستة عشر نبيًّا، وشيئًا من قصص بعضهم وأخبارهم، ولم يأت في سورة من سور القرآن ذكر هذا العدد عدا سورة الأنعام، فقد ذكر فيها سردًا أسماء ثمانية عشر نبيًّا في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام:٨٣- ٨٦].

فذُكرت أسماؤهم في هذه الآيات سردًا فقط، أما في سورة الأنبياء فجاء ذكرهم مع شيء من التفصيل في قصص بعضهم وأخبارهم، فكان تناولها للأنبياء أظهر وأشهر؛ لهذا- والله أعلم- خصت بهذا الاسم: «سورة الأنبياء»، كما سميت «سورة الأنعام» بهذا الاسم؛ لما اختصت به من ذكر أحكام الأنعام.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأُوَل، وهن من تِلادي»[1].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت هذه السورة بما يهز القلوب ويحملها على الاستعداد ليوم القيامة: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

٢- ذكر بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول ﷺ، وحول القرآن والرد عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

٣- ذكر صدق وعده عزوجل رسله بإنجائهم وأهلاك المسرفين، والامتنان على

---

(١) سبق تخريجه.

العباد بإنزال القرآن العظيم الذي فيه ذكرهم، وتهديد المشركين والمكذبين بما حل بالظالمين قبلهم من العقوبات، وبيان سوء حالهم عند حلول العذاب بهم ودعائهم بالويل وندمهم على ظلمهم حين لا ينفعهم الندم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾.

٤- ذكر الحكمة من خلق السماء والأرض، وأنه عزوجل ما خلقها لعبًا ولا لهوًا، وإنما خلقها لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتوعد من ظن أن الله خلقها لعبًا ولهوًا، وبيان سعة ملكه وعبادة الملائكة له؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾.

٥- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دونه آلهة من الأرض لا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وبيان أنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، وتنزيهه عزوجل نفسه عن شركهم، وإثبات تفرده بالتدبير دونهم، وأنه لا برهان لهم على ما اتخذوه من دونه من الآلهة، وقد دل ما معه ﷺ من القرآن والذكر، وما أنزل على من قبله من الرسل على بطلان الشرك، وأجمعت الرسل على الدعوة إلى وحدانية الله؛ قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾.

٦- الإنكار عليهم في نسبتهم الولد لله، واعتبارهم الملائكة بنات الله، وتنزيه نفسه عن ذلك، وثناؤه على الملائكة لعبادتهم وطاعتهم له وامتثالهم قوله وعملهم بأمره، وذكر إحاطة علمه بهم، وعدم شفاعتهم إلا برضاه، وإشفاقهم من خشيته، والوعيد لمن يدعي منهم الألوهية من دون الله بجهنم بسبب ظلمه وحاشاهم من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾.

٧- الإنكار على المشركين في عدم النظر والتأمل في آيات الله الكونية، وأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله، وجعل من الماء كل شيء حي مما يوجب الإيمان به، وجعل في الأرض رواسي أن تميد بهم، وفجاجا وسبلاً لعلهم يهتدون،

وجعل السماء سقفا محفوظًا، وهم عن آياتها معرضون، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٨- حكمه عزوجل على جميع البشر بالفناء والموت، فلا هو ﷺ مخلد، ولا أعداؤه مخلدون، ولا غيرهم من البشر، وابتلاء العباد بالخير والشر فتنة، ومردهم إلى اليه عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٩- استهزاء المشركين به واحتقارهم له؛ انتصارًا لآلهتهم، وكفرهم بالقرآن وتقرير أن من طبيعة الإنسان العجلة، وأنه عزوجل سيريهم آياته، وتحذيرهم من الاستعجال، وسؤالهم ما وعدوا به من العذاب؛ استعجالًا منهم، وتكذيبًا للرسل،وبيان سوء حالهم حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون، وإتيان الساعة لهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

١٠- تسليته ﷺ بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، وإحاطة إستهزائهم وسخريتهم بهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١١- تذكير هؤلاء المكذبين بكلاءة الله وحفظه لهم منه عزوجل بالليل والنهار، وهم عن ذكر ربهم معرضون، وتحقير آلهتهم وأنهم لا يستطيعون دفع عذاب الله عنهم ولا نصر أنفسهم ولا ناصر لهم من الله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

١٢- اغترارهم وآباؤهم بما متعهم الله به من النعم حتى طال عليهم العمر؛ قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

١٣- بيان أن مهمته ﷺ بالنسبة لهم هي إنذارهم بما أوحاه الله تعالى إليه، وليس عليه هدايتهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا

﴿يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

١٤- دعاؤهم بالويل وتحسرهم عندما تصيبهم نفحة من عذاب الله بسبب ظلمهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٥- بيان كمال عدله عزوجل في حساب الخلائق يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

١٦- التذكير بإيتائه عزوجل موسى وهارون الفرقان فيه الضياء والذكرى للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون.

١٧- التنويه بالقرآن، وأنه ذكر مبارك أنزله الله عزوجل، والإنكار على من أنكره؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٨- التذكير بإبراهيم وما أتاه الله من الرشد، وإنكاره على أبيه وقومه عكوفهم على عبادة الأصنام، وما جرى بينه وبينهم من المجادلة، وبيانه أن ربهم رب السموات والأرض الذي يجب أن يعبدون وحده، وتحطيمه أصنامهم. ورميهم إياه في النار وجعله عزوجل النار عليه بردًا وسلامًا، ورد كيدهم في نحورهم، وجعلهم الأخسرين، وإنجائه إبراهيم ولوطا إلى الأرض المباركة، وهبة الله تعالى له إسحاق ويعقوب نافلة وجعلهم جميعًا من الصالحين، وأئمة يهدون بأمر الله، ووحيه إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله تعالى.

١٩- التذكير بمنته على لوط عليه السلام، بإيتائه حكمًا وعلمًا بالنبوة، وإنجائه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وقوم السوء الفاسقين، وإدخاله في رحمته أنه من الصالحين.

٢٠- التذكير بمنته على نوح عليه السلام من قبل، والاستجابة له، وإنجائه وأهله من الكرب العظيم، ونصرته على القوم الذين كذبوا بآيات الله قوم السوء وإغراقهم أجمعين.

٢١- ذكر حكومة داود وسليمان عليهما السلام في الحرث الذي رعته غنم القوم، وشهادته عزوجل لحكمهما، وتفهيمها لسليمان، وإيتاء كل منهما حكمًا وعلمًا، وتسخير

الجبال مع داود يسبحن والطير، وتعليمه صنعة لبوس لهم؛ لتحصنهم من بأسهم؛ ليشكروه وتسخير الريح لسليمان تجري بأمره، وإحاطة علمه عزوجل بكل شيء، وتسخير الشياطين يغوصون ويعملون له، وحفظه تعالى لهم.

٢٢- ذكر ابتلاء أيوب عليه السلام بالضر، وندائه ربه وشكواه إليه واستجابته تعالى له، وكشف ضره؛ قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٣- ذكره عزوجل إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام كل من الصابرين، وإدخالهم في رحمته عزوجل إنهم من الصابرين.

٢٤- ذكره عزوجل ذا النون عليه السلام إذ ذهب مغاضبًا لقومه، والتضييق عليه في بطن الحوت، ومناداته في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه من الغم كما ينجي عباده المؤمنين.

٢٥- ذكر زكريا عليه السلام حين نادى ربه سائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾، واستجابة الله تعالى له وهبته يحيى، وإصلاح زوجه له، وثناء الله تعالى عليهم بدعائهم الله رغبًا ورهبًا والخشوع له.

٢٦- ذكر مريم عليها السلام، وامتداحها بإحصان فرجها، ونفخه عزوجل فيها من روحه، وجعلها وابنها عيسى آية للعالمين حيث حملت به وولدته من غير أب.

٢٧- تقرير وتوكيد وحدة الأمة، فدينهم واحد وهو الإسلام، وربهم هو الله وحده، وهو مبعودهم دون سواه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

٢٨- تقطع الأمم واختلافهم على رسلهم، فمن مصدق لهم ومكذب، ومن مؤمن بهم وكافر، ورجوعهم كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء، فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فسعيه مشكور غير مكفور، ومسجل مكتوب، ومن عمل غير ذلك فله جزاؤه.

٢٩- تأكيد بعث المهلكين من المكذبين وغيرهم ورجوعهم إلى الله يوم القيامة،

وخروج يأجوج ومأجوج، واقتراب الوعد الحق والقيامة والحساب، وشخوص أبصار الذين كفروا، ودعائهم بالويل وحسرتهم على غفلتهم وظلمهم، ووعيدهم بالنار هم ومعبوداتهم، وتأكيد ورودهم إليها ودخولهم فيها.

٣٠- الامتنان على المؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى بإبعادهم عن جهنم وإدخالهم الجنة وبشارة الملائكة لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾.

٣١- طي السماء كطي السجل للكتب، وإعادته عز وجل الخلق كما بدأهم وعدًا عليه حقًّا.

٣٢- كتابته عزوجل وقضاؤه الشرعي أن الأرض يرثها عباده الصالحون.

٣٣- التنويه بالقرآن وتعظيمه وأن فيه البلاغ التام لقوم عابدين يعبدون الله ويعملون بما جاء في كتابه.

٣٤- أنه تعالى إنما أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين كلهم، وأَمْرُه له بإعلان وحدانية الله تعالى في عبادته وحضهم على الإسلام: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾.

٣٥- التهديد والوعيد لمن تولى وأعرض عن طاعته ﷺ وعن إتباعه، وبيان أنه ﷺ لا يدري متى يحل بهم ما يوعدون، أقريب أم بعيد، ورده العلم إلى الله تعالى، وأنه لا يدري لعل ما هم فيه من النعم فتنة لهم ومتاع إلى حين، وطلبه من ربه الحكم بالحق، وتفويضه الأمر إليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾.

قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: قرب ودنا للناس حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم بقرب الساعة والقيامة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى**»[(١)].

وذلك لأن ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ﴾ [الحج: ٤٧].

ولأن عمر الدنيا كلها، ومتاعها، وما بقي منها؛ كل ذلك قليل بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ولأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاء عمله.

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: وهم غافلون

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

معرضون، و«الغفلة»: السهو وعدم اليقظة، أي: وهم في غفلة عما خلقوا له، وعما يراد بهم، لا يستعدون لذلك، ولا يعملون له.

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ عن الحق، مكذبون له بقلوبهم، متولون عنه بأبدانهم، منشغلون عنه بدنياهم.

قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في بيت جزارِ[1]

وقال الآخر:

الناس في غفلاتهم ... ورحا المنية تطحنُ[2]

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم﴾ «من» في قوله: ﴿مِّن ذِكۡرٖ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ما يأتي كفار قريش وغيرهم من الكفار من أيِّ ذكر من ربهم من القرآن الكريم، يذكرهم ما ينفعهم، ويحثهم عليه، ويحذرهم ما يضرهم.

﴿مُّحۡدَثٍ﴾، أي: حديث وجديد إنزاله.

﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا استمعوه فقط سماعًا تقوم به عليهم الحجة، ولا ينفعهم؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، أي: حال كونهم يلعبون، أي: غير منصتين إليه، ولا متدبرين له، ولا معتبرين بوعده ووعيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء: ٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضًا لم يُشب؟!»[3].

وفي حديث: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[4].

---

(١) البيت لمجهول. انظر: «الأمثال الواردة» (ص٤٣٦).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» صـ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٢٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٣٨، من حديث أُبيّ وعمر رضي الله عنهما.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، أي: غافلة منشغلة بها لا ينفعها.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ «الذين» بدل من فاعل «أسروا».

أي: وأسر التناجي بينهم الذين ظلموا بالكفر والتكذيب، وبالغوا بإخفاء ما يتناجون به قائلين فيما بينهم:

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الاستفهام بمعنى: النفي، والإشارة للنبي ﷺ، أي: ما هذا إلا بشر مثلكم كسائر البشر، ليس بملَك، فكيف اختص بالوحي دونكم؟!

كما قال الذين كفروا من قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال الذين كفروا من قوم هود: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ – ٣٤].

وقالوا هم وغيرهم من المكذبين لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١٠ – ١١].

وقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال غيرهم من المكذبين: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قال كفار قريش؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ – ٩].

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، وجملة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حالية، أي: وأنتم ذوو بصائر وعقول، أي: كيف تأتون السحر وأنتم تبصرون وتعرفون أنه سحر؟ أي: إن تصديقكم به واتباعكم له وأنتم تعلمون أنه بشر مثلكم وواحد منكم؛ كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر.

ويحتمل: أنهم أرادوا اتهامه ﷺ بالسحر، وأن ما جاء به سحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿قَالَ﴾ بألف على الخبر، وقرأ الباقون: «قل» بغير الألف على الأمر.

أي: قال ﷺ مجيبًا عما افتروه من الكذب، وما تناجوا به من الكيد له ﷺ ولدعوته: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يعلم القول كله سره وجهره، خفيه وعلانيته، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي: وهو السميع لأقوالكم، العليم بأعمالكم وأحوالكم، ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

و«السميع» و «العليم» من أسماء الله عزو وجل.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في المواضع الثلاثة، أي: بل قال الكافرون المكذبون للنبي ﷺ وللقرآن: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾، أي: ما جاء به محمد أضغاث أحلام، أي: أخلاط أحلام يراها في النوم، لا حقيقة لها.

﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: بل اختلقه وتقوله من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ [الطور: ٣٣].

﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، أي: وما جاء به شعر؛ كما قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

وقد فند الله قولهم هذا وأبطله بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة: ٤١].

فمن شدة عنادهم وكفرهم وضلالهم وحيرتهم اختلفوا وترددوا فيما يصفون به الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي، فتارة يقولون: سحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: مفترى، وتارة يقولون: شعر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ [الإسراء: ٤٨]، [الفرقان: ٩].

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فليأتنا بآية وعلامة ومعجزة تدل على صدقه ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: كالآيات التي أرسل بها الرسل الأولون، أو جاء بها الرسل الأولون؛ مثل: ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام، ونحو ذلك.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾، أي: ما آمنت قبلهم من قرية بالآيات التي اقترحوها، بل كفروا بها، فكانت سببًا لهلاكهم.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لن يؤمنوا بالآية لو جاءتهم، بل سيكفرون بها فتكون سببًا لهلاكهم؛ كحال الأمم قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦ – ٩٧].

وإذا كانوا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الآية العظمى والمعجزة الخالدة الكبرى، وما جاء على يديه ﷺ من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والمعجزات الظاهرات، فأنّى لهم أن يؤمنوا بأي آية بعد ذلك؟! قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾.

ذكر عز وجل قول المكذبين والكفار: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية،

واستبعادهم أن يكون الرسول من البشر، ثم رد في هذه الآية عليهم، وعلى من أنكر بعثة الرسل من البشر.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما كان الرسل قبلك يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾، أي: إلا رجالًا مثلك من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة؛ كما أنه ليس فيهم أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، أي: فاسألوا أهل الذكر والعلم من الأمم السابقة؛ كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟

إنما كانوا بشرًا مثلهم، وذلك من تمام نعمة الله تعالى على خلقه؛ ليتمكنوا من الأخذ عنهم، ولتقوم بهم الحجة عليهم؛ إذ لو كان الرسل ملائكة ما استطاع البشر الفهم منهم، والأخذ عنهم.

﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، وليسوا من الملائكة.

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: وما جعلنا الرسل أجسادًا وأجسامًا خارجين عن طبيعة البشر.

﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: لا يحتاجون إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، بل جعلناهم أجسادًا يأكلون ويشربون كغيرهم من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي هذا رد على المشركين، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾، أي: وما كانوا خالدين في الدنيا، بل هم كغيرهم من البشر، يعيشون ثم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾، أي: ثم صدقنا رسلنا الوعد الذي وعدناهم بإنجائهم وأتباعهم، وإهلاك أعدائهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي: فخلصناهم والذي نشاء من أتباعهم المؤمنين من الهلاك.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب للرسل.

الفوائد والأحكام:

١- قرب الحساب والجزاء على الأعمال والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٢- أن عمر الدنيا كلها بالنسبة للآخرة قليل، وما بقي منها بالنسبة للآخرة أقل من القليل، وأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاءه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٤- غفلة الناس عما خلقوا له وعما يراد منهم، وإعراضهم عن ذلك إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

٥- انشغال قلوب كثير من الناس بالدنيا ولهوها وشهواتها عما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

٦- إسرار الظالمين المكذبين التناجي بينهم للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

٧- أن في التكذيب للنبي ﷺ ولما جاء به أعظم الظلم؛ ولهذا وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٨- إنكارهم رسالته ﷺ، بدعوى أنه ما هو إلا بشر مثلهم وليس بملك؛ لقولهم: ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

٩- إنكارهم على من صدقه، ووصفهم لمن اتبعه بمن أتى السحر وهو يعلم أنه

سحر، تحذيرًا وتنفيرًا للناس منه، واتهامهم له ﷺ بالسحر؛ لقوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

١٠- أن النبي ﷺ بشر كغيره من البشر، وإنما ميزه الله عنهم بوحيه إليه، كغيره من الرسل.

١١- الإنكار على من أتى السحر، أو أتى أي عمل منكر وهو يعرف ذلك ويعلم حرمته.

١٢- أن من أتى أي عمل منكر وهو يجهل ذلك فلا إثم عليه؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

١٣- علم الله عز وجل الواسع بجميع الأقوال سرها وجهرها، خفيها وعلانيتها، في السماء والأرض، وفي هذا وعيد وتهديد للمتناجين للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّى﴾.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «السميع» و«العليم»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٦- اضطراب الكفار المكذبين للنبي ﷺ، وضلالهم وحيرتهم فيما يصفون به الرسول ﷺ والقرآن الكريم، فتارة يصفونه بالسحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: افتراه واختلقه من عنده، وتارة يقولون: شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③﴾، وقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

١٧- تعنت الكفار والمكذبين، وطلبهم أن يأتيهم الرسول ﷺ بآية مما يقترحونه، كناقة صالح، وآيات موسى وعيسى عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

١٨- تكذيب كفار قريش بالقرآن، وعدم اعتدادهم بكونه آية؛ كفرًا منهم وعنادًا، وهو الآية العظمى، والمعجزة الخالدة الكبرى، وقد بهرهم وأسكتهم وأخرس ألسنتهم بفصاحته وبلاغته.

١٩- تكذيب جميع الأمم الماضية بالآيات التي اقترحوها على أنبيائهم، وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾.

٢٠- أن هؤلاء المكذبين للنبي ﷺ- كغيرهم ممن سبقوهم من الأمم- لو جاءتهم آية مما اقترحوه لن يؤمنوا بها، بل سيكفرون بها وتكون سببًا لهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- أن جميع الرسل الذين أرسلهم الله وأوحى إليهم؛ رجال من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة، كما أنه ليس فيهم أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٢٢- أنه لا فرق بين الرسل وسائر البشر، إلا أن الله خص الرسل والأنبياء بوحيه تعالى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٢٣- أمره عز وجل للمكذبين للنبي ﷺ بسؤال أهل الذكر من الأمم السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟ وأن الرسل إنما كانوا بشرًا مثلهم، منة من الله تعالى على خلقه، وإقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٤- أن السؤال في طلب الهداية والعلم إنما يكون لأهل الذكر والعلم؛ من الرسل ومن اقتفى أثرهم من أهل الإيمان والتقوى والورع والخوف من الله، لا من الجهلة، ولا من أنصاف المتعلمين؛ لأن في ذلك الهلاك والضلال. وصدق من قال: «يفسد الناسَ ثلاثةٌ: نصفُ فقيه، ونصفُ طبيب، ونصفُ نحوي؛ فالأول يفتيهم في الأديان، والثاني يفتيهم في الأبدان، والثالث يفتيهم في اللسان»[1].

٢٥- أن الرسل عليهم السلام كغيرهم من البشر يأكلون ويشربون، وليسوا مجرد أجساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾.

٢٦- أن الرسل- كغيرهم من البشر- يعيشون في هذه الحياة ثم يموتون، وليسوا

---

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٨/ ١٣٦)، «الاستغاثة في الرد على البكري» لابن تيمية (ص٤١١)، «الفتوى الحموية الكبرى» (٥٥٤).

بمخلدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾.

٢٧- صدق الله عز وجل وعده رسله بإنجائهم ونصرهم وأتباعهم وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

٢٨- صدق الله عز وجل وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

٢٩- أن من كذب رسل الله وكفر بما جاؤوا به من الحق فهو من المسرفين.

٣٠- الترغيب في اتباع الحق وما جاءت به الرسل، والتحذير من مخالفة ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: لقد أنزلنا إليكم كتابًا عظيمًا، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أي: فيه عزكم وشرفكم وتذكيركم بما فيه صلاح دينكم ودنياكم وأخراكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم فتتأملوا في عظمة هذا الكتاب وتتدبروه، وتهتدوا بهديه، وتعملوا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أي: وكم أهلكنا واستأصلنا من قرية كانت ظالمة بالكفر والشرك وتكذيب الرسل، و«كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: وكثير من القرى أهلكناها؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ [الإسراء: ١٧].

والمراد بالقرية: أهلها؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾، أي: وأنشأنا بعد هذه القرى التي أهلكناها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: أممًا أخرى.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾، أي: فلما رأوا عذابنا، وتيقنوا أنه واقع بهم، كما توعدهم نبيهم.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم منها يسرعون فارين هاربين من العذاب، وهيهات لهم ذلك.

﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾، أي: قيل لهم: لا تركضوا، أي: لا تسرعوا، فلا مفر لكم من عذابنا.

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾، أي: وقيل لهم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ «ما»: موصولة، أي: عودوا إلى الذي أترفتم فيه من النعم والمساكن، فبطرتم وكفرتم، أي: إن استطعتم ذلك، وهيهات لهم ذلك، بعد أن حل بهم العذاب.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ هذا من جملة التهكم بهم، أي: لعلكم تُسألون عن حالكم وما أصابكم، وأنى لهم الرجوع فضلًا عن السؤال؟!

﴿قَالُواْ﴾ لما أيقنوا بنزول العذاب ندمًا وأسفًا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، أي: يا هلاكنا.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بما كنا عليه من الكفر والشرك والتكذيب لرسل الله.

وهذا ندم منهم حين لا ينفع الندم، وإقرار منهم حين لا ينفع الإقرار؛ ولهذا قال:

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾، أي: فما زالت تلك المقالة- وهي الندم والاعتراف بالظلم- دعواهم وهجيراهم، يرددونها ويكررونها.

﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾، أي: إلى غاية أن أهلكناهم واستأصلناهم، وجعلناهم كالزرع المحصود، ﴿خَٰمِدِينَ﴾، أي: ميتين قد سكنت حركاتهم، وانقطعت أصواتهم.

وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾، أي: ما خلقنا السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال، أي: ما خلقنا ذلك لعبًا وعبثًا.

واللعب: ما ليس فيه تحصيل مصلحة ولا دفع مفسدة، ولا جلب نفع ولا دفع مضرة، قولًا كان أو عملًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص: ٢٧].

والمراد: تقرير وإثبات أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق والعدل والقسط، ولأمر جلل وهدف عظيم، وهو الدلالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته ووجوب عبادته، وتمام قدرته على البعث ومجازاة الناس بأعمالهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ هذه الجملة مقررة لمعنى جملة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، «لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع.

أي: لو أردنا- على سبيل الفرض والمحال- أن نتخذ ونجعل لهوًا مما يُتلهى فيه ويلعب، مما لا حكمة فيه ولا مصلحة ولا فائدة؛ لاتخذناه وجعلناه من عندنا، وما خلقنا جنة ولا نارًا، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ «إن»: شرطية، وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنا فاعلين ذلك لاتخذناه، ويحتمل كون «إن»: نافية، أي: ما كنا فاعلين لهوًا؛ لعدم إرادتنا له، وكونه لا يليق بنا.

وفي هذا رد وإبطال لنسبة الصاحبة والولد له عز وجل كما زعم اليهود والنصارى والمشركون؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ «بل»: للإضراب، أي: بل نرمي بالحق على الباطل، ببيان الحق وإظهاره وتأييده.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾، أي: فيدحضه ويمحقه، ويزيله ويزهقه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾، أي: ذاهب مضمحل زائل، متبين بطلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾، أي: الهلاك والعذاب.

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من وصفكم، أو موصولة، أي: من الذي تصفونه، أي: من الذي تصفون به الله عز وجل كذبًا وافتراءً من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلَهُۥ﴾ للاختصاص والملك، أي: وله خاصة جميع من في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة، وهذا تشريف وتكريم لهم.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، أي: لا يتعاظمون ولا يأنفون ولا يستنكفون عن عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أي: لا يتعبون ولا يملون ولا يَعْيَون؛ لقوة إيمانهم، ونشاط أبدانهم، وشدة رغبتهم، وقد جعل الله التسبيح لهم كالنفس لبني آدم.

يقال: حسر واستحسر: إذا تعب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٤]، أي: كليل متعب.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يستكبرون عن عبادته ويعبدون غيره.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾، بيان لجملة: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أي: يصلون ويسبحون على الدوام أوقات الليل وأوقات النهار، لا يضعفون ولا ينقطعون.

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان بإنزال القرآن، وإقامة الحجة به على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ﴾.

٢- إثبات صفة العلو لله تعالى، وأنه سبحانه عالٍ بذاته فوق خلقه، بائن منهم، له علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ﴾.

٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

٤- تعظيم القرآن الكريم وتشريفه، والتنويه به؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا﴾ بالتنكير، أي: كتابًا عظيمًا جليلًا، ولا غرو في هذا، فهو أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق.

٥- أن القرآن الكريم ذكر لهذه الأمة، وشرف لها، وعز ورفعة؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

٦- توبيخ وتقريع الكفار الذين لا ينتفعون بعقولهم بالتأمل والتدبر في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٧- أن من لم ينتفع بعقله بالاهتداء به إلى الحق والصراط المستقيم فليس بعاقل، وإن زعم وادعى أنه عاقل، وهكذا حال كثير من الخلق، لا عقل صحيح، ولا رأي رجيح، حكمة بالغة.

٨- التحذير والتهديد للكفار المكذبين بالقرآن، أن يحل بهم من الهلاك مثلما حل بالمكذبين الظالمين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾، والسعيد من وعظ بغيره.

٩- تمام قدرة الله تعالى، وشدة عقابه، وهوان الخلق عليه إذا هم عصوه وخالفوا أمره.

١٠- سعي من نزل بهم العذاب من أولئك الأقوام للهروب والفرار من العذاب، ولكن هيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

١١- التهكم والاستهزاء بهم في مسعاهم للفرار من العذاب بلا جدوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

١٢- ينبغي الحذر من الترف والتنعم؛ لأن ذلك من أسباب البطر، وكفر النعم، ومخالفة أمر الله تعالى.

١٣- أن الله عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعبًا، وإنما خلقهما للدلالة على عظمته ووحدانيته، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته،

وتمام قدرته على البعث والجزاء، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى عن اللعب واللهو، وأن كل ما يخلقه ويقدره، أو يقوله ويفعله، أو يأمر به أو ينهى عنه، كل ذلك يجري في غاية الحكمة والإتقان.

١٥- أن الله عز وجل لو أراد أن يتخذ لهوًا لاتخذه من عنده وفعله، ولكنه لا يريد ذلك وما يفعله؛ لأنه لا يليق به عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤].

١٦- دمغ الباطل وإزهاقه وإزالته وإذهابه ببيان الحق وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾.

١٧- أنه لا ثبات للباطل مهما عظم أمام قوة الحق.

١٨- الوعيد والتهديد بالعذاب والهلاك للذين يصفون الله بما لا يليق به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

١٩- أن لله عز وجل جميع من في السموات والأرض ملكًا وخلقًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٠- امتداح الله تعالى لمن عنده من الملائكة، وثناؤه عليهم بعدم الاستكبار عن عبادته، وعدم التعب والملل منها، والمداومة على التسبيح آناء الليل والنهار، وعدم الانقطاع عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢١- تشريف الملائكة وتكريمهم، والتنويه بعلو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، والهمزة: للاستفهام الإنكاري، والتقدير: بل أأتخذوا آلهة من الأرض؟

أي: هم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض، أي: هم لا يقدرون على شيء من ذلك، بل هم كما قال عز وجل: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النحل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

فنفى في هذه الآية: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ أن يكونوا آلهة بدليل العقل، وسيأتي نفي ذلك بدليل الشرع.

وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحقير لهذه الآلهة والأصنام، وأنها أرضية سفلية، ومصنوعة من جنس الأرض.

﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾.

اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لاختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات، أي: أنه لو كان في الوجود إله غير الله لفسدت السموات والأرض، واختل نظام الكون كله.

قال السعدي(١): «فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنه لم يوجد إلا برب واحد؛ ولهذا قال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾، أي: في السموات والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، يدل على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما دون الآخر تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محال وجود مرادهما معًا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذن يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار؛ ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزه عز وجل وتقدس، وأظهر اسم الجلالة للتعظيم وتربية المهابة.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ٢٢٠- ٢٢١.

﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأوسعها وأعظمها، ووصف نفسه برب العرش للتذكير بأنه خالق ما هو أكبر وأعظم من السموات والأرض، وهو العرش الذي هو أكبر المخلوقات.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه تعالى به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، أي: لا يسأل سبحانه عن فعله، أو عن الذي يفعله؛ لكمال ربوبيته وتمام تدبيره، فهو خالق الخلق ومالكهم والمتصرف فيهم، الحاكم الذي لا معقب لحكمه؛ لعظمته وجلاله وكبريائه وعزته وعدله.

﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، أي: وهؤلاء المشركون الذين يصفون الله باتخاذ الصاحبة والولد، والشركاء والأنداد، هم وجميع الخلق يسألون عن أفعالهم وأقوالهم، ويحاسبون، ويجازون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦].

قال ابن القيم: «فقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية، وإفراد له بالربوبية والإلهية، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية، فإنها مسؤولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟!»(١).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾

قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ الآية، تأكيد لقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١﴾، استعظامًا لفظاعته، وليبني عليه إبطاله بدليل الشرائع؛ كما

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٤.

بنى على نظيره السابق إبطاله بدليل العقل.

و«أم» في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كالتي قبلها للإضراب الانتقالي، بمعنى «بل»، والهمزة للاستفهام الإنكاري.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أعطونا برهانكم، أي: دليلكم وحجتكم على صحة ما تقولون، وما ذهبتم إليه من اتخاذ الشركاء مع الله، من شواهد الشرائع والرسل.

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ الإشارة إلى القرآن، و«من»: موصولة، أي: هذا القرآن ذكر الذي معي من المسلمين، أي: ذكر أتباعي وأمتي.

﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾، أي: وهذا ذكر الذي قبلي، أي: الكتب السابقة، أي: هذا القرآن الكريم والكتب السابقة قد اتفقت على إثبات وتقرير وحدانية الله تعالى، وإبطال الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر المكذبين المتخذين آلهة من دون الله لا يعلمون الحق، وإنما يقلدون آباءهم وأسلافهم على جهل وضلال.

﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: فهم بسبب جهلهم وعدم علمهم معرضون عن الحق بقلوبهم، متولون ومبتعدون عنه بأبدانهم؛ لأن الجهل داء قاتل، وموت قبل الموت، وقد أحسن القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسادهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له بعد النشور نشور[1]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]:

---

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٧)، «نتائج الفكر» للسهيلي (ص٢٦)، «طبقات الشافعية» (٥/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص٧).

فقم بعلم ولا تطلب له بدلًا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ قد يؤخذ منه أن منهم من يعلم الحق ويعرفه، ويتركه عنادًا واستكبارًا.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾.

هذه الآية بيان لقوله: ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أرسلنا من قبلك أيَّ رسول ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَنَّهُۥ﴾، أي: بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، أي: لا معبود إلا أنا، فاعبدوني وحدي؛ كما قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

قال ابن كثير(١): «فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾، أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾، أي: جعل له ولدًا، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣١.

[الزخرف: ١٩].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل، أي: تنزه وتقدس وتعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لأن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص بفقد الولد؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٦٨].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل الملائكة عباد لله تعالى، مكرمون عنده، مقربون لديه، مربوبون له، ليس لهم من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، أي: لا يتقدمون بين يديه عز وجل بالقول إجلالًا له وتعظيمًا؛ لكمال أدبهم وعلمهم ببالغ حكمته وواسع علمه، فلا يقولون إلا ما أذن الله لهم بقوله.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ قدّم قوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ لإفادة القصر، أي: فكما أنهم لا يقولون قولًا إلا بإذنه، فكذلك لا يعملون عملًا إلا بأمره، ولا يعصونه، ومهما أمرهم عملوا بأمره وبادروه وامتثلوه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بهم، يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، والذي قدموه والذي أخروه، وأمورهم الماضية والمستقبلة.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ هذا داخل في عموم النفي في قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، وخصه بالذكر اهتمامًا بأمر الشفاعة، ولبيان خطئهم في جعلهم الآلهة شفعاء لهم عند الله.

أي: ولا يشفعون إلا للذي ارتضاه الله، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة له؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾، أي: وهم من خوفه عز وجل ورهبته، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون

وجلون، فيعظمونه، ويحذرون من مخالفة أمره، ويخشون بطشه.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: ومن يقل من الملائكة إني إله من دونه، أي: من دون الله، وهذا على سبيل الفرض، وحاشاهم من ذلك.

﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، أي: نجعلها مصيره وداره، ونعذبه فيها.

وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝٨١﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والمقصود من هذا الشرط: الرد على الذين ادعوا للملائكة الإلهية، وأنهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وما يوجب لقائله نار جهنم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء بجهنم نجزي الظالمين بالشرك بالله، فنجعلها مآلهم ونعذبهم فيها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ ابن كثير: «ألم ير» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾، والاستفهام: إنكاري، والرؤية يحتمل كونها علمية أو بصرية، أي: أولم ير الذين جحدوا وأنكروا وحدانية الله تعالى وعبدوا معه غيره؟

﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، أي: كانتا ملتصقتين، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، أي: ففصلناهما بقدرتنا.

قال ابن كثير[1]: «كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرضين سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض، ولهذا قال:

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٢.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾».

وقال بعض المفسرين: المعنى: كانتا رتقًا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات، بدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«جعل» هنا بمعنى: «خلق»، أي: خلقنا من الماء كل شيء حي، أي: أن أصل جميع الحيوانات من الماء، فما يتوالد منها خلق من ماء الذكر والأنثى، وما يتولد كالحشرات والديدان ونحو ذلك خلق من الرطوبات، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا يؤمن ويصدق الجاحدون لإلهية الله تعالى، العابدون معه غيره؛ بوحدانيته وعظمته وكمال قدرته على الخلق، وعلى إعادتهم بعد فنائهم، مستدلين بهذه الآيات العظيمة في السماء والأرض وفي سائر المخلوقات؟! كما قال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ هذا من آثار فتق الأرض.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جبالًا رواسي، رست ورسخت في الأرض، وثبتنا بها الأرض.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ «أن» تعليلية، أي: لئلا تميد بهم، أي: لئلا تضطرب بهم وتتحرك فلا يستطيعون القرار عليها.

قال ابن كثير[١]: «لأنها غامرة بالماء إلا مقدار الربع؛ فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات».

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الفجاج: جمع فج، وهي الطرق الواسعة، أي: وجعلنا في الأرض طرقًا واسعة مسلوكة.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يهتدوا بهذه الطرق للوصول إلى مطالبهم،

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٣.

ويتنقلون عبرها من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى آخر.

وأيضًا: لأجل أن يهتدوا ويتأملوا في هذه الآيات الكونية العظيمة، ويستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمه عليهم، فيؤمنوا به ويشكروه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ على الأرض كالقبة عليها، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس: ٥]، أي: جعلها كالقبة على الأرض.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ عاليًا محفوظًا من السقوط والزوال والخلل؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

ومحفوظًا أيضًا بمعنى: محروسًا من استراق الشياطين السمع؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ [الصافات: ٦ - ٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجن: ٨].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾، أي: وهم عن آيات السماء، أي: عما فيها من الآيات العظيمة: من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات، في سيرها وغروبها وشروقها وغيبتها، وجريان ذلك على حساب قويم دقيق، ونظام عجيب، وما يترتب على ذلك من المنافع العظيمة، والمصالح الكبيرة.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم، لا يتأملون في هذه الآيات العظيمة فيستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، ووحدانيته، وبالغ حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ﴾ بظلامه وسكونه، وجعله وقتًا للنوم والراحة والسكون، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: وخلق النهار بضيائه وأنسه، وجعله وقتًا للحركة وطلب الرزق؛ كما

قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

وعاقب بينهما، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يقصر الليل ويطول النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾، أي: وخلق الشمس وجعلها ضياء، وخلق القمر وجعله نورًا، وجعلهما يجريان بحساب دقيق؛ لمعرفة حساب السنين والأعوام، والشهور والأيام؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾، أي: كل من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم في فلك. الفلك: كل شيء دائر.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ يدورون ويجرون فيه، كالسابح في الماء، أي: كل منها يدور في فلكه ومداره لا يتجاوزه ولا يحيد عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧- ٤٠].

وفي ذلك كله من الفوائد والمنافع والمصالح للخلق ما لا يحصى؛ ولهذا سيقت الآية مساق الامتنان.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين في عبادتهم من دون الله آلهة من الأرض، لا يملكون من الأمر شيئًا، وإبطال ذلك بدليل العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ

يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: كلَّا؛ لا يملكون ذلك ولا ما دونه.

٢- تحقير آلهة المشركين وأصنامهم، وأنها أرضية سفلية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣- إثبات وحدانية الله تعالى، واستحالة وجود آلهة غير الله، وأنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، واختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾.

٤- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه عما يصفه به المشركون من الشركاء والأنداد، والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات، وإثبات ربوبية الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾، فربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى.

٦- إثبات كمال ربوبيته عز وجل وعظمته، وتمام تدبيره وحكمته وعدله، وأنه لا معقب لحكمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾.

٧- أن الخلق كلهم يُسألون عن فعلهم؛ من عُبدوا من دون الله وعابدوهم، وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

٨- تأكيد الإنكار على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومطالبتهم بالدليل والحجة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾.

٩- دلالة القرآن الكريم والكتب السابقة على بطلان الشرك، وعلى إثبات الوحدانية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾.

١٠- أن كثيرًا من المشركين المكذبين بالقرآن جهلة لا يعلمون الحق، بل يقلدون أسلافهم على ضلال؛ لهذا أعرضوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

١١- خطر الجهل، وأنه من أسباب الضلال والإعراض عن الحق، ومرتع خصب للبدع والخرافات.

١٢- إجماع الرسل على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وأنه لا رب غيره، ولا معبود

بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾.

١٣- قول المشركين وزعمهم الباطل أن الملائكة بنات الله، وأن له ولدًا، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾.

١٥- الرد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، وبيان أن الملائكة عباد من عباد الله تعالى، مكرمون عنده، مقربون إليه، مربوبون له، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾.

١٦- تعظيم الملائكة عليهم السلام لله عز وجل وإجلالهم له، وكمال أدبهم، وعلمهم ببالغ حكمته، وواسع علمه، فلا يتقدمونه بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾.

١٧- مبادرتهم إلى طاعته وعمل ما يأمرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾.

١٨- إحاطة علمه عز وجل بما قدموه وبما أخروه، وبأحوالهم وأمورهم الماضية والمستقبلة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

١٩- أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله تعالى، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾.

٢٠- إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

٢١- شدة خوفهم عليهم السلام، ورهبتهم له عز وجل، وإشفاقهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾.

٢٢- الرد على الذين اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله، بأن الملائكة لا يرضون بذلك ولا يقولونه، ولو قال قائل منهم ذلك على سبيل الفرض- وحاشاهم من ذلك- لكان جزاؤه جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾.

٢٣- تنزل القرآن الكريم في الكلام مع المشركين في عبادتهم الملائكة؛ لاستنزالهم عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، وهذا إنما هو على سبيل الفرض والتقدير، وحاشاهم من ذلك.

٢٤- إثبات جهنم، وأنها دار جزاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٥- الإنكار على الذين كفروا عدم النظر والتأمل بأن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عز وجل، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض النبات، والاستدلال بذلك على تمام قدرة الله تعالى ونعمته، ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾.

٢٦- أن كل شيء حي خلق في الأصل من الماء، فما يتوالد خلق من ماء الذكر والأنثى، وما يتولد خلق من الرطوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

٢٧- توبيخ الكفار على عدم إيمانهم مع ما يرون من الآيات العظيمة في السموات والأرض وفي سائر المخلوقات، وما في ذلك من المنن الجسيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٨- الامتنان على العباد بإرساء الأرض بالجبال العظيمة لئلا تضطرب بهم، وجعل الطرق الواسعة فيها ليسلكوها ويهتدوا بها في تنقلاتهم من مكان إلى آخر، وبيان تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢٩- كمال قدرة الله تعالى ونعمته في جعل السماء سقفًا على الأرض، محفوظًا من السقوط والخلل واستراق السمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

٣٠- إعراض المكذبين عن آيات الله العظيمة في السماء؛ من شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها، وغروبها وشروقها وغيبتها، في نظام دقيق عجيب، وما في ذلك من المصالح والمنافع للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

٣١- قدرة الله تعالى العظيمة، ونعمته الكبيرة على الخلق؛ في خلق الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وجعلها تدور في أفلاكها، وما في ذلك من المصالح العظيمة من معرفة الحساب، ومن اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا واعتدالًا، واختلاف الفصول حرًّا وبردًا واعتدالًا، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، أي: وما صيرنا لبشر من قبلك يا محمد الخلد في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

وكان الكفار والمكذبون له ﷺ يقولون متشمتين به بأنه سيموت وينتهي أمره؛ كما مات لبيد والشعراء من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، فرد الله تعالى عليهم بأنه قضى ألا يخلد في الدنيا بشر، فإذا مت فسبيل من مات قبلك من الرسل والأنبياء وسائر البشر.

قال الشاعر:

رأيت المنايا لم يدعن محمدًا ... ولا باقيًا إلا له الموت مرصد[(١)]

وقال الفرزدق[(٢)]:

إذا ما الموت جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا: أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ يا محمد كما يتمنى أعداؤك وينتظرون.

﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، أي: فهم الخالدون بعدك، أي: فهل سيخلدون بعدك؟ كلا، بل الكل إلى فناء؛ فالموت منهل لا بد من وروده، وكأس لا بد من شربه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال الشافعي[(٣)]:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لستُ فيها بأوحدِ

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلِها فكأنْ قَدِ

وقال الآخر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلَّ من جمع وأفنى من دول[(٤)]

وقال الآخر:

فهن المنايا أيّ واد سلكته ... عليها طريقي أو عليّ طريقها[(٥)]

وقال الآخر:

---

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس، مع اختلاف في روايته. انظر: «ديوانه» (ص٤٠)، «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٨١).

(٢) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ٥٥).

(٣) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي ٢/ ٧٣.

(٤) البيت لابن دريد، ضمن مقصورته. انظر: «ديوانه» (ص٧١)، وانظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

(٥) البيت بلا نسبة. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٥).

هـو المـوت مـا منـه مـلاذ ومهـرب ... متى حط ذا عـن نعشـه ذاك يركـبُ[(١)]

وقال أبو العتاهية[(٢)]:

المـوت بـاب وكـل النـاس داخلـه ... يا ليت شعريَ بعد الموت ما الـدارُ

الـدار جنـة عـدن إن عملـت بـما ... يـرضي الإلـه وإن فرطـت فالنـارُ

همـا محـلان مـا للنـاس غيرهمـا ... فـاختر لنفسـك مـاذا أنـت مختـار

وقد ذُكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يتمثل بالبيتين الأولين من هذه الثلاثة.

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾، أي: ونختبركم بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، والحرام والحلال، والمعصية والطاعة، والضلال والهدى، وما تحبون وما تكرهون.

﴿فِتۡنَةٗۖ﴾، أي: اختبارًا لكم وامتحانًا؛ لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع ويقنط، ومن يختار طريق الخير، ومن يختار طريق الشر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وإلينا تُردون فنحاسبكم ونجازيكم بأعمالكم، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: وإذا رآك يا محمد كفار قريش، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ «إن»: نافية، أي: ما يتخذونك ويجعلونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا محلًّا للاستهزاء والسخرية، أي: يستهزئون بك، ويسخرون منك، وينتقصونك، قائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ الاستفهام للتعجب، والإشارة للتحقير، أي:

---

(١) البيت للشاعر ابن عثيمين، وهو مطلع قصيدة له في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة في آخر «ديوان ابن مشرف» ص١٨٧. وانظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١٤٨/١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٤١).

أهذا المحتقَر بزعمهم: ﴿ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، أي: يذكر آلهتكم بسوء، بقرينة المقام، أي: أهذا الذي يسب آلهتكم ويذمها؟ فلا تبالوه ولا تحتفلوا به.

﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: يستهزئون بك، ويتعجبون من سبك لآلهتهم، ويحتقرونك لأجل ذلك، ويغضبون من ذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، في حال كونهم كافرين بذكر الرحمن، غافلين عن القرآن الكريم، الذي هو الحقيق بأن يذكروه، منكرين كونه آية على صدقه ﷺ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان: ٤١ – ٤٢].

فهم يعيبون النبي ﷺ في بيانه بطلان آلهتهم التي هي باطلة حقًّا، وهم مع ذلك يكفرون بالرحمن الإله الحق، ويحتقرونه بما هو كماله، وهو إخلاص العبادة لله تعالى، وذم ما يعبد من دونه، وهم محل الاستهزاء والاحتقار؛ لكفرهم بربهم، وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر.

وفي قوله: ﴿بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بيان لقبح صنعهم، وأنهم قابلوا الرحمن مسدي النعم كلها ودافع النقم بالكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠].

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾، أي: من صفته وطبيعته وجبلته العجلة، و«العجل» و«العجلة»: السرعة، وهذه الآية كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١].

فخلق الله الإنسان من طبيعته وسجيته العجلة، يستعجل الأمور، ويستبطئ وقوعها؛ ولهذا يستعجل المؤمنون وقوع ما وعدوا به من النصر على أعدائهم؛ كما قال ﷺ: «**والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

كما يستعجل المكذبون المستهزئون وقوع العذاب فيهم لجهلهم استبعادًا له؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولهذا قال عز وجل: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾، أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني وكذب رسلي.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، أي: فلا تستعجلوا عذابي وانتقامي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار والمشركون إمعانًا منهم في التكذيب والعناد، وغرورًا وجهلًا، واستبعادًا لما توعدوا به: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الاستفهام: للتهكم، أي: متى وقوع هذا الوعد بعذابنا وإهلاكنا إن كنتم صادقين؟ فالمراد بالوعد في الآية: «الوعيد»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وما علموا أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وأن كل شيء عنده بأجل مسمى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال ﷺ: **«إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»** ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢][(١)]؛ ولهذا قال:

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة ٢٥٨٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣١١٠، وابن ماجه في العتق ٤٠١٨، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، «يعلم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، يدل عليه السياق، تقديره: لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب ونحو ذلك.

أي: لو يعلم الذين كفروا ويتيقنون حين لا يدفعون ولا يدرؤون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، أي: حين دخولهم النار وغشيانها لهم وإحاطتها بهم من كل جانب، لا يستطيعون دفعها بأنفسهم عن وجوههم، ولا عن ظهورهم.

وخص الوجوه والظهور؛ لأن الوجوه مجمع المحاسن وأولى ما ينبغي وقايته من النار، وذكر الظهور للدلالة على غشيان النار لهم من كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: من خارجهم، أي: لا أحد ينصرهم، فلا انتصروا لأنفسهم، ولا نصرهم غيرهم.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل تأتيهم النار ﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾، أي: فتحيرهم، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: تحير واندهش وانقطعت حجته.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: فلا قدرة لهم ولا حيلة لرد النار عنهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يمهلون ولا يؤخر عذابها عنهم ساعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ذكر عز وجل قبل هذا استهزاءهم به ﷺ بقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثم بين بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، بأن هذا دأب

الأمم السابقة مع رسلهم، وأنه قد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد وتهديد للمستهزئين به من المشركين.

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: ولقد استهزئ وسخر برسل كثيرين من قبلك، أي: فلست أنت أول رسول يستهزأ به، وليس استهزاء قومك بك ببدع من فعل الأمم السابقة مع رسلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ [الحجر: ١٠ - ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: ٦ - ٧]، وقال الرجل المؤمن: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾، أي: فأحاط بالذين سخروا من الرسل، وحل بهم ونزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: الذي كانوا به يستهزئون، أي: الذي كانوا به يستهزئون من العذاب ويستبعدونه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤].

فليحذر المستهزئون المكذبون من قومك أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعرضين: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: من يحرسكم ويحفظكم ويجيركم.

﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في جميع الأوقات ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾، أي: من بأسه وعذابه، أي: لا أحد يكلؤكم وينجيكم ويجيركم من بأسه وعذابه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد: ١١].

فالمعنى: لا أحد يكلؤكم من الرحمن ويجيركم من عذابه إلا هو سبحانه؛ ولهذا قال

ﷺ: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**»[١]، وقال: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[٢].

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، أي: بدل الرحمن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره، ولا حافظ لكم سواه.

وفي هذا امتنان على العباد بحفظه عز وجل وكلاءته لهم في جميع الأوقات، وأنه لا حافظ لهم غيره، ولا واقي لهم سواه.

﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم عن ذكر ربهم القرآن الكريم، وعن عبادته عز وجل وطاعته وشكره.

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ فلا يتأملون بقلوبهم في آياته، ولا يعترفون فيها بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، ولا ينقادون بجوارحهم لامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل ألهم آلهة؟ والاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: ألهم ﴿ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾، أي: تحفظهم وتكلؤهم.

﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾، أي: غيرنا؟ أي: ليس الأمر كما زعموا وتوهموا، فآلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: فهذه الآلهة التي عبدوها من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم والدفاع عنها، فكيف ينصرونهم ويدفعون عنهم؟

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾، أي: ولا هم منا يجارون ويمنعون وينصرون ويعانون، وإذا لم يجاروا من الله وينصروا ويعانوا ويؤيدوا فهم مخذولون، لا يستطيعون جلب نفع أو دفع ضر، وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٦، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة ٨٧٩، والنسائي في التطبيق ١١٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا لم يكــن عــون مــن الله للفتــى فــأول مــا يجني عليــه اجتهــاده[(١)]

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الآية، «بل»: للإضراب الانتقالي.

أي: بل إنما حملهم على الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والضلال اغترارهم بما متعناهم به من النعم هم وآباؤهم في هذه الحياة الدنيا.

﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، أي: حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وألفوا ما هم فيه، وظنوا أنهم على شيء؛ كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع، أي: أفلا ينظرون ويتأملون ويعتبرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؛ بنصر الله تعالى لأوليائه، وإهلاك المكذبين والقرى الظالمة؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: ليسوا هم الغالبون، بل هم المغلوبون الأسفلون، الأخسرون الأرذلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

وأيضًا: أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها بموت أهلها وفنائها شيئًا فشيئًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فلا يغتروا بما هم فيه من متاع الدنيا، فليسوا هم الغالبون، الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله، والامتناع عن الموت والفناء.

---

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: قل يا محمد للناس، وبخاصة المكذبين منهم: إنما أنذركم، أي: أخوفكم وأحذركم من العذاب والنكال بالوحي الذي أوحاه الله تعالى إليَّ، أي: ما أنذركم إلا بالوحي الذي أوحاه تعالى إليَّ، لا بشيء من عندي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء مضمومة وكسر الميم: «تُسْمِعُ»، ونصب «الصُّمَّ»، وقرأ الباقون بالياء مفتوحة وفتح الميم، ورفع الصم: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾.

و«الصم»: جمع «أصم»، وهو الذي لا يسمع، أي: الذي قد انسد عنده طريق السمع الحسي وتعطل، ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ النداء، ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا يسمع الصم الدعاء بسبب ما في آذانهم من الصمم الذي عطّل أسماعهم، أي: وكما لا يسمع الصم الذين انسد لديهم طريق السمع الحسي بالآذان النداء، فكذلك- بل أشد- من أصيبوا بالصمم المعنوي: صمم القلوب لا يسمعون الدعاء إذا ما أنذروا وخوفوا عذاب الله؛ لعمى قلوبهم وما عليها من الأكنة والغلف؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، أي: جزء ونصيب يسير، أي: أدنى شيء من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن معترفين بظلمهم واستحقاقهم العذاب، نادمين على ذلك، حين لا ينفع الندم داعين على أنفسهم بالويل والثبور: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، أي: يا هلاكنا ويا مصيبتنا وعذابنا.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعتراف منهم على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين بكفرهم وشركهم، وندم حيث لا ينفع الندم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٥].

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أي: ونضع أدوات الوزن العدل.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لوزن أعمال الخلائق يوم القيامة لمحاسبتهم ومجازاتهم عليهم؛

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨ – ٩].

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أي: فلا تظلم نفس مؤمنة أو كافرة.

﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا تظلم نفس أيَّ شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، أو غير ذلك، بأن ينقص من حسناتها أو يزاد في سيئاتها.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر برفع اللام: «مِثْقَالُ»، وقرأ الباقون بنصبها: «مِثْقَالَ»، أي: وإن كان هذا الشيء ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، أي: وزن حبة من خردل، أي: وزن ذرة، التي هي أصغر الأشياء وأقلها وأحقرها.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، أي: أحضرناها ليجازى بها صاحبها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾، أي: حسبنا، وما أعظم كفايتنا ﴿حَٰسِبِينَ﴾، أي: حاسبين لأعمال الخلائق، مثبتين حافظين لها، عالمين بمقاديرها ومقادير ثوابها، مجازين عليها.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل يستخلص رجلًا من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يقول: تنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. قال: أفلك عذر وحسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة، فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله». فيقول: أحضروه، فيقول: يا**

رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال: ولا شيء يثقل بسم الله الرحمن الرحيم»[1].

الفوائد والأحكام:

١- لا خلود لأحد من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾.

٢- تربص المشركين المكذبين به ﷺ، وانتظارهم موته؛ لتموت معه دعوته كما يتوهمون، ويبقون بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

٣- أن كل نفس ذائقة الموت، وشاربة كأسه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٤- ابتلاء الخلق وامتحانهم بالشر والخير، بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، ليتبين من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

٦- استهزاء الكفار بالنبي ﷺ عند رؤيتهم إياه واحتقارهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

٧- بيانه ﷺ بطلان عبادة الأصنام وذمها؛ لقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: يذمها ويذكرها بالسوء، ويبين بطلان عبادتها.

٨- تعجب المشركين بل وإنكارهم وغضبهم لذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، وبيان بطلان عبادتها، مع أنهم في الحال يكفرون بذكر الرحمن الإله

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢١٣، والترمذي في أبواب الإيمان، فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد، ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٤٣٠٠.

الحق، فكيف يعيبون عليه ﷺ بيان بطلان عبادة آلهتهم التي لا تملك نفعًا ولا ضرًّا مع كفرهم بالرحمن الإله الحق الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، وكيف يحتقرونه بما هو كماله وهو إخلاصه العبادة لله تعالى رب العالمين، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ولا يحتقرون أنفسهم بما هو أعظم النقص، وهو عبادتهم ما لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، هذا أمر في غاية التناقض، وهو المثير للدهشة والعجب حقًّا.

٩- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾.

١٠- أن الإنسان خلق طبيعته وسجيته العجلة في أموره؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ ولهذا فالكفار لجهلهم وعجلتهم يستعجلون العذاب، والمؤمنون لعجلتهم يستعجلون موعود الله لهم بنصرهم وإهلاك عدوهم.

١١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصى أمره وكذب رسله؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾.

١٢- استبعاد الكفار ما تُوعِّدوا به من العذاب، وتكذيبهم به، وسؤالهم رسلهم تهكمًا واستعجالًا: متى هذا الوعد؟ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾.

١٣- تأكيد وقوع ما توعدوا به من عذاب النار مما لا يستطيعون كفه عن وجوههم ولا عن ظهورهم، وأنهم لو علموا حقيقة ذلك لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ...﴾ الآية.

١٤- غشيان النار وإحاطتها بالكفار من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ ففي ذكر الوجوه بيان حرق النار لمحاسنهم وإهانتهم، وفيه وفي ذكر الظهور بيان إحاطتها بهم.

١٥- أنه كما لا قدرة للكفار في كف النار عنهم بأنفسهم، فلا ناصر لهم من خارجهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

١٦- إتيان النار أهلها فجأة فتبهتهم وتحيرهم، فلا يقدرون على ردها، ولا هم

يمهلون فيؤخر عنهم عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٧- تسلية الرسول ﷺ، بذكر استهزاء المكذبين بالرسل من قبله، وإحاطة ما استهزأوا به فيهم، وتحذير وتهديد المستهزئين به من قومه أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

١٨- إطباق المكذبين للرسل على الاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦ - ٧].

١٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بحفظ الله تعالى، وكلاءته لهم بالليل والنهار وجميع الأوقات من بأسه وعذابه، فلا حافظ لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٢١- إعراض الكفار والمكذبين عن القرآن الكريم وذكر الله تعالى بقلوبهم، وتوليهم عن الانقياد لذلك بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِم﴾.

٢٣- الإنكار على المشركين اعتقادهم الباطل أن آلهتهم تمنعهم وتحفظهم من دون الله، وتقريعهم وتوبيخهم، وبيان أن آلهتهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، وليسوا معانين من الله، فكيف ينصرونهم؟! لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وفي هذا إبطال زعمهم أنهم لهم شفعاء؛ كما في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

٢٤- أنه إنما حملهم على الاستمرار على الشرك والكفر والضلال اغترارهم بما

مُتعوا به هم وآباؤهم من النعم في هذه الحياة الدنيا، استدراجًا لهم، حتى طال عليهم الأمد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

٢٥- أن إدرار النعم والتمتيع بها قد يكون فتنة واستدراجًا، فيجب عدم الاغترار بذلك؛ كما قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

٢٦- وعيد هؤلاء المكذبين المغترين بما متعوا به هم وآباؤهم، وتهديدهم بسلب ما هم فيه، وأن يحل بهم مثل ما حل بالقرى الظالمة وبالمكذبين قبلهم من إهلاكهم، ونصر الله تعالى لأوليائه، فليسوا بالغالبين ولا الممتنعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٢٧- أن النبي ﷺ إنما ينذر الكفار والمكذبين بالوحي الذي أنزله الله تعالى عليه، وليس بشيء من تلقاء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾.

٢٨- أن الإنذار والدعاء لا يجدي فيمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، فهو كالأصم حسيًّا لا ينفذ الدعاء والإنذار إلى سمعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

٢٩- أنه لو أصاب هؤلاء المكذبين المعرضين أدنى شيء من عذاب الله لاعترفوا بظلمهم واستحقاقهم للعذاب، وندموا حين لا ينفع الندم، ودعوا على أنفسهم بالويل والثبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

٣٠- تمام عدل الله عز وجل في محاسبة الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا، بنقص من حسناتها، أو زيادة في سيئاتها، ولو كان ذلك قدر مثقال ذرة أتى بها الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾.

٣١- إثبات الموازين ووزن الأعمال يوم القيامة، وفي الحديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله**

العظيم»[١].

٣٢- كفاية الله تعالى التامة في حسابه الخلائق؛ لعلمه التام بهم وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، وفي هذا ضمان للعدل، وترغيب في الثواب، وترهيب من العذاب.

*   *   *

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٦٣، ومسلم في الذكر وفضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٨٠٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠) * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠].

هذا شروع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وما لقوه من المكذبين من أممهم، وصبرهم في سبيل ذلك، حتى صارت العقبى لهم، بنصرهم وإنجائهم، وإهلاك

المكذبين لهم، وبيان أن هذه سنته في السابقين؛ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧]، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، تجاه ما يلقى من أذى قومه، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين له.

وابتدأ بذكر قصة موسى وأخيه- والله أعلم- لمعرفة العرب بكتابهم، ووجود بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق.

﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، أي: آتينا موسى أصلًا وهارون تبعًا ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، أي: الكتاب العظيم «التوراة» التي فيها الفرق بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والعدل والجور.

﴿وَضِيَآءً﴾، أي: وهدى ونورًا يهتدى به في معرفة الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، ومحاربة الجهل والبدع والخرافات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَذِكۡرًا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: تذكيرًا وموعظة لهم، يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيجتنبونه، وخصهم؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك علمًا وعملًا.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية، تفسير للمتقين، أي: الذين يخافون ربهم ويؤمنون به، وهو غيب لأنهم يرونه؛ كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

ويخشونه ويخافونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، وفي هذا امتداح لهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على «يخشون» من

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب عطف الصفات، أي: وهم من القيامة وأهوالها وعذابها خائفون؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

فجمعوا لكمال معرفتهم بربهم وعظمته بين الإحسان بتقواه وخشيته، والخوف من الساعة والاستعداد لها.

﴿وَهَٰذَا﴾، أي: وهذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، أي: تذكير وموعظة وشرف ورفعة.

﴿مُّبَارَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير والنفع؛ لاشتماله على مصالح الدين والدنيا والآخرة، به السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ من عندنا.

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما؛ لأن كتابيهما أفضل كتب الله، وشريعتيهما أعظم وأوسع الشرائع، ومحمد ﷺ أفضل ذوي العزم من الرسل، وموسى عليه الصلاة والسلام ثالثهم.

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفأنتم لهذا القرآن العظيم الذي هو غاية في الجلاء والظهور، المبارك الذي منَّ الله بإنزاله على هذه الأمة ﴿مُنكِرُونَ﴾، أي: جاحدون له مكذبون به.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ

ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

قوله: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾، أي: أعطيناه الهداية والنبوة، ووفقناه للحق والتوحيد الخالص، وخصصناه بالخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة.

﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل أن نؤتي موسى وهارون الفرقان، أي: من قبل نزول التوراة. وقيل: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل لذلك لزكائه وذكائه، وسلامة قلبه، ونقاء سريرته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾، أي: إذ قال لأبيه «آزر» وقومه المشركين: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الاستفهام للتحقير، والإنكار عليهم، والتوبيخ لهم.

و«التماثيل»: جمع «تمثال»، وهي الأصنام التي صنعوها ومثلوها ونحتوها بأيديهم على صور بعض المخلوقات، ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، أي: عليها عاكفون، أي: مقيمون على عبادتها، ملازمون لها.

﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، أي: وجدنا آباءنا وأجدادنا لهذه التماثيل عابدين، فنحن نعكف عليها ونعبدها مثلهم، فلم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضُّلال، يقلدونهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤﴾، أي: والله لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، أي: ضلال بين واضح، في عكوفكم على التماثيل، وعبادتكم الأصنام، وإشراككم بالله؛ إذ لا ضلال أشد وأعظم من الشرك بالله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: قالوا على وجه الاستغراب: أجئتنا بما هو الحق؟

﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة حرف عطف، أي: أم أنت من اللاعبين، أي: كلامك كلام لاعب مستهزئ، لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل ربكم الذي لا إله غيره هو رب السموات والأرض.

﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، أي: خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، وهو المستحق للعبادة وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: وأنا على وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته من الشاهدين، أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لما بين لهم ضلالهم في عبادتهم ما لا يملك من التدبير شيئًا، أراد أن يريهم بالفعل عجزها؛ ليحصل إقرارهم بذلك.

قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، والتاء: للقسم، واللام في قوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، و«الكيد»: التحيل والمكر والتدبير بخُفْية لإلحاق الضرر، أي: لأحتالن لإلحاق الضرر والأذى بأصنامكم وتكسيرها بخفية.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾، أي: بعد انصرافهم إلى عيدهم مباشرة، وكان لهم عيد يخرجون إليه.

وفي هذا تأكيد منه على عزمه على فعل ذلك، مبادرة منه إلى إنكار المنكر.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ قرأ الكسائي: «جِذَاذًا» بكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿جُذَٰذًا﴾ بضمها، أي: فجعل أصنامهم جذاذًا، أي: حطامًا وقطعًا صغيرة، وكسرها كلها.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ «إلا»: أداة استثناء، «كبيرًا»: منصوب على الاستثناء، أي: إلا الصنم الكبير عندهم.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لعل قومه إلى هذا الصنم الكبير يرجعون، أي: إن إبراهيم ترك تكسير صنمهم الكبير؛ لأجل أن يرجعوا إلى هذا الصنم فيعتقدوا أنه هو الذي غار لنفسه، ويحتمل أن الضمير في «إليه» يعود إلى إبراهيم عليه السلام، أي: لعل قومه يرجعون إليه ويستمعون له، ويلتفتون إليه، ولا يعرضون عنه.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾، أي: من الذي فعل هذا الفعل بآلهتنا فكسرها، وجعلها جذاذًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٩٣ – ٩٤].

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذي فعل هذا لمن الظالمين غاية الظلم.

﴿قَالُواْ﴾، أي: قال من سمع إبراهيم يقول: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الآية [الأنبياء: ٥٧].

﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، أي: سمعنا شابًّا يعيبهم ويذمهم ويتوعد بكيدهم.

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: يسمى إبراهيم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: بمرأى من الناس ومسمع، وعلى رؤوس الأشهاد، وبحضرة الناس كلهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يحضروا ويشهدوا عليه وعلى ما يقول، ويشهدوا ما يصنع به.

ويا سبحان الله! فما دعوا إليه من هذا المجمع الكبير والإتيان به عليه السلام، ليشهدوا الناس عليه، هو الذي أراده إبراهيم؛ ليكون بيان الحق بمشهد من الناس؛ وتقوم عليهم الحجة، ويظهر جهلهم وسفه عقولهم في عبادة ما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ كما قال موسى حين واعد فرعون وملأه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

﴿قَالُوٓاْ﴾ حين حضر الناس، وأتوا بإبراهيم: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، أي: أأنت فعلت هذا التكسير بآلهتنا يا إبراهيم؟ والاستفهام فيه معنى التقرير، أي: هل أنت الذي فعلت هذا الفعل؟ وما الذي جرّأك على ذلك؟

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ بل: للإبطال ونفي أن يكون هو الفاعل لذلك، أي:

الذي فعل ذلك هو ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، أي: كبير آلهتهم؛ يعني: الصنم الذي تركه فلم يُكسِّره بقصد إلزامهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، أي: فاسألوا هذه الآلهة من فعل هذا بهم ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؟ ومراده عليه السلام بهذا: أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون.

قال ابن القيم: يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار معه فكسرها.

فغرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام: إقامة الحجة عليهم؛ لأنه قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ هذا على سبيل الاستهزاء بهم، وهذا من رموز الكلام، والقصد فيه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها، على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة، وتبكيتهم والاستهزاء بهم»[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾. قال وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلًا، فأتى الجبار رجل فقال: إنه نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة معك؟ قال: هي أختي، قال: فاذهب، فأرسل بها إليَّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الرجل سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت فرآها أهوى إليها فتناولها، فأُخذ أخذًا شديدًا. قال: ادعِي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأُرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة فأُخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال ادعي الله، فلا أضرك، فدعت له فأُرسل، ثم دعا أدنى حجابه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته قال: مهيم[(٢)]؟**

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٨).

(٢) أي: ما شأنك وما خبرك؟

قالت: كف الله كيد الكافر والفاجر، وأخدمني هاجر»[1].

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدث بهذا الحديث قال: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء»[2].

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾.

قوله: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: فرجعوا وعادوا إلى أنفسهم بالملامة، أي: رجع كل منهم إلى نفسه، ورجع بعضهم إلى بعض، وأقبل بعضهم على خطاب بعض.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾، أي: فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجملة مؤكدة بـ«إن»، وبضمير الفصل «أنتم»، وبكونها جملة اسمية معرفة الطرفين، تفيد الحصر، أي: إنكم أنتم الظالمون في اتهامكم لإبراهيم بتكسيرها قبل أن نسألها عمن فعل بها ذلك، ويظهر أن الذي فعله كبيرهم.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: ثم رجعوا إلى عنادهم وضلالهم، فبعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم رجعوا إلى المكابرة لما غلبوا، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، أي: فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا لا ينطقون، وأنت تعلم أنهم لا ينطقون؟ أتتهكم وتستهزئ بنا؟

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: لما اعترفوا أن هؤلاء الآلهة لا ينطقون أنكر عليهم عبادتهم، وهم في هذه الحالة من الضعف، فقال: أفتعبدون غير الله ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾، أي: الذي لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ ٣٣٥٨، ومسلم في الفضائل، فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٢٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وقول أبي هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء» يعني: العرب؛ لخلوص نسبهم وصفائه، وقيل: لأنهم أصحاب مواشٍ، وعيشهم على المرعى والخصب، وما ينبت بماء السماء.

و«شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: الذي لا يقدر على جلب أيِّ نفع لكم، ولا دفع أي ضر عنكم.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قبحًا لكم وللذي تعبدون غير الله، وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: «من دونه»؛ لتعظيمه عز وجل، وزيادة البيان، وتشنيع عبادة غيره.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم وتعلمون ما أنتم عليه من الضلال والكفر في عبادتكم ما لا ينفع ولا يضر؟!

وبهذا أقام عليه السلام عليهم الحجة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾.

لما غلبهم بالحجة القاهرة، وظهر الحق، وبان عجزهم وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، لجؤوا إلى معاقبته بالقوة، فقالوا:

﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: حرقوه بالنار، والتحريق: المبالغة في الحرق، واختاروا التحريق للنكاية به؛ لأن التحريق أشد ما يعاقب به وأفظع وأهول.

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: وانتصروا لآلهتكم، بإحراق من اعتدى عليها وكسرها وأهانها، بقتله أشنع قتلة؛ غضبًا لآلهتكم وانتصارًا لها.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ تحريض وتلهيب لحميتهم، أي: إن كنتم فاعلين الانتصار لها فنفذوا ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾، أي: قلنا للنار وأمرناها أمرًا كونيًّا أن تكون بردًا فتنقلب حرارتها برودة ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بحيث لا يؤذيه بردها.

قال المفسرون: لو لم يقل الله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذاه بردها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:

١٧٣]»(١).

قال بعض السلف: «عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى»(٢).

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ حيث عزموا على إحراقه ودبروا ذلك بخفية.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ «الأخسرين»: جمع «أخسر»: اسم تفضيل يفيد القصر والمبالغة، أي: فصيرناهم الأخسرين الخائبين المغلوبين، الذين بلغوا الغاية في الخسران، وخاب مسعاهم، فخسارتهم لا تدانيها خسارة، فكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين، فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾.

قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ ونجينا إبراهيم عليه السلام نجاة ثانية بعد أن نجيناه من النار.

﴿وَلُوطًا﴾، أي: ونجينا لوطًا مع إبراهيم؛ لأنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، وهو ابن أخيه هارون بن آزر، قال تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: بخروجهما من بين ظهراني أعدائهم الكفار من «بابل» في أرض العراق، وهجرتهما من دار الكفر والشرك، ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: إلى بلاد الشام والأرض المقدسة ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ بكونها مهد كثير من الرسالات، وفيها بيت المقدس ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وبخصب أرضها، وطيب مائها، واعتدال جوها،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٦٣.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٤٥.

وكثرة خيراتها، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾، أي: وهبنا له ابنه إسحاق بعد اعتزاله قومه، وبعد دعوته: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، وذلك بعدما كبر وكانت امرأته عاقرًا، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]، وقد وهبه الله إسماعيل قبل ذلك؛ كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، أي: ووهبنا له يعقوب بن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة عما سأل، وعطية وفضلًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾، أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلنا صالحين؛ مخلصين العمل لله تعالى، متبعين لشرعه، قائمين بحقوقه وحقوق عباده.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في الخير والصلاح، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠].

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يهدون الناس، ويدعونهم إلى الحق، ويدلونهم على الخير.

﴿بِأَمْرِنَا﴾، أي: بأمرنا وإذننا الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: وأوحينا إليهم وألهمناهم فعل الخيرات عمومًا، ووفقناهم إلى ذلك، من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وإقام الصلاة إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى، وإعطاء الزكاة من المال لمستحقيها، وخص الصلاة والزكاة، لعظم مكانتهما في الشرع، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وفيها تمام الإحسان في عبادة الله تعالى، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفيها تمام الإحسان إلى عباد الله.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: مديمين على عبادة الله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَلُوطًا﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، أي: واذكر نبينا ورسولنا لوطًا، وهو: لوط بن هارون بن آزر.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، أي: أعطيناه بالنبوة حكمًا بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلمًا بالشريعة.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، أي: وخلصناه من القرية التي كانت تعمل الأعمال الخبيثة وفاحشة اللواط، وهي قرية «سدوم» الذين بعثه الله إليهم فكذبوه وخالفوه، فأهلكهم الله وجعل عالي ديارهم سافلها، وأتبعها بالحجارة.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ الجملة: مستأنفة بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم كانوا قوم سوء خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ بالتوفيق والنصر والتأييد والثناء الحسن في الدنيا، وبدخول الجنة في الآخرة.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة: تعليلية، أي: لأنه من الصالحين الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

والصلاح من أعظم الأسباب للدخول في رحمة الله وجنته، وهو من أخص أوصاف الأنبياء عليهم السلام؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾.

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، أي: واذكر نبينا ورسولنا نوحًا ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل من ذكر من الرسل؛ لأنه كان أول الرسل، أي: حين دعا على قومه لما كذبوه، فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: فخلصناه ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ وهم أهل بيته عدا أحد ابنيه، وهو الذي كفر به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: من كرب الطوفان العظيم.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: ومنعناه وحميناه منهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾ [المؤمنون: ٦٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾، أي: أهل كفر وفساد، وتكبر وعناد.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: فأهلكناهم بالغرق بالطوفان كلهم جميعًا، فلم نبق منهم على وجه الأرض أحدًا.

وهكذا عاقبة الكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله، وفي هذا تهديد لكفار قريش وغيرهم من المكذبين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع أممهم، وما لقوه منهم من أذى، ومن ثم نصر الله تعالى لرسله وإنجاؤهم، وإهلاك أعدائهم المكذبين، تسلية للنبي ﷺ وتقوية لقلبه، وتحذيرًا وتهديدًا للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام وإيتائهما التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

٣- ثناء الله عز وجل على التوراة وامتداحه لها؛ لعظم مكانتها، فهي أفضل كتب

الله عز وجل بعد القرآن الكريم، فيها بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وهي ضياء ونور، وتذكير وموعظة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤- أنه إنما يتذكر وينتفع بكتب الله تعالى ووحيه إلى رسله المتقين الذين يخشون ربهم، وهو غيب لم يروه، وحال غيبتهم عن أعين الناس، مع إشفاقهم من الساعة واستعدادهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

٥- ثناء الله عز وجل على المتقين، وامتداحه لهم بخشيتهم له بالغيب، وهم لم يروه، وهذه درجة الإحسان، وخشيتهم له أيضًا حال غيبتهم عن الناس، فلا يراؤون الناس بأعمالهم، وإنما يراقبون الله وحده، مع إشفاقهم وخوفهم من الساعة وأهوالها.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُم﴾.

٧- إثبات الساعة والقيامة، وأهوالها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٨- ينبغي أن يجمع العبد بين تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبين خشيته وخوفه ورجائه، فلا يُدل على الله بعمله.

٩- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بشأنه، وامتداحه بكونه تذكيراً وموعظة، كثير النفع والخير، والامتنان بإنزاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

١٠- الجمع بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما هنا وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ لأن كتابيهما أفضل كتب الله، فالقرآن أفضل كتب الله على الإطلاق، وبعده التوراة، ولأن شريعتيهما أعظم وأوسع الشرائع.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق، علو الذات وعلو الصفات.

١٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾.

١٣- الإنكار والتقريع والتوبيخ لمن أنكروا القرآن، وما فيه من الذكر والبركة، وكذبوه، وهو منزل من عند الله، وفي غاية الجلاء والوضوح؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ

مُنكِرُونَ﴾.

١٤- التنويه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وأن الله أعطاه رشده وهداه، وآتاه النبوة والرسالة، وخصه بالخلة، واصطفاه في الدنيا والآخرة قبل إيتاء موسى وهارون الفرقان؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

١٥- علم الله التام بأن إبراهيم عليه السلام أهل لما أعطاه الله عز وجل من الرشد والاصطفاء والهدى، والنبوة والرسالة، وبما خصه به من الخلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

١٦- إنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه عكوفهم على التماثيل وعبادة الأصنام، وتحقيره لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

١٧- أنه لم يكن لهم حجة أو دليل إلا التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

١٨- بيان إبراهيم لهم أنهم هم وآباؤهم في عكوفهم على هذه التماثيل في ضلال بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

١٩- استغرابهم، بل وإنكارهم أن يكون ما جاءهم به حق، واستهزاؤهم به عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾؟

٢٠- إثبات إبراهيم وبيانه لهم أن ربهم وإلههم الذي يجب أن يعبدوه وحده هو رب السموات والأرض، هذه المخلوقات العظيمة، الذي خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وشهادته عليه السلام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾.

٢٢- تهديده عليه السلام لهم بالكيد لأصنامهم؛ مبادرة لإنكار المنكر؛ وليظهر لهم مدى ضعفها، وأنها لا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عنهم أو تنفعهم؟! لقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾.

٢٣- تكسيره عليه السلام لأصنامهم كلها ما عدا الكبير منها؛ لأجل أن يرجعوا إليه فيظنوا أنه هو الذي كسر أصنامهم الصغيرة غيرة وغضبًا أن تعبد معه، أو لأجل أن يرجعوا إليه عليه السلام، ويستملوا له ويستمعوا إليه ولا يعرضوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾.

٢٤- استفهامهم إنكارًا لمن فعل هذا الفعل بآلهتهم، وأنه من الظالمين غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾.

٢٥- توجس بعضهم أنه إبراهيم لسماعهم قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾.

٢٦- أمرهم بالإتيان به عليه السلام بمرأى من الناس ومسمع وعلى رؤوس الأشهاد؛ ليشهدوا عليه وعلى ما يقول ويشهدوا ما يصنع به، ولله الحكمة البالغة، فهم بهذا العمل يمهدون لإبراهيم؛ ليقيم عليهم الحجة في هذا المجمع العظيم الذي لو أراد هو جمعهم لما استطاع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾.

٢٧- استفهامهم منه عليه السلام: أهو الذي فعل هذا بآلهتهم؟ وإجابته بإبطال ذلك ونفيه، وأن الذي فعله كبيرهم، فليسألوهم إن كانوا ينطقون، وفي هذا تبكيت لهم، واستهزاء وتهكم بهم، وتدرج لإبطال آلهتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾.

٢٨- رجوعهم إلى أنفسهم بالملامة، وأنهم هم الظالمون باتهامهم إبراهيم بتكسيرها قبل أن يسألوها عمن فعل بها ذلك، مستظهرين في هذه الحال أن الذي فعله كبيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤﴾.

٢٩- انتكاسهم إلى العناد والمكابرة لما غلبوا في الحجة، واحتجاجهم على إبراهيم بما هو حجة له عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾.

٣٠- تدرجه عليه السلام معهم ووصوله بهم إلى إقرارهم واعترافهم بضعف آلهتهم، وأنها لا تنطق، ولا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عن غيرها أو تنفعهم؟! ولهذا

أكد الإنكار عليهم والتقريع والتوبيخ لهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

٣١- تقبيح حالهم ومعبوداتهم من دون الله؛ لقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾.

٣٢- تسفيه عقولهم، والإنكار عليهم في عدم الانتفاع بها؛ إذ كيف يعبدون من دون الله أحجارًا لا تنطق، ولا تنفع ولا تدفع، ولا تملك من الأمر شيئًا؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣٣- أن من لم يهده عقله إلى معرفة الله وتوحيده في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب لله فليس بعاقل، ولو بلغ من الدنيا مبلغه.

٣٤- لجوء قومه عليه السلام إلى أخذه بالقوة، لما غلبهم بالحجة الظاهرة، وبان عجزهم وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وهذا ديدن المكذبين للرسل وللدعاة إلى الله تعالى، عندما تبطل حجتهم يسلكون طريق التهديد بالقوة؛ كما بين ذلك القرآن في مواضع كثيرة.

٣٥- تواصيهم بالنكاية به، وقتله أشنع قتلة، بتحريقه انتصارًا لآلهتهم، وتحريض بعضهم لبعض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾.

٣٦- أمره عز وجل الكوني للنار أن تكون بردًا على إبراهيم فلا يضره حرها، وسلامًا فلا يؤذيه بردها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٣٧- قدرة الله تعالى التامة التي لا يستحيل أمامها أي شيء حتى لو كان مخالفًا للقوانين الكونية، فالنار طبيعتها الإحراق، فجعلها عز وجل بردًا وسلامًا على إبراهيم.

٣٨- عناية الله تعالى بخليله إبراهيم وحفظه ووقايته له، وإنجاؤه وتسليمه من النار.

٣٩- رد كيد قومه ومكرهم، وخيبة مسعاهم، وجعلهم الأخسرين المغلوبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

٤٠- إنجاء الله عز وجل له عليه السلام نجاة ثانية بعد إنجائه له من النار، وذلك بخروجه من بين ظهراني قومه المشركين، هو ولوط عليهما السلام، وهجرتهما من دار الكفر والشرك إلى الأرض المقدسة المباركة، أرض الشام وفلسطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

٤١- فضل الله عز وجل على لوط عليه السلام بإنجائه وهجرته مع إبراهيم عليهما السلام إلى الأرض المقدسة.

٤٢- أن الهجرة من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام مشروعة في الشرائع السابقة، ويقال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من هاجر؛ كما قال عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، أي: مهاجر إلى ربي.

٤٣- مباركة الله تعالى في أرض الشام، فهي تحتضن المسجد الأقصى المبارك، ومهبط كثير من النبوات والرسالات، وخصب أرضها وكثرة خيراتها.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام- بعد هجرته للأرض المباركة- ابنه إسحاق، إجابة لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، وهبته «يعقوب» ابن ابنه إسحاق نافلة زيادة وفضلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

٤٥- امتنان الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وآل إبراهيم، وثناؤه عليهم وتفضيلهم، بجعلهم صالحين، مخلصين العمل له، متبعين لشرعه، وأئمة يدعون الناس ويرشدونهم بأمره، وتوفيقهم وإلهامهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة والمداومة على عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

٤٦- الترغيب في الصلاح، والدعوة إلى الله، وفعل الخيرات، وإقام الصلاة، والمداومة على عبادة الله، والإمامة في الخير؛ لامتداح المتصفين بهذه الصفات والثناء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]؛ ولهذا قال عباد الرحمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٤٧- فضيلة الصلاة والزكاة؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات، فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، وقدم الصلاة؛ لأنها أفضل العبادات على الإطلاق بعد الشهادتين.

٤٨- منة الله تعالى على لوط عليه السلام بإيتائه بالنبوة حكمًا بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلمًا بالشريعة، وإنجائه من القرية التي تعمل الخبائث،

وبإخراجه من بين قومه قوم السوء الفاسقين قبل إهلاكهم، وإدخاله في رحمة الله تعالى إنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤ - ٧٥].

٤٩- الحذر من عمل الخبائث والفواحش، وارتكاب فاحشة اللواط والأعمال السيئة والفسق.

٥٠- إثبات رحمة الله تعالى الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها ويشمل بها من يشاء من عباده.

٥١- التذكير بمنة الله عز وجل على نوح عليه السلام أول الرسل باستجابة دعائه، وإنجائه من كرب الطوفان العظيم، ونصره على المكذبين بآيات الله قوم السوء وإغراقهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٥٢- ذم قوم لوط بأنهم قوم سوء فاسقين؛ لكفرهم وتكذيبهم لوط وفعل فاحشة اللواط، وذم قوم نوح بأنهم قوم سوء؛ لكفرهم وشركهم وتكذيبهم نوحًا، وشدة عنادهم واستكبارهم.

٥٣- صدق الله عز وجل وعده رسله، وسنته الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، في إنجاء رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)﴾.

قوله: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الواو: استئنافية، و«داود»: منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد داود وسليمان، والمراد بهما: داود وسليمان النبيَّان عليهما الصلاة والسلام؛ داود بن يسي من سبط يهوذا، وهو الذي آتاه الله «الزبور».

كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء: ١٦٣].

وابنه سليمان، الذي وهبه الله له، وورثه، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾ [ص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦].

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» أي: حين حكم كل منهما على انفراده في الحرث، بما رآه وفهمه، حسب اجتهاده، بحكم مخالف لحكم الآخر.

و﴿الْحَرْثِ﴾ النبات والزرع، سُمي بذلك؛ لأن الأرض تحرث، ويوضع فيها النبات. والحرث المذكور كان عنباً. وقيل: كان زرعاً.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: حين نفشت فيه غنم القوم، أي: انتشرت فيه ورعته ليلاً بلا راع وأفسدته.

والنَّفَشُ- بفتح الفاء-: الغنم المنتشرة، والرعي بالليل. والهمل: الرعي بالنهار، والنفش يلزم صاحبه ضمان ما أتلفته ماشيته.

عن حرام بن محيِّصة عن أبيه- رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل، فأفسدته عليهم، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار،

وعلى أهل المواشي حفظها بالليل، وما أفسدته بالليل فهو ضامن على أهلها»[١].

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ الواو: حالية. وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود وسليمان، وجمع الضمير وهما اثنان؛ لأن الجمع يطلق على الاثنين، وهما أقل الجمع، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فجمع القلوب مع أن المخاطب اثنتان عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد أخوان فأكثر.

وقيل: جمع الضمير في قوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ باعتبار داود وسليمان والمتحاكمين إليهما.

﴿شَٰهِدِينَ﴾ أي: عالمين به، مطلعين عليه؛ لأنه- عز وجل- مطلع وشهيد، ورقيب على جميع الخلق وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: ففهمنا القضية والحكومة سليمان- عليه السلام- فحكم فيها بما وافق الحق والصواب.

ويفهم من قوله- عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أن داود- عليه السلام- لم يُفهم الحكومة فيها، ولم يوفق فيها للصواب، وأن حكمهما فيها كان باجتهاد منهما.

وقيل: إن كلاً منهما مصيب، لكن حكم سليمان كان أصوب. كما قيل: إن حكمهما كان بوحي.

والفهم: منحة من الله- عز وجل- ونور يقذفه في قلب من شاء من عباده، به يستطيع الاستنباط من النصوص، وفهمها فهماً صحيحاً، كما قال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- لما سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ قال: «لا والذي

---

(١) أخرجه أبوداود في البيوع- المواشي تفسد زرع قوم (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، وابن ماجه في الأحكام – الحكم فيما أفسدت المواشي (٢٣٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٣٥- ٤٣٦).

فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر»(١).

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أدلي إليك»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه».

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: «كرم أنبتت عنا قيده، فأفسدته- قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، وتدفع الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾»(٤).

ورُوِيَ عن ابن عباس نحوه(٥) وهكذا رُوي عن جمع من التابعين(٦).

قال ابن القيم(٧): «فحكم داود بقيمة المتلف، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم، أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة.

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٩٠٣)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٤)، والترمذي في الديات (١٤١٢)- من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه- أنه سأل عليًّا- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) وما بعدها.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٢)، والحاكم (٢/ ٥٨٨)، والبيهقي (١٠/ ١١٨).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٣- ٣٢٨).

(٧) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٩).

يعمروا البستان كما كان، ولم يضيع عليهم مغلَّه من حين الإتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين، فوجدهما سواء. وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه».

ولما تبين لداود- عليه السلام- إصابة سليمان الحق رجع إلى حكم سليمان- عليه السلام- وقد قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[(١)].

والأنبياء- عليهم السلام- ليسوا بمعصومين من الخطأ في الصغائر على الصحيح من أقوال أهل العلم كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[(٢)]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه، فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار**»[(٣)].

وما قضى به داود وسليمان- عليهما السلام- من تضمين أصحاب الغنم ما أفسدته بالليل موافق لما جاء في شرعنا، كما في حديث حرام بن محيِّصة- رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها»[(٤)].

وهكذا قضى شريح القاضي- رحمه الله- بين رجلين جاءا إليه، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥- ٨٦).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٣)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) سبق تخريجه.

﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: كان النفش ليلاً»[1].

ومثل هذه الآية في الدلالة على فهم سليمان- عليه السلام- في الحكم والقضاء ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه. فقضى به للصغرى**»[2].

والذم والوعيد إنما هو لمن قضى على جهل، وبلا علم، كما في حديث سليمان بن بريدة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار**»[3].

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ أي: وكلاً من داود وسليمان آتيناه ﴿حُكْمًا﴾ أي: حكماً وفصلاً في المسائل والقضايا، وفي الاختلاف بين الناس، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَعِلْمًا﴾ أي: وآتيناهما علماً، وأعظم ذلك وأجله علم النبوة، به يتمكنان من الحكم بين الناس وتعليمهم أمر دينهم ودنياهم، فخص عز وجل سليمان- عليه السلام- بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وأثنى على داود وسليمان بالحكم والعلم.

وقد استدل بهذا الاحتراز من قال: إن كلاً منهما مصيب لكن حكم سليمان- عليه السلام- أصوب.

ومهما يكن فليس في حكم داود- عليه السلام- ما يعاب عليه لأنه اجتهد، والحاكم إذا كان ممن له الاجتهاد، أي ممن يملك أدوات الاجتهاد- إذا اجتهد فأصاب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٢٥)، من رواية عامر الشعبي رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩)، ومسلم في الأقضية (١٧٢٠)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٢)، وأحمد (٢/ ٣٢٢، ٣٤٠).

(٣) أخرجه أبوداود في الأقضية- باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥).

فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر.

عن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**»(١).

قال الحسن: «لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا، لكن الله- تعالى- حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده»(٢).

وليس في الآية دلالة على أن كل مجتهد مصيب، بل فيها أن الذي فهم القضية هو سليمان- عليه السلام- دون داود، لكن ليس فيها تأثيم داود- عليه السلام، بل فيها الاحتراز من ذلك؛ لأنه اجتهد، فهو مأجور باجتهاده، غير آثم في خطئه.

وعلى هذا دل قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**».

ومثل هذا يقال في فعل الصحابة- رضي الله عنهم- لما قال لهم النبي ﷺ: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، فمنهم من صلى العصر في الطريق لما دخل وقتها، ومنهم من أخَّرها فلم يصلها إلا في بني قريظة بعد المغرب وفوات وقتها(٣)، فكل منهم مجتهد، ولهذا لم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم، وإن كان المصيب من صلى العصر في وقتها.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وذللنا مع داود الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لـ«سخرنا» أو حال مبينة، أي: حال كونهن يسبحن.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الواو بمعنى: «مع» أي مع الطير، أي: وذللنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام- أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية- بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦)، وأبوداود في الأقضية (٣٥٧٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٨- ١١٩)، وانظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، أي: رجِّعي ورددي معه التسبيح.

وقدّم الجبال على الطير- والله أعلم؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

والمعنى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن، لكنه لو جاء هكذا لربما أفهم أن التسبيح فقط من الطير وحدها.

قال ابن كثير[(١)] في كلامه على الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾: «وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب فوقف واستمع لقراءته، وقال: «**لقد أوتي هذا من مزامير آل داود**»، قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيراً[(٢)]. وفي رواية: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[(٣)].

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره وتهليله وتحميده وتكبيره وعبادته، والانقياد له، والدلالة على وجوده، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن كل كمال فهو أولى به، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

فالجبال والطير تسبح الله- عز وجل- مع داود- عليه السلام، وكذا جميع المخلوقات تسبِّح الله- عز وجل- حقيقة وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح؛ كما قال- عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٢).

(٢) التحبير: التحسين، أي: لحسَّنته لك تحسيناً.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم في المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي في المناقب، مناقب أبي موسى الأشعري (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، حسن الصوت بالقرآن (١٣٤١)، وأحمد (٢/ ٣٦٩، ٤٥٠)؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ توكيد لما قبله، أي: فاعلين ما قضيناه وأردناه وقادرين عليه؛ من تفهيم سليمان، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير يسبحن مع داود، وغير ذلك- مع ما في ذلك من الأمر العجب الدال على كمال قدرة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ اللبوس: اللباس، يقال: البس لكل حالة لبوسها، فلحال السلم لبوسها، ولحال الحرب لبوسها، أي: وعلمنا داود عليه السلام صنع لباس لكم حال الحرب، وهي الدروع، وهي السابغات؛ كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال كعب بن زهير[(١)]:

شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق الأكفاء مجدول

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قرأ أبوجعفر وابن عامر وحفص: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء على التأنيث، أي: لتحصنكم صنعة اللبوس، وفي رواية أبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب (لنحصنكم) بالنون، فيعود الضمير إلى الله- عز وجل.

وقرأ الباقون (ليحصنكم) بالياء، أي: ليحصنكم اللبوس أو داود- عليه السلام.

والإحصان لغة: المنع، والتحصن: الامتناع، ومنه سمي «الحصن» لأنه يُمتنع به من الأعداء، وسمي «الحصان» لأن صاحبه يركبه ويمتنع به.

والبأس: الشدة والقوة والقتال، قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٦٥]،

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٤١).

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٨].

ومعنى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتمنعكم وتحميكم من ضرب السيوف والسهام والسنان وغير ذلك حال القتال والنزال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل»: للاستفهام، ومعناه الأمر، أي: فاشكروا نعمة الله عليكم لما مَنَّ به عليكم من تعليم داود- عليه السلام- صنعة هذه اللبوس والدروع لتتحصنوا بها حال القتال، وغير ذلك من نعمه عليكم، والشكر يكون بنسبة النعم إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته، واحترامها وعدم إهانتها.

وضد ذلك كفران النعم بحيث تستعمل في معصية الله أو يستعان بها على ذلك، أو تنسب لغيره- عز وجل، أو تهان ولا تحترم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١]، وفي مجيء الأمر بالشكر على صيغة الاستفهام تشويق لامتثال الأمر، وتحبيبه إلى النفوس، وتلطف معها في الطلب في عدم مقابلتها بالأمر الذي قد يثقل على بعض النفوس.

كما أن فيه إشارة إلى قلة الشاكرين، وضعف الشكر عند الكثير منهم؛ كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ الواو: عاطفة، أي: وسخرنا لسليمان الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

ومعنى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب، وهي تحت أمره- عليه السلام، فإن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، تتجه وتسير حيث أراد من البلاد، كما قال

تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦].

والريح: هي نسيم الهواء، وهي مخلوق لطيف شفاف لا يرى، وإنما يُحس به من خلال تحريكه للأشياء.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: تسير بأمر سليمان عليه السلام، وتتجه حيث أمرها، وحيث شاء.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام المباركة التي بارك الله فيها، أي: جعلها كثيرة الخير والبركة، ومهبط كثير من الرسالات، ومبعث كثير من الرسل، منهم داود وسليمان وموسى وعيسى بن مريم- عليهم السلام- وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

قال الطبري[1]: «﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾».

وقال ابن كثير[2]: «وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه».

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء، صغيراً كان أو كبيراً، خفياً أو جلياً ﴿عَٰلِمِينَ﴾ لا يخفى علينا منه شيء.

أي: فسخرنا مع داود الجبال والطير، وعلمناه صنعة الدروع، وسخرنا لسليمان الريح، كل ذلك وغيره بعلم منا، كما علِمنا أن تسخيرنا لداود وسليمان ما ذكر مما يزيدهما خضوعاً لله- عز وجل- وتعظيماً له، وتذللاً بين يديه.

---

(١) في «جامع البيان» (١٦/ ٣٣١).

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا أيضاً لسليمان مِن الشياطين مَن يغوصون له.

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن، أي: بعد عن رحمة الله- عز وجل- وعن كل خير، وهو كل متمرد عات خارج عن طاعة الله- عز وجل- من الإنس والجن والحيوان، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «**الكلب الأسود شيطان**»(١).

والغوص: النزول تحت الماء، أي: يغوصون له في أعماق البحار.

والمراد بالشياطين هنا شياطين الجن وعفاريتهم سخرهم الله- عز وجل- لسليمان- عليه السلام، يغوصون له في الماء وفي أعماق البحار، يستخرجون منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان والمحّار وأنواع الحلية، وغير ذلك، فسخرهم الله- عز وجل- له، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: دون الغوص، كالبنيان، والمحاريب والتماثيل، والجفان، والقدور، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٣، ١٤].

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: حافظين لأعدادهم وأعمالهم فلا يخرجون عن أمره، ولا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل هم مسخرون له وتحت أمره وقهره، يطلق

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة- قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبوداود في الصلاة- ما يقطع الصلاة (٧٠٢)- من حديث أبي ذر- رضي الله عنه.

من شاء منهم في العمل ويحبس من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بما حصل من سليمان وداود- عليهما الصلاة والسلام- في هذه الواقعة لأخذ العبرة من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية.

٢- إثبات نبوة داود وسليمان- عليهما السلام.

٣- في ذكره ﷺ خبر داود وسليمان- عليهما السلام- أعظم دليل على صدق نبوته ﷺ.

٤- إطلاق الجمع على اثنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ والمراد حكم داود وسليمان.

٥- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ بضمير العظمة، وكذا ما بعده إلى آخر الآية- وهو العظيم- سبحانه وتعالى.

٦- سعة علم الله- عز وجل- واطلاعه على كل شيء، ومن ذلك حكم داود وسليمان- عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾.

٧- اختصاص الله- عز وجل- سليمان- عليه السلام- بتفهيمه الصواب في هذه القضية، وهو دفع الكرم إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم ليصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعه إلى صاحبه ودفع الغنم إلى صاحبها؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾.

وهذا موافق لما جاء في قضائه ﷺ كما في حديث حرام بن محيِّصة عن أبيه- رضي الله عنه- «أن على أهل المواشي ضمان ما أفسدته مواشيهم بالليل، وأن على أهل الحروث حفظها بالنهار»[1].

وهذا مخصص لعموم قوله ﷺ: «**العجماء جرحها جبار**»[2] أي: هدر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٩١٢)، ومسلم في الحدود (١٧١٠)، وأبوداود في الخراج (٣٠٨٥)،

وهذا قول جمهور أهل العلم، فما أتلفته المواشي بالليل يضمن بقيمته، وإن زادت على قيمة المواشي.

وقد قال بعض أهل العلم بضمان ما أتلفته المواشي بالنهار، كما قيل بعدم الضمان على أهل المواشي مطلقاً.

٨- جواز الاجتهاد للأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وغيرهم ممن هو أهل للاجتهاد.

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيباً، وفي الحديث: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[١].

لكن من اجتهد ممن له الاجتهاد فأخطأ فإنه لا يلام ولا يأثم؛ ولهذا قال ﷺ: «**وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار**»[٢].

١٠- جواز الخطأ والوقوع في الصغائر من الأنبياء- عليهم السلام، لكنهم لا يُقرون على ذلك، بل سرعان ما يتوبون من ذلك، وقيل بعدم جواز الخطأ عليهم وعصمتهم من الخطأ مطلقاً.

١١- وجوب رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان- عليهما السلام- لما تبين له أن حكم سليمان أحق وأصوب.

١٢- ثناء الله- عز وجل- على كل من داود وسليمان- عليهما السلام- والامتنان عليهما بما آتاهما عز وجل من الحكم والعلم، وأعظم ذلك علم النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

١٣- الاحتراز والإشارة إلى أنه ليس في حكم داود- عليه السلام- ما يعاب؛ لأن الله-

---

والنسائي في الزكاة (٢٤٩٥)، والترمذي في الزكاة (٦٤٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٧٣)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عز وجل- أثنى على سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ ولم يذم داود، بل أثنى عليهما معاً فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

١٤- امتنان الله- عز وجل- على داود- عليه السلام- بتسخير الجبال والطير يسبحن معه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾.

١٥- تسبيح الجماد والطير لله- عز وجل- وهكذا جميع المخلوقات؛ كما قال- عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٦- قدرة الله- عز وجل- التامة على فعل ما قضاه وأراده، من تفهيم سليمان الحكم في هذه القضية، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطير تسبح مع داود وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، كما قال تعالى: في وصف نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦].

١٧- فضل الله- عز وجل- على داود- عليه السلام- بتعليمه صنعة الدروع والسرابيل ليتحصن بها جنوده حال القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

١٨- وجوب شكر نعم الله بنسبتها إليه- عز وجل؛ والاستعانة بها على طاعته، والبعد عن معاصيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

١٩- أن التلطف في الخطاب- أحرى للقبول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، فجاء الخطاب بصيغة الاستفهام، والمراد الأمر، أي: اشكروا.

٢٠- امتنان الله- عز وجل- على سليمان- عليه السلام- بتسخير الريح له تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده ورجال مملكته وما أراد إلى الأرض المباركة، وإلى حيث شاء من أرجاء مملكته ذهاباً وإياباً، تارة تجري بعصف وشدة، وتارة بلين ورخاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٢١- مباركة الله- عز وجل- في أرض الشام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

٢٢- علم الله- عز وجل- الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

٢٣- تسخير الله- عز وجل- الشياطين لسليمان- عليه السلام، يغوصون له في أعماق البحار، يستخرجون ما فيها من الكنوز، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

٢٤- عظم قدرة الله- عز وجل- في تسخيره الريح، هذا المخلوق الخفيف اللطيف لحمل سليمان- عليه السلام- وما معه من المحمولات الثقيلة، وفي تسخيره مردة الجن لخدمته في الغوص والعمل.

٢٥- عظمة ملك سليمان- عليه السلام- وما أعطاه الله- عز وجل- من القوة ونفوذ السلطان وتسخير الريح له ومردة الجن.

٢٦- حفظ الله- عز وجل- لأعداد الشياطين وأعمالهم في مملكة سليمان فلا يخرجون عن أمره- عليه السلام، ولا يقدرون على الامتناع منه ومعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قوله: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب حين نادى ربه ودعاه، قائلًا: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، أي: أصابني الضر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١].

وذلك أن الله ابتلاه في ماله وولده وجسده، فقد كان ذا مال كثير من الأنعام والدواب والمواشي، وله أولاد كثيرون، ومنازل واسعة، وذا صحة وعافية في بدنه، فابتلي بذهاب ماله كله وولده، ثم ابتلي بالضر في جسده، يقال: أصيب بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله تعالى بهما، وتقزز من حالته الناس، فلا أحد يجالسه، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بحاجته، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس لأجله.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصف نفسه بما يقتضي شدة الحاجة إلى رحمة ربه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وفي هذا الثناء على ربه بعد وصف حاله من التعريض بعظيم حاجته إلى رحمة أرحم الراحمين ما يكفي عن التصريح؛ كما قيل:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء[1]

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه،

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت انظر: «ديوانه» (ص١٧).

ووجود طعم المحبة في التملق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات- ولاسيما مع هذه المعرفة- كشف الله ضره»(١).

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، أي: فأجبنا له دعاءه وتضرعه، والسين والتاء للمبالغة. وفي هذا دلالة على أنه في وصفه حاله، وثنائه على ربه، يعرض بسؤال رحمة ربه وكشف ضره؛ ولهذا قال:

﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ﴾، أي: أزلنا الذي بجسده ﴿مِن ضُرّٖۖ﴾، أي: من مرض وبلاء.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾، أي: وأعطيناه أهله، ورددناهم له، وجمعناه بهم في الجنة، ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾، أي: وآتيناه مثل أهله في الدنيا، أي: عوضناه عنهم في الدنيا أهلًا مثلهم، ويحتمل ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾، أي: آتيناه أجرهم في الآخرة.

وقال بعضهم: آتيناه أهله في الدنيا ومثلهم معهم.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «ألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءته امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبدالله، أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب! فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك، أنا أيوب!

قالت: أتسخر مني يا عبدالله؟ فقال: ويحك، أنا أيوب، قد رد الله علي جسدي!

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده عيانًا ومثلهم معهم»(٢).

﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أو مفعول مطلق، أي: رحمناه رحمة.

أي: رحمة من عندنا به، وفي هذا تعظيم لنفسه عز وجل ولرحمته بأيوب، وتنويه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٩- ١٩٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٥٦.

بشأنه عليه السلام، حيث صبر، فآتاه الله ثواب الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ معطوف على «رحمة»، أي: وعظة وعبرة وتذكيرًا ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يتذكرون بذلك ويتعظون ويعتبرون، فيعلمون أن الله يبتلي العبد- وإن كان من أهل الصلاح- ليزيده رفعة ومنزلة.

قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(١).

وذكرى للعابدين أيضًا: ليتأسوا به في الصبر على الضر والابتلاء، وليعلموا عناية الله تعالى بعباده، واستجابته لهم، إذا لجأوا إليه.

وخص العابدين؛ لأنهم هم الذين يتذكرون، وتنفعهم الذكرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥- ٨٦].

قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ﴾، أي: واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، أي: اذكرهم بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء؛ لكونهم من الصابرين، ولهذا قرن بينهم وبين أيوب عليه السلام؛ لكونهم مثالًا يحتذى في قوة الصبر وكماله.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، أكبر أولاد إبراهيم عليهما السلام، وكان من عظيم صبره عليه السلام أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، فرضي عليه السلام واستسلم لأمر الله تعالى متذرعًا بالصبر الجميل، قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأما إدريس فهو نبي الله تعالى، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦- ٥٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وأحمد ١/ ١٧١، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأما «ذو الكفل»: فهو نبي من أنبياء الله تعالى؛ ولهذا قرن مع إسماعيل وإدريس في هذه الآية، كما قرن مع إسماعيل واليسع في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨].

﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: كل من هؤلاء الثلاثة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الصبر.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ﴾ الخاصة، فآتيناهم النبوة، وهديناهم لخيري الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجملة تعليل لإدخالهم في رحمته عز وجل، أي: لأنهم من الصالحين، الذين أخلصوا لله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، واتبعوا شرعه.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، أي: صاحب النون، و«النون»: الحوت، وذو النون هو: يونس بن متى عليه السلام.

وقد ذكر الله قصته هنا وفي سورة الصافات، وفي سورة «ن».

وكان من قصته: أن الله بعثه إلى أهل نينوى، قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا، وتمادوا في كفرهم وكذبوه، فتوعدهم بالعذاب بعد ثلاث وخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، وذهب وركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ١٤٠ - ١٤١].

أي: وقعت عليه القرعة، فقام عليه السلام وتجرد من ثيابه وألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت.

أما قومه فإنه لما توعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وقد تحققوا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه فرفع عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، أي: حين ذهب مغاضبًا لقومه؛ لأنهم لم يؤمنوا به.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قرأ يعقوب بالياء المضمومة وفتح الدال: «يُقْدَرَ»، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وكسر الدال: ﴿نَّقْدِرَ﴾.

أي: فظن أن لن نضيق عليه في ذهابه وفي بطن الحوت، فمعنى ﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: نضيق عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال بعضهم: معنى ﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: لن نقدر ذلك عليه، فتكون من التقدير؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢]، أي: قد قدر، ومنه قول الشاعر:

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر[1]

ولا تعارض بين القولين، فالتضييق عليه وقع بقدر الله.

﴿فَنَادَىٰ﴾، أي: بعد أن التقمه الحوت، ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، أي: أنه لا إله للخلق ولا معبود لهم بحق إلا أنت.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تنزيهًا لك عن كل نقص وعيب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين.

﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراف على نفسه عليه السلام بالظلم.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٢٠).

قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]، أي: فاعل ما يلام عليه، ولهذا نهى الله عز وجل نبينا ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الاستجابة: مبالغة في الإجابة، أي: فاستجبنا له دعاءه وقبلنا توبته مما فرط منه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: خلصناه من الغم والضيق في تلك الظلمات؛ كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: ٤٩ – ٥٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة وتشديد الجيم: «نُجِّي»، وقرأ الباقون بنونين؛ الثانية ساكنة مع تخفيف الجيم، أي: مثل إنجائنا ليونس عليه السلام وإخراجنا إياه من الظلمات والغم، بسبب دعائه واعترافه بالظلم وتوبته، كذلك ننجي من وقع في شدة وغم من المؤمنين، وهذا وعد من الله تعالى وبشارة للمؤمنين عمومًا، وللمؤمنين من الصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين لهم.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»، وفي رواية: «**فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾.

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى في أول سورة مريم، وفي أول سورة آل عمران، كما ذكر ها هنا بأخصر من ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧١، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، والحاكم ١/ ٥٠٥، ٢/ ٣٨٢ وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا بن يحيى عليهما السلام.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، أي: حين دعا ربه خفية، وتضرع إليه أن يهبه ولدًا يرث النبوة من بعده؛ كما في قوله في سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ – ٦].

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، أي: يا رب، لا تتركني فردًا، أي: منفردًا وحيدًا، لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي بالدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة، أي: وأنت خير الباقين، وخير من يرثني بخير، وخير الوارثين للدنيا وما عليها، وأرحم وأشفق بعبادك، من كل مخلوق.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، أي: امرأته، يقال: كانت عاقرًا لا تلد، فولدت له، وأصلحها الله.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، والضمير في «إنهم» يعود إلى زكريا وأهل بيته، أي: إنهم كانوا يبادرون إلى فعل الطاعات في أوقاتها الفاضلة، ويتسابقون في فعل القربات، ويتنافسون في الخيرات.

﴿وَيَدْعُونَنَا﴾، الجملة معطوفة على ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾.

أي: ويدعوننا دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ حالان؛ ﴿رَغَبًا﴾، أي: رغبة ورجاء فيما عندنا من الثواب.

﴿وَرَهَبًا ۖ﴾، أي: ورهبة وخوفًا مما عندنا من العقاب.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين متضرعين.

روي أن أبا بكر رضي الله عنه قام خطيبًا، ثم قال: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ثم أتبع ذلك بذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام هنا؛ كما قرن بينهما في سورة آل عمران وسورة مريم، لما في كل منهما من الدلالة على كمال قدرة الله تعالى، وعجيب صنعه.

وقدم عز وجل في الذكر قصة زكريا توطئة وتمهيدًا لذكر قصة مريم، فإنه وإن كان إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تلد في حال شبابها أمرًا عجيبًا، فإن إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر أشد عجبًا، وأدل على قدرة الله تعالى.

ولهذا يذكر عيسى ابن مريم في القرآن الكريم- غالبًا- منسوبًا لأمه؛ للتنبيه على هذا الأمر.

قوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: حفظته وصانته من الفواحش، وهي مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أرسل إليها عز وجل جبريل الروح الأمين، فنفخ عليه السلام في جيب قميصها ودرع جيبها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ عيسى عليه السلام ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عبرة وعظة وعلامة ودلالة على كمال وتمام قدرة الله تعالى للعالمين من الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: آية على أنه عز وجل على كل شيء قدير؛

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٦٥.

كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة نبي الله تعالى أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به من الضر، وعظم صبره، وابتهاله وتضرعه إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾.

٣- أن الذي يجب أن ترفع إليه الشكوى ويطلب منه كشف البلوى، هو الله تعالى وحده؛ لقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وفي هذا تظهر حقيقة التوحيد.

٤- جواز ذكر المبتلى ما ابتلي به؛ إظهارًا لشدة فقره وحاجته وفاقته إلى ربه، لا جزعًا وسخطًا مما قدر الله.

٥- إثبات أن الله عز وجل هو أرحم الراحمين، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي؛ لقوله: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾.

٦- في ثنائه عليه السلام على ربه تعريض بشدة حاجته إليه، وغنية عن التصريح بذكر حاجته.

٧- إن من أسباب إجابة السؤال الثناء على المسؤول؛ ولهذا قدم في سورة الفاتحة حمد الله، والثناء عليه، وتمجيده على سؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم. وهذا أدب قرآني ينبغي أن يحتذى.

٨- استجابته عز وجل لأيوب عليه السلام، وإزالته ما به من ضر بسبب صبره ودعائه وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾.

٩- تعويض الله تعالى أيوب ما فقده من أهل ومثلهم معهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾.

١٠- رحمته عز وجل لأيوب رحمة خاصة من عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾.

١١- تذكير المؤمنين العابدين بما جرى لأيوب عليه السلام من الابتلاء العظيم، وما قابل به ذلك من التسليم والرضا، والصبر الجميل، والابتهال والدعاء، ورفع الشكوى إلى الله وحده الذي يسمع النجوى، ويكشف الضر والبلوى؛ ليعلموا أن أشد الناس بلاء الرسل والأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، وليتأسوا به عليه السلام عند الابتلاء بالصبر والتسليم والرضا، وصدق الابتهال والدعاء أو اللجأ إلى ربه جل وعلا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

١٢- أن العابدين هم الذين ينتفعون بالذكرى؛ لهذا خصهم بالذكر.

١٣- التذكير بإسماعيل وإدريس وذي الكفل، والثناء عليهم بكونهم من الصابرين، وما من الله به عليهم من النبوة وإدخالهم في رحمته لأنهم من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٤- الترغيب في الصلاح واللحاق بالصالحين، والتخلق بأخلاقهم.

١٥- التذكير بقصة ذي النون «يونس» عليه السلام، ومغاضبته لقومه لما لم يؤمنوا، واستعجاله وعدم صبره وخروجه من بينهم، وما جرى له من الابتلاء بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ الآية.

١٦- ظنه عليه السلام أن الله لن يقدر ويضيق عليه بجعله من المدحضين لما ساهم في السفينة، وبالتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

١٧- نداؤه عليه السلام ربه، واستغاثته به بعد أن أحاطت به الظلمات، وتوسله بوحدانيته عز وجل، وتنزيهه له، واعترافه بظلمه، وتوبته؛ ودعاؤه بتلك الدعوات العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

١٨- إثبات أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

١٩- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين، ونحو ذلك؛ لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

٢٠- أن مغاضبة يونس عليه السلام لقومه، وخروجه من بينهم ظلم اعترف به،

وليم عليه؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾ [الصافات: ١٤٢]؛ ولهذا قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾ [القلم: ٤٨].

٢١- أن العبد إذا اعترف بالذنب ثم تاب، تاب الله عليه؛ كما قال ﷺ(١).

٢٢- أن الأنبياء غير معصومين من الوقوع في بعض الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

٢٣- استجابة الله عز وجل ليونس عليه السلام، وقبول توبته مما فرط منه، وإنجاؤه من الغم، والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

٢٤- وعد الله تعالى للمؤمنين بإنجائهم من الغموم والكروب- إذا دعوه وتضرعوا إليه- كما أنجى يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي هذا بشارة للصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين.

٢٥- التذكير بزكريا عليه السلام؛ إذ نادى ربه ودعاه بألا يتركه فردًا، وأن يرزقه ولدًا يرث النبوة من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾.

٢٦- سمو أهداف الأنبياء عليهم السلام، فزكريا عليه السلام لم يسأل الولد ليتكثر به من قلة، ولا ليتقوى به من ضعف، وإنما ليطمئن على استمرار النبوة، وبقاء الدعوة.

٢٧- أن الله عز وجل هو خير الوارثين للأرض وما عليها؛ لقوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

٢٨- استجابته عز وجل لزكريا، وهبته له «يحيى»، وإصلاح زوجه له، فولدت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة -فضل عائشة رضي الله عنها ٢٤٨٨، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ٦/ ١٩٤ -من حديث عائشة رضي الله عنها.

بعد أن كانت عقيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

٢٩- ثناء الله عز وجل على زكريا وابنه يحيى وزوجه بمسارعتهم إلى الخيرات، ودعائهم إياه رغبة ورهبة، وخشوعهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

٣٠- الترغيب في المسارعة إلى الخيرات، ودعائه عز وجل رغبة ورجاء في ثوابه، ورهبة وخوفًا من عقابه، والخشوع له، والتذلل والخضوع.

٣١- ثناء الله عز وجل على مريم عليها السلام، وامتداحه إياها بإحصان فرجها وحفظه من الفواحش مع أنها لم تتزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

٣٢- قدرة الله تعالى التامة في إيجاد عيسى عليه السلام من مريم من غير أب، بنفخه عز وجل فيها من روحه، وجعلها وابنها آية للعالمين على كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة، والأمة: الملة؛ كما في قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: إنا وجدنا آباءنا على ملة.

والمعنى: إن هذه ملتكم- أيها الأنبياء- ملة واحدة، هي العبودية لله تعالى لا شريك له، وتوحيده، ودينكم الإسلام، لا دين لكم سواه.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري؛ ولهذا قال: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني دون سواي، وأخلصوا لي العبادة، وتذللوا واخضعوا لي دون غيري؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**الأنبياء إخوة من علات؛**

وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»(١).

أي: أن شرائعنا مختلفة؛ كما قال عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وديننا واحد، وهو التوحيد، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: أعرض أقوام الرسل عن التوحيد الذي جاءتهم به رسلهم، وتقطعوا أمرهم بينهم، واختلفوا في دينهم فتفرقوا شيعًا وأحزابًا، كل يدعي أنه على الحق دون غيره؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾، أي: كل أولئك الأمم والأحزاب إلينا راجعون يوم القيامة، فنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم خيرها وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل الأعمال الصالحات بجوارحه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن، أي: مصدق بقلبه.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلا جحود لعمله، بل هو مشكور على عمله، سيثاب ويجازى عليه أحسن الجزاء، ويضاعف له الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف**»(٢).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾، أي: وإنا لعمله وسعيه كاتبون، فلا يضيع منه شيء؛ كما

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥.

(٢) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝﴾.

قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: بكسر الحاء وإسكان الراء من غير ألف: «وَحِرْمٌ»، وقرأ الباقون بفتح الحاء والراء وألف بعدها: ﴿وَحَرَامٌ﴾.

والتحريم يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، والمراد به هنا: التحريم الكوني، أي: ممتنع على أي قرية أهلكناها، من القرى المكذبة للرسل، أنهم لا يرجعون إلينا بالبعث، بل لا بد من رجوعهم إلينا؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

ويؤكد هذا المعنى قوله قبل هذا: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٩٣]، فيكون إثباتًا للبعث لنفي ضده.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون عن الكفر، وتكون «لا»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وحرام على قرية أردنا إهلاكها أنهم يرجعون عن الكفر ويتوبون منه.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة؛ ليستدركوا ما فرط منهم.

والأظهر القول الأول.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، أي: إذا فتح السد الذي بينهم وبين الناس، الذي بناه ذو القرنين.

وهما أمتان من بني آدم؛ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ أن الله يقول: **«يا آدم، فيقول: لبيك، فيقول: ابعث بعث النار من ذريتك. فيقول: وما بعث**

النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فحينئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»(١).

قال ابن كثير(٢): «بل هم من نسل نوح أيضًا، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شرذمة منهم، تُركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين».

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾، أي: مرتفع من الأرض، ﴿يَنسِلُونَ﴾، أي: يأتون ويسرعون المشي للفساد.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل... الحديث، وفيه ذكر خبر الدجال وما يجري منه، ثم ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، إلى أن قال: «**فبينا هم كذلك؛ إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا من عبادي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون**»... إلى أن قال: «**فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض شبرًا إلا وقد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله**»(٣).

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ «اقترب» أبلغ من «قرب»، ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يوم القيامة، أي: فإذا وجدت هذه العلامات والأهوال: من نزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وغير ذلك، اقترب الوعد الحق، أي: القيامة والبعث؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن ٢٩٣٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٣٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٤٠، وأحمد ٤/ ١٨١، ١٨٢.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، أي: مفتوحة لا تكاد تطرف من شدة ما تشاهد من الأهوال العظام.

﴿يَا وَيْلَنَا﴾، أي: يا حسرتنا! ويا هلاكنا!

﴿قَدْ كُنَّا﴾، أي: في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: في غفلة من هذا الأمر الذي توعدنا به، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: كنا في غفلة عن هذا الأمر، وكنا ظالمين بسبب غفلتنا وإعراضنا وكفرنا وشركنا.

وقيل: «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: ما كنا في غفلة من هذا؛ لأننا قد وعينا وحذرنا وأنذرنا، بل كنا ظالمين بمكابرتنا وإعراضنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ «إن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أي: إنكم والذي تعبدون غير الله، والخطاب للمشركين من أهل مكة وغيرهم.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: وقود جهنم وحطبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، أي: أنتم ومعبوداتكم من دون الله لجهنم واردون، أي: داخلون فيها.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، أي: لو كان هؤلاء الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دون الله آلهة صحيحة حقًّا ما وردوا النار وما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: وكل من العابدين ومعبوداتهم في جهنم خالدون.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: لهم في جهنم ﴿زَفِيرٌ﴾، أي: يعانون مشقة شديدة في إخراج النفس من بين الضلوع؛ لشدة ما هم فيه من عذابها.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لما في آذانهم من الصمم والوقر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١].

وفي هذا إبطال لتأليههم لهذه الأصنام، وبيان لكذبهم، وإذلال لهم ولآلهتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

لما توعد المشركين بكونهم وقود جهنم هم وما يعبدون من دون الله، وورودهم لها وخلودهم فيها، أتبع ذلك ببيان أن الذين سبقت لهم منه الحسنى مبعدون عنها كل البعد، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: فالملائكة وعيسى والعزير يُعبدون من دون الله! قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾»(١).

وسواء صح هذا أو لم يصح فإن الآية نزلت خطابًا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادات لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريعًا وتوبيخًا لعابديها، فلا يرد على هذا من عبد الملائكة أو عبد المسيح والعزير ونحوهم ممن لهم عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبده.

وأيضًا: فإن «ما» لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، أي: إن الذين سبقت وقدرت في الأزل قبل وجودهم لهم منا الحسنى، أي: المنزلة الحسنى، بالتوفيق للإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح، والمثوبة الحسنى والجنة؛ كما قال تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٨٤- ٣٨٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾، أي: أولئك عن جهنم مبعدون غاية البعد، وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهًا بهم، ورفعة لمنزلتهم.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ تأكيد لمعنى «مبعدون»، أي: فهم من شدة بعدهم عنها لا يسمعون حسيسها، أي: لا يسمعون حريقها في الأجساد وأصواتها، فيفزعهم ذلك.

﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما»: موصولة، أي: وهم في الذي اشتهته وتشوقت إليه أنفسهم والتذت به من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر وغير ذلك.

﴿خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون إقامة أبدية، لا يموتون ولا يخرجون منها، ولا يفنى نعيمهم.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾، أي: لا يحزنهم ولا يزعجهم الفزع والخوف الأعظم يوم القيامة، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأخرى للبعث، وخروج الناس عن قبورهم وحشرهم إلى الموقف؛ كما قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إذا خرجوا من قبورهم، تبشرهم وتقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ بمجيئه، وتوعدون فيه بالجزاء العظيم، والثواب الجزيل.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتأكيد أن ملة الرسل كلهم ملة واحدة، هي: التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، ودينهم الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

٢- أن رب الخلق كلهم هو الله عز وجل، لا رب لهم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾.

٣- الاستدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٤- تفرق الأمم واختلافهم على رسلهم، وإعراضهم عما دعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

٦- أن من عمل الأعمال الصالحات بجوارحه، وهو مؤمن ومصدق بقلبه، يجازى على عمله ويشكر، ولا يكفر سعيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين العمل بالجوارح والإيمان بالقلب، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٨- كتابة أعمال العباد وضبطها وإحصاؤها، وعدم ضياع شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

٩- لا محالة ولا بد من رجوع أي قرية أهلكها الله في الدنيا لموافاة الحساب والجزاء يوم القيامة كسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

١٠- فتح سد يأجوج ومأجوج، وذلك من علامات الساعة، وسرعة انتشارهم، وفسادهم في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

١١- اقتراب الوعد الحق بالبعث والقيامة بعد خروج يأجوج ومأجوج، وتتابع علامات الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ﴾.

١٢- شخوص أبصار الذين كفروا من شدة أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٣- دعاؤهم بالويل والثبور، وندمهم على غفلتهم، واعترافهم على أنفسهم بالظلم؛ لقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

١٤- الوعيد والتهديد للمشركين وما يعبدون من دون الله؛ بأنهم وقود جهنم ووارودن لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

١٥- إبطال زعم المشركين إلهية الأصنام التي يعبدونها من دون الله؛ لأنهم لو كانوا

آلهة لما وردوا النار، ولدافعوا عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾.

١٦- خلود المشركين ومعبوداتهم من دون الله في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٧- معاناة المشركين في جهنم مشقة شديدة في الزفير وإخراج النفس؛ لشدة عذابها، وصممهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

١٨- إبعاد من كتب الله لهم الحسنى والسعادة غاية البعد عن جهنم، فلا يرونها فتروعهم، ولا يسمعون حسيسها وصوتها فيزعجهم ويؤذيهم ويقلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

١٩- عظم ما أعد الله للمؤمنين بالله ورسله من النعيم الحسي مما تشتهيه أنفسهم، ومن النعيم المعنوي من أمنهم من الفزع الأكبر، وتلقي الملائكة لهم بالبشارة بما وعدوا به يوم القيامة من الأجر والثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٢٠- خلود أهل الجنة فيما هم فيه من النعيم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

٢١- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدر ما الخلق عاملون، وما هم صائرون إليه في الأزل قبل خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

٢٢- إثبات وجود الملائكة، وأن من أعمالهم بشارة المؤمنين، وتهنئتهم، والترحيب بهم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قرأ أبو جعفر: «تُطْوَى السَّماءُ» بالتاء مضمومة على التأنيث، وفتح الواو، ورفع السماء.

وقرأ الباقون بالنون مفتوحة، وكسر الواو، ونصب السماء: ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ﴾.

كما قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ بضم الكاف والتاء من غير ألف على الجمع.

وقرأ الباقون: «لِلْكِتَابِ» بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف على الإفراد.

أي: إن ما سبق من الوعيد والوعد كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

و«السجل»: الصحيفة والورق المكتوب فيه، أي: يوم نطوي السماء كطي الصحيفة، أي: كما تطوى الصحيفة والورقة على ما كتب فيها.

وفي هذا من الدلالة على عظم قدرة الله تعالى ما لا يخفى، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يقبض الله الأرض يوم**

القيامة، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[(٢)].

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ استدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، أي: كما بدأنا الخلق أول مرة نعيده مرة أخرى، أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا له.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ «وعدًا»: مفعول مطلق منصوب، أي: وعدًا علينا حقًّا كائنًا لا محالة.

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد، أي: إنا فاعلين لما وعدنا به؛ لكمال قدرتنا على ذلك، فهو كائن لا محالة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «**إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلًا، ثم قرأ:** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾» وذكر تمام الحديث[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ «الزبور»: جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام؛ كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣ – ٤٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ المراد بالذكر هنا: الكتاب الأول: «اللوح المحفوظ»، «أم

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز ٢٠٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣.

الكتاب».

قال ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**»(١).

أي: كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء من بعد أن كتبنا في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فهم المستحقون لخلافة الأرض في الدنيا، وهم الوارثون لأرض الجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

وأخص من يوصف بالعبودية لله تعالى والصلاح هي هذه الأمة، ونبيها الكريم محمد ﷺ؛ ولهذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وبعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: أمة محمد ﷺ.

قال ابن القيم: «والأرض: الدنيا. وعباده الصالحون: أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ؛ فإنه أخبر بذلك وأهل مكة كفار، وأعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول: أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله»(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**وزويت لي الأرض،**

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ٣١٩٢، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٩٦.

فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه: أن تورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون»[٢].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ القرآن الكريم الذي أنزلناه على محمد ﷺ.

﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ «البلاغ»: الكفاية والغنية والوصول إلى الغاية والمبتغى؛ كما في حديث الأقرع والأبرص والأعمى، يقول الملك لكل واحد منهم: «**لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك ناقة أو بقرة أو شاة أتبلغ بها في سفري...**» [٣]، أي: أستعين بها وأصل بها في سفري إلى بلدي.

ومعنى: ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾، أي: لكفاية وغنية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ لله تعالى، يبلغون ويصلون به إلى مبتغاهم من معرفة الله عز وجل وما يجب له، والوصول إلى مرضاته وإلى دار كرامته.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ «إلا» أداة حصر، و«رحمة» مفعول لأجله، أي: وما أرسلناك إلا لأجل رحمة العالمين، أي: وما أنت إلا رحمة عامة للعالمين كلهم؛ إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ورحمة خاصة لمن آمن منهم بك واتبعك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «**لم أبعث لعانًا، إنما بعثت رحمة**»[٤].

فهو رحمة خاصة لمن آمن به واتبعه؛ لأن ما جاء من الوحي على لسانه ﷺ هو سبب سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وهو رحمة عامة للعالمين، رفع الله برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، كما في حديث ثوبان رضي الله عنه، قال ﷺ: «**وسألت ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنة بعامة**»...

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن، ذكر الفتنة ودلالتها ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢٦١٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٤٣٤.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن لعن الدواب ٢٥٩٩.

الحديث[(١)].

وهو رحمة عامة للعالمين، بما جاء به من الشرع العدل المستقيم، الذي به العدل بينهم، وإنصاف بعضهم من بعض، فعاش في كنف شريعة الإسلام الغراء المعاهدون، وأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومنع من الاعتداء حتى على غير المسلمين، ولم ينه عن البر بهم والقسط إليهم ما لم يكونوا محاربين للمسلمين في دينهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

وشرع الإحسان إلى كل ذات كبد رطبة من إنسان أو حيوان، قال ﷺ: «**في كل كبد رطبة أجر**»[(٢)].

بل حقن دماء المنافقين، وحفظ أموالهم، وصان أعراضهم، وأجرى عليهم أحكام المسلمين، بما أظهروا من الإسلام، مع أنهم أشد أعداء الإسلام!

فهو رحمة عامة للعالمين، فمن قبلها انتفع بها في دينه ودنياه وأخراه، ومن ردها لم يخرجها رده لها عن كونها رحمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، أي: قل للمشركين وللناس عامة: إنما يوحى إلي من ربي.

﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ «أنما»: أداة حصر، أي: ما إلهكم ومعبودكم إلا إله ومعبود واحد، هو الله وحده لا شريك له.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٦٣، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«هل»: للاستفهام ومعناه: الأمر والتحضيض، أي: فهل أنتم مستسلمون منقادون لما يوحى إليَّ من وجوب توحيد الله؟ أي: أسلموا وانقادوا واعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، أي: فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم.

﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ﴾، أي: أعلمتكم ما أمرت به.

﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾، أي: أنا وأنتم مستوون في العلم بذلك، وأنا بريء منكم وأنتم بريئون مني؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١].

وأيضًا: آذنتكم وحذرتكم من العقاب الواقع بكم لا محالة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«أم»: عاطفة، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وما أدري أقريب أو بعيد وعدكم، أو الذي تُوُعِّدتم به من العذاب، لكنه لا بد واقع بكم.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠﴾، أي: إن الله عز وجل يعلم ما تجهرون به من الأقوال، ويعلم الذي تكتمونه وتسرونه من المضمرات أنتم وجميع الخلق، وسيحاسبكم جميعًا على ذلك ويجازيكم.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١﴾ «إن»: نافية، أي: وما أدري لعل تأخير العذاب الذي تستعجلونه.

﴿فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾، أي: ابتلاء واستدراج لكم.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، أي: وتمتيع لكم، ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ في الدنيا، أي: إلى أجل مسمى؛ لتزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ قرأ عاصم: ﴿قَٰلَ﴾ بالألف على الخبر، وقرأ الباقون: «قُلْ» من غير ألف على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «رَبُّ» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿رَبِّ﴾.

أي: قال: يا رب ﴿ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الباء للملابسة، أي: يا رب افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالقضاء الحق؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فاستجاب الله دعاءه، فحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما أوقعه بالكفار في بدر.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: المستعان به على الذي تصفون، أي: على الذي تقولون وتفترون من الكذب على الله عز وجل وعلى دينه ورسله.

الفوائد والأحكام:

١- طيُّ الله عز وجل السموات يوم القيامة بيمينه؛ كما تطوى الصحيفة على ما كتب فيها، وإثبات عظمته، وكمال قدرته، وتمام قوته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾.

٢- الاستدلال بالنظير على النظير، أي: الاستدلال ببدء الخلق أول مرة على قدرته عز وجل على إعادته مرة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾.

٣- صدق وعده عز وجل في إعادة الخلق مرة أخرى؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وأن ذلك كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

٤- حكم الله عز وجل، وكتابته في كتبه المنزلة على رسله، وقبل ذلك في اللوح المحفوظ: أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فهم المستحقون للخلافة عليها في الدنيا، وهم الوارثون لها في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾.

٥- إثبات القدر، وكتابة كل شيء مما يجري في هذا الكون في اللوح المحفوظ.

٦- تكريم الله تعالى لعباده الصالحين، بتوريثهم الأرض في الدنيا والآخرة، وفي هذا ترغيب في الصلاح.

٧- إثبات عبودية الصالحين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

٨- تعظيم شأن القرآن الكريم وما فيه من الهداية، وتأكيد أن فيه الكفاية والغنية

لقوم عابدين لله تعالى؛ لمعرفة الله عز وجل، وما يجب له، والوصول إلى مرضاته، وإلى دار كرامته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ وعمومها، وأن الله إنما أرسله رحمة للعالمين عامة؛ لبيان ما فيه السعادة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، في معاشهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

١٠- الرد على من يسعون لتشويه صورته ﷺ، وتشويه ما جاء به من رسالة الإسلام والسلام.

١١- أنه ﷺ إنما جاء بما أوحاه الله تعالى إليه من إعلان وحدانية الله تعالى في الإلهية لجميع الخلق، والأمر بالاستسلام والانقياد، والحض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾.

١٢- التحذير من التولي والإعراض عما دعا إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له، والوعيد والتهديد بالعقاب العاجل أو الآجل لمن تولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾.

١٣- الرد على المستعجلين للعذاب، وبيان أنه ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري هل قريب أو بعيد ما يوعدون به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

١٤- إثبات علم الله تعالى بما يجهر به الناس من القول وما يكتمونه؛ لإحاطة علمه عز وجل بكل شيء مما غاب أو ظهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾.

١٥- أنه ﷺ لا يدري ما الحكمة في عدم معاجلة المكذبين بالعذاب، وأنه قد يكون ابتلاء واستدراجًا لهم ليزدادوا إثمًا فيزدادوا عقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾.

١٦- سؤاله ﷺ الحكم والفصل بينه وبين قومه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾.

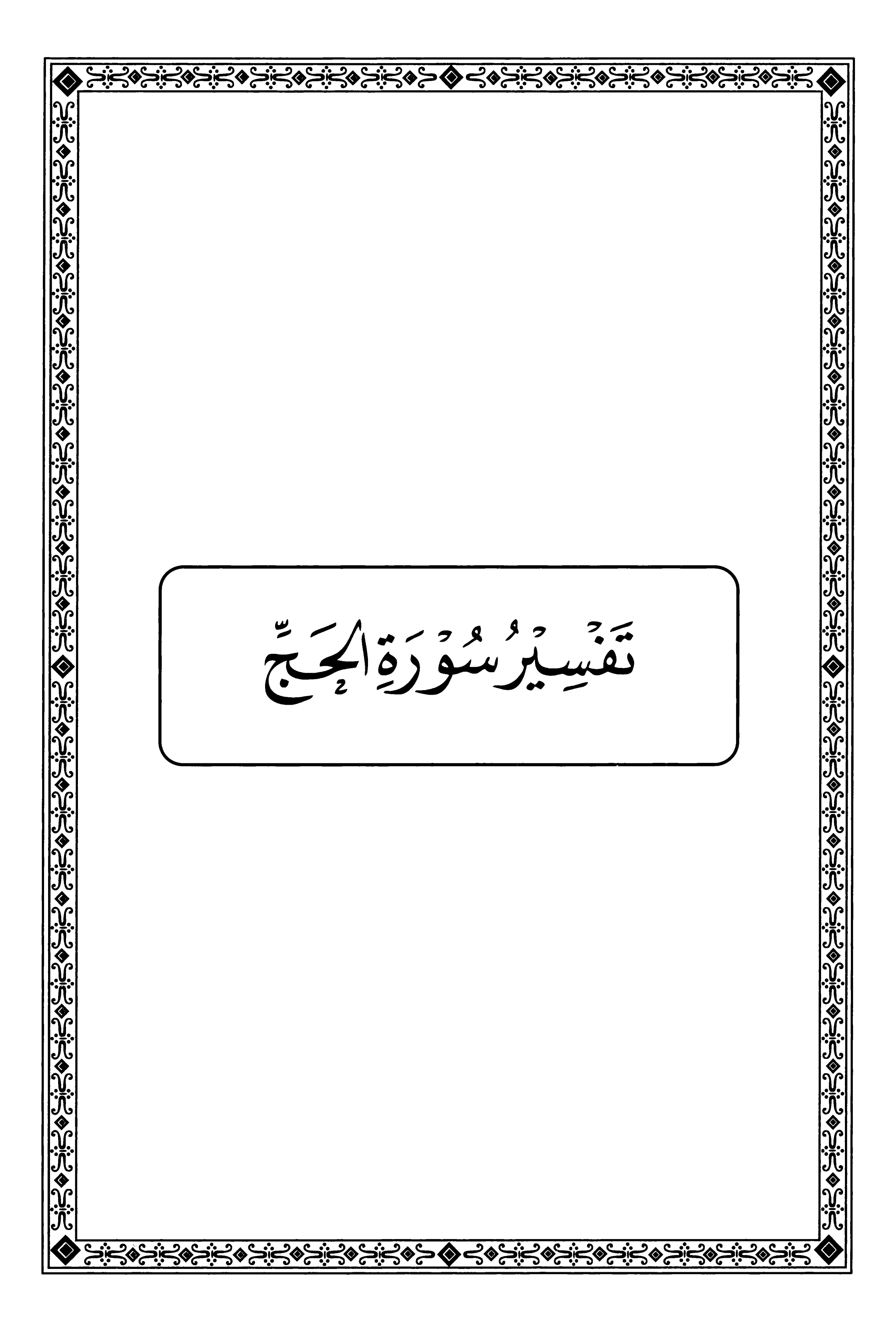
١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾، ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

١٨- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

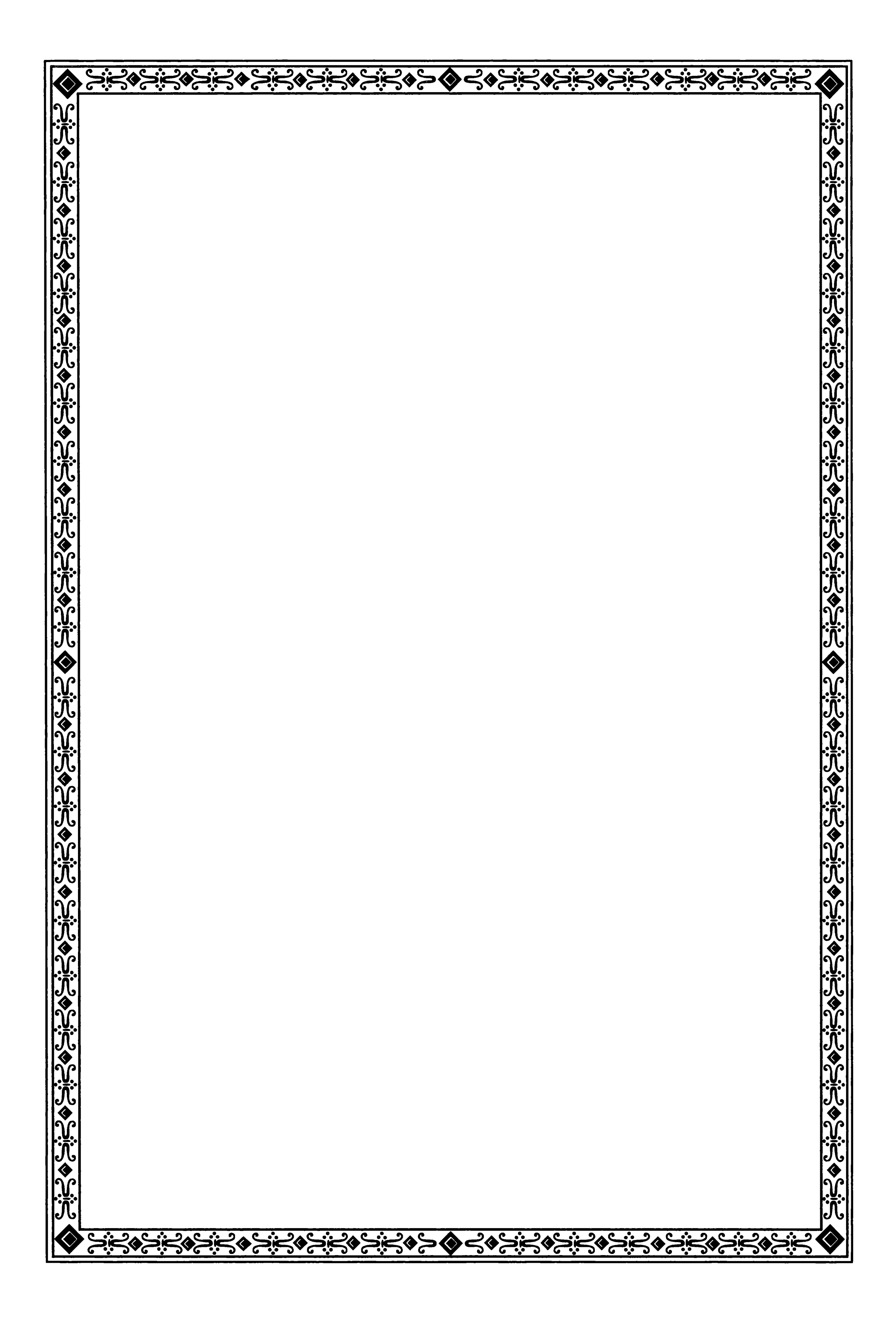
١٩- استعانته ﷺ بربه على ما يلقاه من المكذبين من قومه من الافتراء على الله تعالى وعلى دينه ورسله، وثقته بعون الله ونصره؛ لقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

٢٠- أن الذي ينبغي الاستعانة به في الملمات والشدائد في جميع الأمور، والذي بيده العون والنصر؛ هو الله تعالى وحده.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ الحَجِّ



المقدمـــــة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحج» بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر فيها أمره إبراهيم عليه السلام أن يؤذن بالحج، وذكر فيها بعض أحكامه؛ قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ [الحج: ٢٧]، والآيات بعدها.

والحج إنما شرع في الآيات في سورة البقرة وآل عمران.

ب- مكان نزولها:

سورة الحج منها ما هو مكي، كأولها وآخرها، ويغلب عليها طابع السور المكية في تناولها لتوحيد الله تعالى، وإثبات الساعة ومشاهد القيامة والتخويف منها، وإنكار الشرك وذم أهله، وذكر آيات الله ودلائل قدرته ونعمه.

ومنها ما هو مدني، كالآيات في ذكر بعض أحكام الحج والنسك، والآيات في الإذن بالقتال، والأمر بالجهاد في سبيل الله، والوعد بنصر الله، ونحو ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩]، فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال»[(١)].

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر»[(٢)].

وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «سورة نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها؛ فإنهن نزلن بالمدينة، وهن: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى تمام

---

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣٠٨٥)، والترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧١)، وأحمد (١/ ٢١٦)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وأخرجه الحاكم (١/ ٦٦)وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٣، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٣٥.

الآيات الثلاث»[١].

وقد روى مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن سورة الحج نزلت بالمدينة»[٢].

قال ابن تيمية: «سورة الحج فيها مكي ومدني»[٣].

وقال الزركشي: «سورة الحج مدنية، وفيها أربع آيات مكية، قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿عَقِيمٍ﴾»[٤].

وقد قيل: إنها كلها مكية. وقيل: كلها مدنية.

والأظهر أن منها ما هو مكي، وما هو مدني، وهو قول الجمهور.

جـ- فضلها:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[٥].

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بخطاب الناس جميعًا وأمرهم بتقوى ربهم، وإثبات الساعة والقيامة، وبيان عظمتها وشدة أهوالها، والتخويف منها؛ للاستعداد لها، والذم لمن يجادل في الله بغير علم منكرًا قدرة الله تعالى على البعث، متبعًا كل شيطان مريد، يضله عن الحق ويهديه إلى عذاب السعير، وبيان تمام قدرته تعالى على البعث بالاستدلال بالخلق الأول، وبإحياء الأرض بعد موتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾.

٢- بيان أن من الناس من يجادل في الله وفي قدرته على البعث بلا علم، متكبرًا ساعيًا في الإضلال عن سبيل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾.

---

(١) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٠٩) (٦٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧/ ١٤٤.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤/ ٣٧١.

(٤) «البرهان» ١/ ١٩٤.

(٥) سيأتي تخريجه.

٣- بيان أن من الناس صنفًا يعبد الله على حرف، سرعان ما ينقلب على وجهه إذا أصابته فتنة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

٤- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

٥- تخييب ظن من يظن أن الله لن ينصر رسوله ودينه، وامتنانه عز وجل بإنزال القرآن وبيانه، وأنه يهدي من يريد: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾.

٦- الإخبار بفصله عز وجل بين الأمم والطوائف يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾.

٧- سجود جميع المخلوقات وانقيادها لله تعالى سوى كثير من الناس: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾.

٨- تشبيه المؤمنين الذين يريدون نصر دين الله، والكافرين الذيم يريدون إطفاء نور الله بالخصمين، وبيان عاقبة كل منهما: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

٩- ذم المشركين الذين يصدون عن المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد، والوعيد لمن يريد فيه بإلحاد بظلم: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الحج: ٢٥].

١٠- التذكير بما امتن الله به على إبراهيم عليه السلام وعلى الناس كافة؛ إذ بوأه مكان البيت لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، والتأذين في الناس بالحج؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام

معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وتعظيم حرمات الله وشعائره، والإخلاص له، وذكر اسمه وتكبيره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيات: ٢٦- ٣٧].

١١- دفاع الله تعالى عن الذين آمنوا، وإذنه لهم بالقتال لمن ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، ووعده لهم بالنصر: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

١٢- تسليته ﷺ وتثبيت قلبه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسلهم وإهلاكهم: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

١٣- توبيخ المشركين والمكذبين وتقريعهم لما لم يؤمنوا بما يرون ويسمعون من آثار ما حل بالمكذبين قبلهم، وذمهم على استعجالهم بالعذاب، وبيان أن الله يملي ويمهل ولا يهمل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

١٤- بيان أن النبي ﷺ ما هو إلا نذير للناس بين النذارة والوعد لمن آمن به، والوعيد لمن كذبه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

١٥- بيان أنه ما أرسل الله عز وجل من رسول إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فتنة وابتلاء للظالمين، وتثبيتًا للمؤمنين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

١٦- فضيلة المهاجرين في سبيل الله، ووعد الله تعالى لهم بالرزق الحسن، وإدخالهم مدخلًا يرضونه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

١٧- وعد الله تعالى لمن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه بنصره: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

١٨- بيان دلائل قدرة الله تعالى ونعمته على أنه الإله الحق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

١٩- امتنانه عز وجل بأن جعل لكل أمة منسكًا هم ناسكوه، وتثبيته ﷺ في الدعوة: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

٢٠- ذم المشركين وتجهيلهم في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا وما ليس لهم به علم: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

٢١- إنكار المشركين لآيات الله، وشدة عدائهم لمن يتلو عليهم آيات الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٢- ضرب المثل لبيان ضعف ما يدعوه المشركون من دون الله، وأنهم لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، ضعف الطالب والمطلوب، وبيان أنهم ما قدروا الله حق قدره حين دعوا آلهة من دونه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٣- بيان أنه عز وجل يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، والرد على من يزعمون أن الرسل لا يكونون من البشر: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٢٤- إحاطة علم الله عز وجل بالخلائق، ورجوع الأمور إليه سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٥- ثم ختم عز وجل السورة بأمر المؤمنين بالركوع والسجود، وعبادته سبحانه وفعل الخير، والجهاد في الله حق جهاده، والتنويه باصطفائه إياهم، ورفع الحرج عنهم في الدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾:

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، و«ها» للتنبيه، وتصدير الخطاب بالنداء للعناية والاهتمام، والتعظيم والتنبيه لما بعده من الخبر والطلب.

و«الناس»: صفة لـ«أي»، أو بدل منها، أو عطف بيان، مشتق من «النوس» وهي الحركة.

أو من «الأنس»، أو من «الإيناس» وهي المشاهدة، أو من ذلك كله. والمراد بهم: البشر، بنو آدم عليه السلام.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

و«التقوى» في الأصل مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي الشوك بلبس النعلين؛ ويتقي البرد بالملابس، وهكذا.

والمعنى: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

﴿رَبَّكُمْ﴾ «الرب»: هو الخالق المالك المدبر، أي: اتقوا خالقكم ومالككم ومدبركم.

وفي اقتران الأمر بالتقوى باسم «الرب» ترغيب؛ لأن فيه تذكير الناس بنعمة ربوبيته عز وجل لهم؛ خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بسائر النعم؛ مما يوجب تقواه شكرًا له على نعمه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة في موضع التعليل للأمر بالتقوى.

وهذا- والله أعلم- هو السبب في ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وهو أن الإيمان بالقيامة وأهوالها واليوم الآخر من أعظم الحوافز على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.

و«الزلزلة»: حركة الأرض واضطرابها الشديد، وما يحصل للنفوس من الفزع والرعب.

و«الساعة»: القيامة وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء على الأعمال، وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها أكبر حدث، وآتية لا محالة، ومحددة الوقوع.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ١ -٨].

وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤- ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ -٦].

﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، أي: أمر كبير، وخطب جليل، وحادث فظيع، لا يقدره قدر عظمته، ولا يعلم كنه ذلك إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى، وذلك؛ لما فيه من الأهوال العظام والأخطار الجسام.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

بيان وتفسير لقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ «يوم» منصوب على الظرفية، أي: يوم تشاهدونها وما فيها من الأهوال.

﴿تَذۡهَلُ﴾، أي: تغفل وتنشغل من شدة الهول، ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾، أي: التي في حال الإرضاع قد ألقمت ثديها رضيعها، وهي أبلغ من «مرضع»، قال ابن القيم: «المرضع: من لها ولد ترضعه. والمرضعة: من ألقمت الثدي للرضيع. وعلى هذا فقوله: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أبلغ من «مرضع» في هذا المقام؛ لأن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع، وأكد هذا بقوله: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ فعلم أن المراد بالمرضعة: التي ترضع بالفعل، لا بالقوة والتهيؤ، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة»(١).

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾، أي: وتُسقط من شدة الفزع والهول كل ذات حمل حملها قبل تمامه.

﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾، أي: صاحبة حمل، وهي المرأة التي قد ظهر حملها وتحقق، وصلح للوضع كاملًا أو سقطًا.

فذهلت لشدة ذلك اليوم المرضعات قبل الفطام، وألقت ذوات الحمل حملها قبل التمام.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سَكۡرَى» بفتح السين وإسكان الكاف من غير ألف في الموضعين، وقرأ الباقون: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها في الموضعين.

والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، أي: وترى الناس تحسبهم سكارى من الخمر من شدة ما هم فيه من الخوف والفزع والانزعاج واندهاش العقول؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤]، وذلك من شدة الاضطراب والحيرة والذهول.

﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم ليسوا بسكارى على التحقيق.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾، أي: ولكن الذي أذهب عقولهم وأدهشهم خوفهم من عذاب الله؛ لأن عذاب الله شديد.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٠١.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف- أراه قال- : تسعمئة وتسعة وتسعين، فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد،** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «**تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء، ينظر بعضهم إلى بعض! قال: «**يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

بعدما أخبر بعظم زلزلة الساعة، ووجوب الاستعداد لها، ذكر حال المنكرين لها.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الواو: استئنافية، أي: وبعض الناس وفريق منهم ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم في قدرة الله تعالى، فينكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ويكذب بالبعث.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، أي: بغير علم يعتمد عليه في جداله، بل بالباطل، وعلى جهل وتقليد أعمى لأئمة الضلال من أهل الكفر والأهواء والبدع؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ﴾، أي: ويتبع في جداله وكفره وإنكاره البعث ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ﴾ من شياطين الإنس والجن، ﴿مَّرِيدٖ﴾ متمرد خارج عن طاعة الله تعالى ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ الضمير يعود إلى ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾، أي: قضي وحكم على هذا الشيطان كونًا وقدرًا.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، كيف الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٥٩، والنسائي في الجنائز ٢٠٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٦.

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ الضمير في «أنه» ضمير الشأن، و«من»: اسم شرط جازم ﴿تَوَلَّاهُ﴾، أي: اتخذه وليًا واتبعه وقلده من الناس.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

أي: فأنه يضله عن الحق، ويبعده عنه في الدنيا، ويسلك به طريق الضلال والباطل.

﴿وَيَهْدِيهِ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إلى عذاب النار المستعرة المتوقدة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

و﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعول»، أي: النار المسعورة المتوقدة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾.

لما ذكر تعالى المكذب بالبعث، المنكر للمعاد، المجادل في ذلك بغير علم، ذكر الأدلة على قدرته التامة على ذلك، من بدئه للخلق الأول، وإحيائه الأرض بعد موتها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أعاد خطاب الناس للتأكيد والعناية والاهتمام.

﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: إن كنتم في شك من البعث، أي: من قدرة الله تعالى على بعث الناس وإخراجهم من قبورهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، أي: فإنا أوجدناكم وأنشأناكم النشأة الأولى من تراب، وذلك بخلق أبيكم آدم عليه السلام.

ثم نقلناكم في مراحل خلقكم من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى تمام خلقكم وأطوار حياتكم.

وفي قدرتنا على هذا دليل على كمال قدرتنا على بعثكم، فكيف ترتابون فيه؟ وليس بعثكم وخلقكم ثانيًا بأصعب من خلقكم الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ

هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٢].

أي: أفلا تذكرون وتتعظون وتعلمون أن من أنشأكم من العدم قادر على إعادتكم خلقًا آخر بعد موتكم؟

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي مني الرجل، وهي الماء المهين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]، وهي بداية التخليق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، أي: ثم تتحول النطفة إلى علقة، وهي: قطعة من دم أحمر غليظ تعلق بالرحم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة:٣٧، ٣٨].

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، أي: تتحول العلقة إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة على قدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة لـ﴿مُّضْغَةٍ﴾، ومعنى ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾، أي: مصورة ظاهر منها خلق الآدمي.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: غير ظاهر منها خلق آدمي، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، وهو السقط، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ- وهو الصادق المصدوق- قال: «**وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد**»[(١)].

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «**يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو**

---

(١) سبق تخريجه.

سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص»[1].

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نبين لكم، أي: نظهر لكم أصل نشأتكم، وعظيم قدرتنا في خلقكم أولًا، ولنظهر لكم كمال قدرتنا على بعثكم بعد الموت ثانيًا.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: ونبقي في الأرحام الذي نشاء من الحمل.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: إلى وقت محدد، وهو مدة الحمل، أي: إلى وقت ولادته.

﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾، أي: ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم طفلًا.

وأفرد «طفلًا»؛ لأن المراد به: الجنس، فهو بمنزلة الجمع، والطفل: يطلق على الولد من الانفصال إلى البلوغ.

وفي قوله: ﴿طِفۡلٗا﴾ إشارة إلى ضعفه في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وعقله وجميع قواه، ثم بلطفه عز وجل يحنن عليه والديه، ويعطيه القوة شيئًا فشيئًا، وينقله من طور إلى طور؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ كمال عقولكم وقواكم وعنفوان شبابكم؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، أي: ومنكم الذي يموت قبل بلوغ الأشد؛ كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾، أي: ومنكم الذي يُرجع ﴿إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، أي: إلى أردأ العمر، وهو سن الهرم والشيخوخة وضعف القوة وزوال العقل والتخريف.

﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ﴾ اللام: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة ألا يعلم ولا يعقل ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ «من»: للتوكيد؛ ولهذا لم تذكر في آية سورة النحل: ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، كيفية خلق الآدمي ٢٦٤٤.

عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النحل: ٧٠].

ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾، أي: من بعد ما كان يعلم أصبح لا يعلم شيئًا من الأشياء، ولا شيئًا من العلم.

فقوة ابن آدم محفوفة بضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الهرم؛ كما قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ هذا دليل آخر على قدرة الله تعالى على البعث، وإحياء الناس بعد موتهم، وهو إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت: ٣٩].

قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ الخطاب لكل من يصلح خطابه، أي: وتشاهد الأرض ﴿هَامِدَةٗ﴾، أي: ميتة يابسة قاحلة دارسة الآثار، لا نبات فيها ولا زرع.

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾، أي: فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها.

﴿وَرَبَتۡ﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَأَتْ» بهمزة مفتوحة بعد الباء، وقرأ الباقون: ﴿وَرَبَتۡ﴾ بحذف الهمزة، أي: زادت وارتفعت وانتفخت.

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾، أي: وأنبتت من كل صنف من أصناف النبات.

﴿بَهِيجٖ﴾ حسن المنظر يَسرّ الناظرين.

عن لقيط بن عامر رضي الله عنه، أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به؟»** قلنا: بلى. قال: **«فالله أعظم»**. قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **«أما مررت بوادٍ أُهْلِكَ مَحْلًا؟»** قال: بلى. قال: **«ثم مررت به يهتز خَضِرًا؟»** قال: بلى. قال: **«فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آية الله في خلقه»**[1].

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٠، وأحمد ٤/ ١١.

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «**أمررت بأرض من أرضك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟**» قال: نعم. قال: «**كذلك النشور**»[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من خلق الإنسان من تراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك، فهذان دليلان قاطعان على هذه الخمسة المذكورة في الآية بقوله:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أن الله هو الحق؛ ربًّا ومعبودًا، فهو الرب الحق، الخالق المالك المدبر، وهو الإله الحق، الذي تجب عبادته وحده، ولا تجوز العبادة لغيره، فعبادته حق، وعبادة غيره باطلة.

وقيل: الباء ليست للسببية، بل متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام، والتقدير: ذلك المذكور شاهد بأن الله هو الحق.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ذلك بسبب أن الله هو الحق ربًّا ومعبودًا، وبسبب أنه يحيي الموتى، فيبعث الأجساد، ويعيد إليها الأرواح كما خلقكم بعد العدم من تراب، وكما أحيا الأرض الميتة فأخرج منها النبات.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أنه على كل شيء قدير، أي: لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الساعة آتية لا ريب فيها، أي: واقعة وكائنة لا محالة، لا شك فيها ولا مرية.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، أي: وبسبب أن الله يبعث من في القبور، أي: يخرج الذي في القبور من الأجساد بعد أن كانت رميمًا، ويرد إليها الأرواح والحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١.

يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

قال ابن القيم: «جعل الله إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور؛ كما أخرج النبات من الأرض»(١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾.

٢- عموم رسالة النبي ﷺ، وخطاب القرآن الكريم للناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٣- وجوب تقوى الرب عز وجل؛ لقأوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٥- إثبات الساعة والقيامة، وأن زلزلتها وأهوالها وأخطارها شيء عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٦- أن القيامة وما فيها من أهوال وحساب وجزاء من أعظم ما يحفز الناس على العمل؛ لتعليل الأمر بتقوى الرب بذكر زلزلة الساعة وعظم أمرها.

٧- عظم كرب ذلك اليوم على الناس، وفزعهم وقلقهم وذهولهم فيه، واندهاش عقولهم بسبب عظم أهواله وشدة عذاب الله تعالى، فالمرضعة تذهل عن رضيعها، وذات الحمل تضع حملها، والناس أشبه بالسكارى وما هم بسكارى؛ لقوله تعالى:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٠٦.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

٨- أن عذاب الله شديد لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

٩- النعي على فريق من الناس، وذمهم من المكذبين من المشركين وغيرهم ممن يجادلون في وحدانية الله وفي قدرته على البعث وإحياء الموتى بغير علم، بل بجهل واتباع لأئمة الضلال من شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

١٠- التحذير من اتباع شياطين الإنس والجن ومردتهم؛ لأن من اتبعهم وتولاهم فإنهم يضلونه في الدنيا ويهدونه إلى النار في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

١١- إقامة الدليل والحجة على الناس على قدرة الله تعالى التامة على بعثهم، وإعادتهم أحياء بعد موتهم؛ بخلقهم الأول من التراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ الآية.

١٢- أن من أعظم دلائل قدرة الله تعالى على البعث والمعاد الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها.

١٣- أن أصل خلق الإنسان من التراب، ثم انتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

١٤- في التأمل في أطوار خلق الإنسان بخلق آدم من التراب، ثم خلق نسله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم إقراره في الرحم إلى أجل مسمى، ثم إخراجه من بطن أمه طفلًا إلى أن يبلغ أشده، ثم يكون شيخًا، فإما أن يتوفى أو يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علم شيئًا، كل هذا يدل على عظمة الخالق عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعنايته بخلقه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

١٥- أن الإنسان خلق من ضعف، ثم أعطي من بعد ضعف قوة، ثم يعود إلى الضعف والشيبة والهرم والتخريف ثم الفناء، مما يوجب عليه أن يعرف قدر نفسه، فلا يطغى ولا يتجبر ولا يتكبر، قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

١٦- إحياء الله عز وجل الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فتتحرك وترتفع وتنبت من أصناف النبات الحسن ما يسر الناظرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

١٧- أن في خلق الإنسان من التراب وأطوار خلقه، وفي إحياء الأرض بعد موتها وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ دلالةً قاطعة على أن الله عز وجل هو الحق ربًّا ومعبودًا، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة كائنة لا شك فيها، وأنه عز وجل يخرج من في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

❊ ❊ ❊

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾:

ذكر في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ المجادلين بالجهل والتقليد والاتباع للشياطين ولأئمة الضلال، ثم ذكر في هذه الآية المجادلين بالجهل والباطل بمجرد الرأي والهوى من رؤساء الكفر ودعاة الضلال.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: وبعض الناس، أي: فريق من المكذبين من المشركين وغيرهم.

﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم ﴿فِي ٱللَّهِ﴾، أي: في وحدانية الله تعالى في إلهيته، وفي إحيائه عز وجل الموتى، وبعثه من في القبور، وقدرته تعالى على ذلك، مع وضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، أي: بلا علم صحيح منه بما يجادله فيه.

﴿وَلَا هُدٗى﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين، أي: ولا هدى يهديه ويسترشد به في جداله.

﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، أي: ولا كتاب نيّر واضح، ينير ويبين له الحق من الكتب الشرعية.

قال ابن كثير(١): «أي: بلا عقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى».

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ «الثني»: ليُّ الشيء، و«العطف»: العنق والجانب، أي: لاويًا عنقه استكبارًا عن الحق، وإعراضًا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٩٤.

ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل الناس ويبعدهم عن سبيل الله، أي: عن دين الله وشرعه وصراطه المستقيم.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾، أي: لهذا المجادل بالباطل في الدنيا ذل وهوان؛ لخسرانه الصفقة في مجادلته، وظهور الحق، وبطلان حجته، ومن هذا ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذاب النار المحرقة، و«فَعِيل» بمعنى «مُفْعِل».

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: يقال له تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ الآية.

والإشارة في «ذلك» تعود إلى ما ذكر من الخزي الدنيوي؛ وعذاب يوم القيامة بالحريق، أي: ذلك المذكور. وفي الإشارة إليهما بإشارة البعد «ذلك»: تعظيم وتهويل لهما، أي: ذلك الخزي الدنيوي العظيم، وعذاب يوم القيامة بالحريق الشديد.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي ﴿قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: بسبب الذي عملته وكسبته من الكفر والمجادلة بالباطل، والاستكبار والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الجملة معطوفة على «ما» الموصولة، فهي في محل جر.

أي: ذلك الخزي والعذاب بسبب الذي قدمت يداك، وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، بل يجازي كلًّا بعمله، من غير زيادة في سيئاتهم، ولا نقص من حسناتهم، ولا تعذيب أحد منهم بغير ذنب، أو بذنب غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُواْ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، ونتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء»[1].

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ «حرف الشيء»: طرفه وجانبه، ومنه حرف الجبل، أي: طرفه، أي: ومن الناس من دخل في الدين على طرف، أي: على ضعف وشك وتردد. و«من»: تبعيضية، أي: وبعض الناس.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ من صحة وسعة رزق في نفسه وأهله وماله، أي: حصل له ما يحبه.

﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾، أي: استقر وسكن في مكانه، أي: استمر على الإيمان وعبادة الله، فرحًا بالخير الذي أصابه.

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾، أي: ابتلاء بمكروه وشدة، وهو مقابل الخير.

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي: انكب على وجهه وارتد ورجع إلى ما كان عليه من الكفر، كمن يمشي على حرف الجبل وجانبه، وانكب على وجهه، وسقط إلى أسفله.

قال ابن زيد[2]: «هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإن أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر».

وعن جابر رضي الله عنه: أن أعرابيًّا أسلم وبايع النبي ﷺ، فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبي ﷺ يستقيله بيعته، فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة، فقال النبي ﷺ: «**المدينة كالكير: تنفي خبثها، وينصع طيبها**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦/ ٤٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٨٣)، والنسائي في البيعة (٤١٨٥)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٠).

فهذه حال من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه، وإنما دخل فيه إما خوفًا، أو عادة على وجه لا يثبت عند المحن.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ فلم يحصل فيهما على خير، ففي الدنيا خاب مسعاه بردته وعوده في الكفر، ولم يحصل له منها إلا ما قسم له، وفي الآخرة خسر الجنة بسبب كفره، واستحق النار والعذاب الأليم.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البين الواضح، الذي لا خسران أبين منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى والمصيبة الكبرى هي: الخسارة في الدين، التي لا تعدلها ولا تشبهها خسارة، ولا جبران لها، وقد أحسن القائل:

وكل كسر فإن الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبرانُ(١)

﴿يَدْعُوا۟﴾، أي: يدعو هذا العابد الله على حرف ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لا يضره والذي لا ينفعه، عبده أو لم يعبده، أي: يدعو من دون الله آلهة لا تستطيع ضره ولا نفعه؛ لأن كل ما عبد من دون الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وإنما المالك لذلك كله هو الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ الإشارة تعود إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع، و«الضلال»: التيه عن طريق الحق، وعن طريق القصد، قال الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار ... عن الحي المضلل أين ساروا؟(٢)

﴿ٱلْبَعِيدُ﴾، أي: البعيد كل البعد عن الطريق الحق، وأي ضلال أبعد من ضلال من عدل عن عبادة الله تعالى الذي بيده الأمر والنفع والضر، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر؟!

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص٨٠).

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «خزانة الأدب» (٨/ ٥٢٦)، «الدر المصون» (١/ ٧٦).

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ اللام: لام الابتداء، و«من»: موصولة، أي: يدعو ويعبد الذي ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾، أي: ضر عبادته ﴿أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾.

فنفى أولًا ضره ونفعه بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ لأنه جماد لا يستطيع الضر ولا النفع، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ لأن مآل عبادته الضر لا النفع؛ لأن عبادته شرك بالله يوجب لصاحبه النار.

﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أو لام التوكيد، أي: لبئس هذا المعبود ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾، أي: الولي والناصر، من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، بل ضره أقرب من نفعه.

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾، أي: ولبئس المعاشر المخالط، والقرين والملازم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- ذم فريق من الناس من المكذبين من المشركين وغيرهم يجادلون ويخاصمون في وحدانية الله تعالى، وفي قدرته على البعث، وإحياء من في القبور، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، بل بالباطل وبمجرد الرأي والهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾.

٢- أن المجادلة بالعلم والهدى وأدلة الشرع لبيان الحق أمر جائز بل مشروع؛ لمفهوم الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- ذم هذا الفريق بالاستكبار، والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

٤- تهديدهم ووعيدهم بالخزي والإذلال في الدنيا، وبعذاب النار المحرق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات القيامة، والدار الآخرة، والنار وحريقها.

٦- تقريع وتوبيخ من سلك هذا المسلك وعوقب بما ذكر؛ بأن هذا بسبب عمله وكسبه، وعلى نفسها جنت براقش؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾.

٧- تمام عدل الله تعالى في مجازاته الخلائق، وتنزيهه عن الظلم؛ لقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلا يزيد في سيئات أحد منهم، ولا ينقص من حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: ١٧].

٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٩- ذم فريق من الناس يعبد الله على حرف، أي: على ضعف وشك وتردد، فإن أصابه خير اطمأن به واستقر على دينه، وإن ابتلي بمكروه ارتد ورجع إلى الكفر، وخسر دنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

١٠- أن الله يبتلي العباد بالشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

١١- لا ينبغي أن يربط ما يبتلى به الإنسان من خير أو شر بأمر دينه، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب؛ كما جاء في الحديث(١)؛ كما أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم(١).

١٢- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى خسارة الدين، فهي الكسر الذي لا ينجبر، والخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

١٣- يجب على المؤمن الثبات أمام الفتن والابتلاء، والشكر في السراء، والصبر في الضراء، وعدم الجزع، والحذر من ضعف الإيمان.

١٤- تسفيه المشرك وذمه لدعائه غير الله آلهة لا تضره ولا تنفعه، وبيان بلوغه الغاية في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾.

١٥- أن ضر عبادة آلهة من دون الله أقرب من نفعها؛ لأن ذلك شرك موجب

---

(١) سبق تخريجه.

لدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾.

١٦- أن المعبود من دون الله بئس المولى والناصر، وبئس القرين والمعاشر؛ لقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾:

لما ذكر أهل الضلال والشرك، وتوعدهم بالخزي والعذاب والخسران المبين، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات، يتمتعون بها فيها من الأنهار والنعيم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف وهو الأعمال؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لوجه الله تعالى، موافقًا لشرعه.

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى، تجري في غير أخدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل الذي يريده ويشاؤه، فيضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: ١٦].

لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ

وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ «من»: شرطية، أي: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، كما وعد عز وجل بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ﴾ عام، أي: من ظن من المؤمنين أن الله لن ينصره؛ كما وعد عز وجل بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فليمدد بحبل إلى العلو يربطه في سقف بيته.

﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وورش ورويس بكسر اللام: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ»، وقرأ الباقون بإسكانها، أي: ثم ليقطع الحبل ليختنق، أو ليقطع نَفَسَه ويموت انتحارًا وقهرًا؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين أمر محقق، وهكذا وقع، نصر الله رسوله والمؤمنين، وأرغم أنوف أعدائهم من الكفرة والمشركين والمنافقين، ووعدُه بنصر أوليائه باقٍ إلى يوم الدين.

وقيل: المعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء، ليقطع عنه ما يأتيه من الوحي، والنصر من السماء[1].

وقيل: ليقطع ما عنده من الشك بالخبر اليقين من السماء.

قال ابن كثير[2]: «وقول ابن عباس وأصحابه- يعني: القول الأول- أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فيقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة».

﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿كَيۡدُهُۥ﴾، أي: ما يكيد به للرسول ﷺ لإبطال دينه ومحاربته، وما يعمله من الأسباب لذلك.

﴿مَا يَغِيظُ﴾ «ما» موصولة، أي: الشيء الذي يغيظه، أي: فلينظر هل يذهب كيده، ويشفى الشيء الذي يجد في صدره من الغيظ والغضب الشديد بسبب نصرة الله تعالى

(١) انظر: «جامع البيان» ١٦/ ٤٧٩.
(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣٩٧.

لرسوله وللمؤمنين؟

والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لن يذهب كيده ما في صدره من الغيظ؛ لأنه لا يستطيع إطفاء نور الله، ومنع نصره لرسوله والمؤمنين.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا القرآن العظيم ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: علامات ودلالات واضحات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها؛ منة على العباد، وإقامة للحجة على الخلق.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾، أي: يوفق ﴿مَن يُرِيدُ﴾، أي: من يشاء، أي: يوفق بفضله الذي يريد ويشاء توفيقه من عباده؛ كما يضل بعدله من يشاء منهم، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم: أمة محمد ﷺ، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم: اليهود، ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ وهم من لا دين لهم، أو عبدة الملائكة، أو الكواكب، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم: أتباع عيسى عليه السلام، ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ وهم: عباد النار، ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ وهم: عباد الأصنام والأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم، فيدخل من آمن منهم الجنة، ويدخل من كفر منهم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لأنه على كل شيء شهيد، أي: مطلع على كل شيء، عالم به علم مشاهدة، يرى أفعالهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم سرائرهم وما تكنه ضمائرهم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ

وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر وتعلم.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد.

﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كل الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطير والجماد، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ – ٥٠].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، وفي التنصيص على هذه المخلوقات تأكيد لسجودها لله عز وجل؛ لأن منها ما عُبِدَ من دون الله كالشمس والقمر والنجوم وغيرها.

فبين عز وجل أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: **«أتدري أين تذهب؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها،**

يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾»(١).

وقال ﷺ: «**إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له**»(٢).

وعن سهل بن معاذ، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله تبارك وتعالى منه!**»(٣).

﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، أي: ويسجد له عز وجل كثير من الناس طوعًا منهم واختيارًا، وتعبدًا لله عز وجل بذلك.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب، فلم يسجد لله طائعًا، ولم يؤمن بالله ورسله وشرعه، بل امتنع وأبى واستكبر.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾، أي: ومن يهنه الله ويذله بالكفر وترك السجود له.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط «من»، ﴿مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«مكرم»: نكرة في سياق النفي، فتعم أيضًا، أي: فما له من أيِّ مكرم يكرمه، وقد هان على ربه بترك السجود له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: يفعل عز وجل الذي يشاؤه، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، يهدي من يشاء ويعزه بفضله، ويضل من يشاء ويذله بعدله ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في بد الخلق، صفة الشمس والقمر بحسبان ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان، الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ١٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، صلاة الكسوف ١١٧٧، والنسائي في الكسوف ١٤٨٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة، ما جاء في الكسوف ١٢٦٢، وأحمد ٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى الذي لا يتخلف بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات يتمتعون بما فيها من الأنهار والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

٢- جمع القرآن الكريم بين الوعيد والوعد، والترهيب والترغيب، فبعد أن توعد أهل الضلال والشرك بالخزي والعذاب والخسران، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات.

٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.

٤- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٥- أن من أعظم نعيم الجنان التمتع بما فيها من الأنهار المختلفة.

٦- إثبات صفة الفعل، وصفة الإرادة والمشيئة لله تعالى، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

٧- نصر الله المحقق لرسوله ﷺ ودينه وأوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة، وتخييب من ظن خلاف ذلك؛ ليختنق ويموت قهرًا وغيظًا بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾الآية.

٨- أنه مهما كاد من يريد إبطال دين الله وعدم نصره لرسوله وللمؤمنين، فإن كيده لن يُذهب غيظه؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين وعد محقق وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

وفي هذا تأييس لكل من يريد من الكافرين وغيرهم الكيد للإسلام وإطفاء نور الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

٩- الامتنان بإنزال القرآن آيات بينات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها ودلالاتها؛ لإقامة الحجة وإيضاح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾.

١٠- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: أنزلنا هذا الكتاب العظيم الذي هو أعظم وأفضل كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات وعلو القدر وعلو القهر.

١٢- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾.

١٣- أن الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ فيهدي من يريد ومن يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

١٤- أن من أراد الله تعالى وشاء هدايته، فلا سبيل إلى إضلاله؛ كما أن من أراد الله إضلاله فلا سبيل إلى هدايته.

١٥- فصل الله تعالى وحكمه وقضاؤه بين الأمم يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

١٦- علم الله تعالى الواسع، واطلاعه وشهادته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١٧- إثبات وتقرير سجود كل من في السموات ومن في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطير والجماد، وسائر المخلوقات لله تعالى؛ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

١٨- مشروعية السجود عند هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، قال ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»(١).

١٩- في تخصيص الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر بعد التعميم تأكيد سجودها لله تعالى، والرد على من عبدها أو بعضها، كالذين عبدوا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، بيان إطلاق الكفر على من ترك الصلاة ٨١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشمس والقمر والنجوم، وعبدوا الأشجار وبعض الدواب وغير ذلك.

٢٠- انقسام الناس خاصة من بين سائر المخلوقات إلى فريقين: فريق سجد لله تعالى طوعًا كسائر المخلوقات وآمن به، وفريق أبى وامتنع من السجود، فحق عليه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ ۗ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٠].

٢١- عجب وأي عجب أن يضل كثير من الناس بترك السجود لله تعالى مع سجود جميع المخلوقات له عز وجل، ومع ما كرم الله به الإنسان على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، فلله الحكمة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

٢٢- أن من أهانه الله وأذله وكتب عليه الشقاء فلا مكرم له ولا سبيل إلى إسعاده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ ۚ﴾.

٢٣- أن العزيز من أعزه الله وأكرمه بطاعته، وأن الذليل من أهانه الله وأذله بمعصيته، وأن العز بطاعة الله تعالى، وأن الذل كل الذل بمعصية الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾:

قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾.

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم فيها قسمًا: أن هذه الآية نزلت في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة[1].

وعن علي رضي الله عنه قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾»[2].

وعن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»[3].

قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾، أي: هذان فريقان، وهم المؤمنون، والكافرون؛ لقوله تعالى في ذكر جزائهم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآية، وقوله:

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٩، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في المبارزة والسلب ٢٨٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٧.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٤.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية.

وهذا القول عام يشمل جميع الأقوال، فلا ينافي ما جاء في حديث أبي ذر وعلي رضي الله عنهما: أنها نزلت في المبارزة، ولا ما قيل: إنها بين المسلمين وأهل الكتاب، بل ولا ما قيل: إنها بين الجنة والنار.

﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ فآمن به فريق وأطاعوه، وجاهدوا فيه وحاربوا أعداءه، وكفر به فريق، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أولياءه.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ مِّن نَّارٖ﴾، أي: فُصّلت وقدرت لهم ثياب من نار يلبسونها، تُشعل بهم؛ ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ ليشمل جميع أبدانهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، و«الحميم»: الماء المتناهي في الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: بالغ غاية الحرارة.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾، أي: يذاب بهذا الحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم، ويسقونه.

﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ من الشحم واللحم والأمعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾، أي: وتصهر به وتذاب جلودهم.

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١﴾، أي: مطارق عظيمة من حديد، تقمعهم بها الملائكة الغلاظ الشداد وتضربهم بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ «كلما» تفيد التكرار، أي: أنهم كلما أرادوا أو حاولوا الخروج منها لشدة ما هم فيه من العذاب والغم ومنع النفس والكرب.

قال الفضيل بن عياض: «والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل مقيدة، وإن الأيدي موثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها!»(١).

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، أي: في دركها وأسفلها.

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٥٠٣.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: وقيل لهم تقريعًا وتوبيخًا، وإهانة لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: أحسوا بشدته وكابدوه، وتجرعوا آلامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فيجمع لهم بين العذاب الحسي للأجساد بالحريق بالنار، والعذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع والإهانة لهم، الذي ينصب على القلوب فيحطم المعنويات، وهو لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدم الكلام عليه قريبًا، وفي ذكر هذا الوعد للمؤمنين بعد وعيد الكافرين جمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: يحلون في الجنات، أي: يزينون ويلبسون فيها رجالهم ونساؤهم.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، أي: يحلون فيها أساور، و«الأساور»: جمع «سوار»، وهو ما تسور وتزين به الأيدي، وفي الحديث: «تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الوضوء»(١).

﴿مِن ذَهَبٍ﴾ «من»: لابتداء الغاية، أي: هذه الأساور من ذهب.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ويعقوب بالنصب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفًا على موضع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أي: ويحلون لؤلؤًا، وقرأ الباقون بالجر: «وَلُؤْلُؤٍ» عطفًا على ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أو على ﴿مِن ذَهَبٍ﴾. و«اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أي: ولباسهم في الجنات حرير. وهذا في مقابلة

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء ٢٥٠، والنسائي في الطهارة، حلية الوضوء ١٤٩، وأحمد ٢/ ٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله في أهل النار: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

أي: ولباس أهل الجنات فيها حرير؛ سندسه وإستبرقه؛ كما قال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ولهذا قال ﷺ محذرًا من لبس الحرير في الدنيا للرجال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»(١).

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ هذا في مقابل ما يقال لأهل النار: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أي: أرشدهم الله ووفقهم إلى الطيب والحسن من القول، وألهمهم إياه، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وإلى ما يكرمون به من التهنئة والسلام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢].

وقد جاء في الحديث أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس(٢).

كما هدوا ووفقوا إلى القول الطيب والحسن في الدنيا؛ من النطق بالإيمان والشهادتين، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، لباس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه ٥٨٣٤، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٦٩، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٥- من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي الحديث: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت**»(١).

وفي رواية: قال ﷺ: «**أربع أفضل الكلام، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٢).

وقال ﷺ: «**ألا إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات**»(٣).

وقال ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»(٤).

﴿وَهُدُوٓاْ﴾، أي: أرشدوا ووفقوا، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: إلى دينه القويم وصراطه المستقيم الموصل إليه عز وجل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى جنته.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

و«الحميد»: اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، في خلقه وقدره وشرعه، في أقواله وأفعاله، وفي كل شيء؛ كما أنه سبحانه حميد شكور، يجازي على العمل القليل بالأجر العظيم، والفضل الكبير.

ويحتمل أن يكون «الحميد» وصفًا لـ«صراط»، فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ويهدي إلى الصراط المحمود، أي: الطريق المحمود، طريق الإسلام الموصل إلى الله تعالى وإلى جنته.

الفوائد والأحكام:

١ - تخاصم المؤمنين والكفار في ربهم ودينه، فالمؤمنون آمنوا بربهم وانقادوا لأمره

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
(٢) أخرجها ابن ماجه في الأدب ٣٨١١.
(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأطاعوه وجاهدوا فيه، وحاربوا أعداءه، والكفار كفروا بربهم، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأوليائه المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.

٣- عظم ما أعد للذين كفروا بربهم من صنوف العذاب، فثيابهم قطعت من نار، والحميم يصب من فوق رؤوسهم، يذيب ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تقمعهم بها الملائكة، وكلما علا بهم لهب النار أعيدوا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

٤- الجمع لأهل النار بين العذاب الحسي للأجساد، والعذاب المعنوي للقلوب، الذي لا يقل عن العذاب الحسي من التقريع والتوبيخ والإهانة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

٥- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الثواب، من دخول الجنات والتمتع بما فيها من النعيم؛ من الأنهار، والتحلي بأساور الذهب واللؤلؤ، ولباس الحرير، وهدايتهم إلى الطيب من القول، وهدايتهم إلى صراط الحميد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

٦- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٧- أن من تمام نعيم أهل الجنة إباحة أشياء لهم كانت محرمة في الدنيا؛ كالذهب والحرير كان محرمًا على الرجال فأبيح لهم في الجنة، ومثل ذلك: الخمر.

٨- أن من أعظم ما من الله به على المؤمنين أن هداهم إلى الطيب من القول، وإلى صراط الحميد في الدنيا والآخرة.

٩- إثبات اسم الله تعالى «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وصفاته وخلقه وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، وقوله وفعله، وفي كل شيء.

١٠- شتان ما بين الفريقين، وشتان ما بين الجزاءين، فالكفار يترددون بين صنوف العذاب في الجحيم، والمؤمنون يتمتعون في الجنات بألوان النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر، أي: يغطيه في الأرض ويدفنه فيها، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: أعجب الزراع.

أي: إن الذين كفروا بالله، فجحدوا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أوجب الإيمان به. والكفر: ضد الإيمان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الواو: عاطفة، وفي عطف المضارع على الماضي بيان استمرارهم على الصد، فكأن ذلك صفة لهم، أي: ومن صفة هؤلاء الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله.

ويحتمل كون الواو: حالية، أي: والحال أنهم يصدون عن سبيل الله.

والصد عن الشيء: المنع من الوصول إليه والدخول فيه، أي: ويمنعون عن سبيل الله والمسجد الحرام.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هو دينه وطريقه المؤدي إليه وإلى مرضاته وجناته، كما قال عز وجل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١]، فصدوا بأنفسهم وأعرضوا عن دين الله، ويصدون ويمنعون غيرهم من الدخول فيه.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾أي: ويصدون عن المسجد الحرام، بيت الله العتيق وكعبته المشرفة وحرمه المعظم، ومشاعره المقدسة؛ الصفا والمروة ومنى وعرفة ومزدلفة وغيرها، أي: يصدون عن المسجد الحرام من قصده من المؤمنين لقضاء مناسكهم، والتعبد والصلاة فيه، بدعوى أنهم سدنة الحرم وأولياؤه، كما فعلوا عام الحديبية، وقد رد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولهذا أباح الله- عز وجل- قتالهم في الحرم، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ قرأ حفص: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، مفعول

ثان لـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: (سواءٌ) على أنه مبتدأ وخبره ما بعده.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ثانية لـ«المسجد الحرام» وما بعده صلة الموصول، و«جعل» هنا بمعنى: «صير» تنصب مفعولين: الأول ضمير الهاء في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ والثاني ﴿سَوَآءً﴾، أو الجملة: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾.

و«جعل» تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، وهي هنا شرعية، أي: الذي جعلناه شرعًا.

﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس الذين آمنوا بالله كافة لا فرق بينهم.

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: يستوي فيه ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ﴾ أي: المعتكف الملازم له المقيم فيه لطاعة الله تعالى.

﴿وَٱلْبَادِ﴾ أي: القادم من خارجه البعيد النائي عنه، سواء كان من أهل الحاضرة أو البادية، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهما فيه سواء في العبادة والاعتكاف فيه، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع منه القادم إليه، وهما يستويان فيه في إقامة المناسك؛ من الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ورمي الجمار وغير ذلك.

ولهذا رُويَ أن النبي ﷺ امتنع أن يُبنى له بيت بمنى، وقال: «**منى مناخ من سبق**»(١).

وهما سواء في فضل الصلاة فيه والطواف به، وفي وجوب تعظيم الحرم واحترامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقال بعض المفسرين: المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول فيه، قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام»(٢) والأظهر القول الأول.

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك- تحريم مكة (٢٠١٩)، والترمذي في الحج، ما جاء أن منى مناخ من سبق (٨٨١)، وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه ابن ماجه في المناسك- النزول بمنى (٣٠٠٦)، وأحمد (٦/ ٢٠٦- ٢٠٧)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣).

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: عن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: «نزلت في عبدالله بن أبي أُنيس، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبدالله بن أُنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾» يعني من لجأ إلى الحرم ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ يعني بميل عن الإسلام»[1].

قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾: الواو: استئنافية، ﴿وَمَن﴾ شرطية، و﴿يُرِدْ﴾ فعل الشرط وجوابه ﴿نُذِقْهُ﴾ وكلاهما مجزوم بحذف حرف العلة الياء، أي: ومن يقصد وينوي في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ﴾.

وعُدي الفعل ﴿يُرِدْ﴾ بالباء؛ لأنه ضُمن معنى: «يهم»، فالباء: للتعدية، أو هي زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: «وَمَنْ يُرِدْ فيه إلحادًا»، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تنبت الدهن، وكقول الشاعر:

هـن الحرائـر لا ربـات أخمـرة ... سـود المحـاجر لا يقـرأن بالسـور[2]

أي: لا يقرأن السور.

وكقول الآخر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجو بالفرج[3]

أي: ونرجو الفرج.

وقيل: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ متعلق بحال من مفعول ﴿يُرِدْ﴾، والباء: للملابسة، أي: يرد التعدي متلبسًا بإلحاد.

والإلحاد: الميل والعدول عن الحق والقصد إلى الظلم، ونكر «إِلحَادٍ»؛ ليعم كل إلحاد وميل عن الحق أيًا كان.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «لحد».

(٣) البيت في «معجم ياقوت» بلا نسبة.

﴿بِظُلْمٍ﴾ بدل من «إِلْحَادٍ» بإعادة الجار، أو حال ثانية، والباء للملابسة، أي: متلبسًا بظلم، أو متعلق بـ﴿يُرِدْ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الظلم.

والظلم لغة: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]. أي: بشرك.

والمعنى: ومن يقصد وينو في المسجد الحرام بميل وعدول عن الإسلام وعن الحق ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك أو استحلال لحرمة الحرم، وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، وارتكاب للمعاصي فيه من القتل أو الاحتكار وغير ذلك.

رُوِيَ أن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- كان له فسطاطان: أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدَّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «كلا والله، وبلى والله»[(١)].

ورُوي عن يعلى بن أمية- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**احتكار الطعام بمكة إلحاد**»[(٢)].

ورُوي أن عبدالله بن عمر أتى عبدالله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله- تبارك وتعالى- فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكن هو**»[(٣)].

﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿نُّذِقْهُ﴾ جواب الشرط.

﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، و﴿أَلِيمٍ﴾ «فعيل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجع حسًّا ومعنى.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥١٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٥)، وفيه «عبدالله بن عمرو» بدل «ابن عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٦)، وروى نحوه أيضًا (٢/ ٢١٩)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

والمعنى: نعذبه عذابًا شديدًا مؤلمًا موجعًا، يذوقه ويتجرع ألمه نفسيًّا وبدنيًّا في الدنيا والآخرة.

وهذا الوعيد لمن هَمَّ بالإلحاد فيه بظلم، وهو لمن ارتكب ذلك آكد وأشد وأعظم.

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لو أن رجلًا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بـ«عدن أبين»[١] أذاقه الله من العذاب الأليم»[٢].

وعنه- رضي الله عنه- قال: «ما من رجل يهم فيه بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلًا بـ«عدن أبين» هَمَّ أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم»[٣].

ولهذا لما همَّ أبرهة الأشرم بهدم الكعبة هو ومن معه من أصحاب الفيل عذبهم الله- عز وجل، فأرسل عليهم طيرًا أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٤، ٥] فصاروا عبرة ونكالًا لغيرهم.

وقال ﷺ: «**يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...**»[٤].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على الكافرين الذين أعرضوا بأنفسهم عن دين الله، ويَصدون الناس عن الدخول فيه، ويصدون عن المسجد الحرام القاصدين له لقضاء المناسك والتعبد فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. الآية.

٢- جمع كفار مكة بين الكفر والصد عن دين الله وعن المسجد الحرام، وهكذا يعمد الطغاة والمكابرون كزعيمهم إبليس- لعنه الله- إلى جر الناس إلى الكفر والهلاك

(١) «أبين» موضع في جبل عدن، يقال: إنه سمي بأبين بن زهير بن حمير- انظر: «معجم البلدان» (١/ ١٠٩- ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٣، ٢٤٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في البيوع- ما ذكر في الأسواق (٢١١٨)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وأخرجه مسلم في الفتن- الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٣)، من حديث حفصة- رضي الله عنها.

وكبهم في النار، بل إن بعض الفساق ومرضى القلوب يحبون ويعجبهم أن يجروا الناس إلى ما هم عليه من الفسق والمعاصي لغرض في أنفسهم ومرض في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

٣- إثبات الإلوهية لله- عز وجل؛ لأن معنى ﴿ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.

٤- إثبات حرمة الكعبة والبيت العتيق؛ لأن الله- عز وجل- سماه المسجد الحرام؛ ولهذا قال ﷺ: «**إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه ولا يُختلى خلاه، ولا يُنفَّر صيده، ولا تُلتقط لقطته إلا لمنشد...**» الحديث[1].

٥- أن الناس سواء في المسجد الحرام في أداء المناسك والصلاة؛ المعتكف منهم والبادي، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع عنه القادم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: في السكن والنزول في الحرم، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «**ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام**»[2].

ولهذا اختلف الفقهاء رحمهم الله- في حكم تَمَلُّك رباع مكة وتوريثها وبيعها وتأجيرها، فذهب جمع من السلف منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجمع من الفقهاء إلى أن رباع مكة تُملك وتورث وتباع وتؤجر.

وحملوا الآية على أن الناس سواء في المسجد الحرام في قضاء المناسك والاعتكاف والتعبد، وفي وجوب احترامه وتعظيمه، واستدلوا بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩].

ففي هذه الآيات ونحوها أضاف الديار إليهم إضافة تمليك.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غدًا في دارك بمكة؟ فقال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور**» وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي- رضي الله عنهما- شيئًا؛ لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين.. ثم قال: «**لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر**»(١).

وعن أبي سفيان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**»(٢).

فنسب دار أبي سفيان إليه، وهي نسبة تملك، وكذا قال: «**من أغلق بابه فهو آمن**» وهذا يفيد أيضًا معنى التملك للباب وللدار.

وأيضًا فإن جميع أهل مكة بقيت لهم ديارهم بعد الفتح، يتصرفون بها بما شاؤوا من بيع وإجارة ويتوارثونها.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم»(٣).

وقياسًا لأرض مكة على غيرها من الأرض.

ويستثنى من جواز البيع بقاع المناسك بالإجماع.

وذهب طائفة من الفقهاء إلى أن رباع مكة لا تملك ولا تورث ولا تؤجر، منهم إسحاق بن راهويه وهو مذهب طائفة من السلف(٤).

وحملوا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ على أن المراد به السكنى في الحرم، قالوا: فالناس فيه سواء.

واستدلوا بما رواه علقمة بن نضلة- رضي الله عنه- قال: «توفي رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الحج- توريث دور مكة وبيعها وشرائها (١٥٨٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض- ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد- فتح مكة (١٧٨٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٤).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا في الخصومات- الربط والحبس في الحرم، وأخرجه موصولًا عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٧)، (٩٢١٣)، والبيهقي في «سننه» (٦/ ٣٤- ٣٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٦).

وأبوبكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب[١]، من احتاج سكن، ومن استغنى أَسكن»[٢].

وعن عطاء: «أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بَوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان ظهري[٣]. قال: فذلك إذًا»[٤].

وعن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: «يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابًا لينزل البادي حيث شاء»[٤].

وعن عبدالله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: «لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها»[٥].

وقال بعض الفقهاء: تملك بيوت مكة وتورث ولا تؤجر- جمعًا بين الأدلة.

٦- الوعيد الشديد لمن ألحد بظلم في الحرم، أو أراد ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٧- عظم حرمة الحرم؛ لأن الله- عز وجل- رتب على الإلحاد فيه بظلم العذاب الأليم.

* * *

---

(١) السوائب: جمع سائبة، كأنها سيبت وتركت لله- عز وجل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك- أجر بيوت مكة (٣١٠٧).

(٣) الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتركب. أي: يحبسان لي إبلي.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٦- ١٤٧) (٩٢١٠، ٩٢١١).

(٥) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ١٤٨) (٩٢١٤).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾.

أنكر الله- عز وجل- على الكفار صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وتوعد من أراد الإلحاد فيه والظلم بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك بالتذكير بنعمة الله- عز وجل- ببناء البيت، وبيان عظمة المسجد الحرام وما بني له، وهو عبادة الله- عز وجل- والصلاة والحج وذكر الله- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿بَوَّأْنَا﴾ أي:هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت وأسكناه فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

قال الشاعر:

كـــم مـــــن أخ لي ماجـــــد ... بوَّأتـــــه بيَـــــديَّ لحـــــدا[1]

﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ هو إبراهيم الخليل- عليه السلام- أبوالأنبياء، وأفضل أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي:موضع بناء البيت العظيم والكعبة المشرفة.

والمعنى: وإذ هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت الحرام، وأرشدناه إليه، وأسكناه فيه، وأذنا له في بنائه.

(١) البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب ا الزبيدي. انظر: «ديوانه» ص٨١.

فإبراهيم- عليه السلام- هو أول من بنى البيت العتيق.

وهو أول بيت بُني للناس لعبادة الله- تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بيت المقدس**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»[1].

﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ ﴿أَن﴾ تفسيرية. أي: وعهدنا إليه وأمرناه ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئًا، أي: لا تشرك بي شيئًا من الشرك؛ لا شركًا أكبر ولا أصغر، ولا جليًا ولا خفيًا، ولا تشرك بي شيئًا من الأشياء أيًا كان؛ لا شيئًا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا قليلًا ولا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ إشارة إلى أن القصد من بناء البيت هو عبادة الله- عز وجل- وعدم الإشراك به. قال ابن كثير[2]: «أي: ابنه على اسمي وحدي».

والشرك: دعوة غير الله وإشراكه مع الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالعبادة والنذر والذبح والتوكل والاستغاثة ونحو ذلك، قال تعالى حكاية لقول المشركين: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦- ٩٨].

وفي ذكر نهيه- عز وجل- إبراهيم- عليه السلام- عن الشرك- وهو إمام الحنفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/ ١٥٠، ١٦٦، ١٦٧).

(٢) في «تفسيره» (٥/ ٤٠٩).

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]، فيه إنكار على المشركين من قريش، وتقريع وتوبيخ لهم على شركهم بالله، وبيان أن البيت إنما أُسس من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وعلى تقواه.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، أي: وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس المعنوية والحسية، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على الطائفين والمصلين وغير ذلك.

ولهذا نهى الله- عز وجل- عن القتال فيه، قال عز وجل: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾ [البقرة: ١٩١].

ونهى المشركين من قربه، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأضاف عز وجل البيت إليه لأنه رب البيت؛ خالقه وواضعه ومالكه والمتصرف فيه، وفي ذلك تشريف وتعظيم للبيت وترغيب في تطهيره وتعظيمه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهره من الشرك والمعاصي وغير ذلك للطائفين والقائمين والركع السجود، الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

و«الطائفين» جمع طائف، والطواف بمعنى الدوران على الشيء والتردد عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [النور: ٥٨].

وقوله ﷺ في الهرة: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**»[(١)].

والمعنى: والطائفين بالبيت وعلى الكعبة المشرفة.

والطواف خاص بالبيت الحرام الذي بناه إبراهيم- عليه السلام- بأمر ربه- عز

---

(١) أخرجه أبوداود في الطهارة (٧٥)، والنسائي في الطهارة (٦٨)، والترمذي في الطهارة (٩٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٦٧)- من حديث أبي قتادة- رضي الله عنه.

وجل، والذي جعله الله قبلة للمسلمين في صلاتهم ومثابة للناس وأمنًا، وقيامًا للناس، كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فلا يجوز التعبد لله- عز وجل- بالطواف على غير الكعبة والبيت الحرام، سواء كان المَطُوفُ به مسجدًا أو قبرًا، أو غير ذلك.

ولكون الطواف خاصًّا بالبيت الحرام قدَّمه على القيام والركوع والسجود، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ علمًا أن الصلاة أفضل العبادات.

﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ جمع قائم، أي: القائمين في الصلاة؛ لقوله بعده: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقدَّم القيام؛ لأنه في الأصل مقدَّم في الصلاة، فهو أول أركان الصلاة، ولأنه موضع قراءة الفاتحة وهي ركن أيضًا من أركان الصلاة، وموضع قراءة القرآن مطلقًا في الصلاة، وهو أفضل الذِّكر.

﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ جمع راكع. والركوع: هو الركن الثالث من أركان الصلاة، وهو محل تعظيم الرب؛ لقوله ﷺ: «**أما الركوع فعظِّموا فيه الرب**»(١).

﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع ساجد. والسجود: هو الركن الخامس من أركان الصلاة، وهو السجود على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، وتعفيرها بالتراب تعظيمًا لله- عز وجل.

وأصل السجود: التطامن والتواضع والخضوع لله- عز وجل.

ويطلق على الانقياد لله- عز وجل- عمومًا، ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، لأنه من أعظم أركان الصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد- كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم»[1].

والقيام والركوع والسجود من أعظم وأهم أركان الصلاة، ولهذا خصها بالذكر؛ لأن في القيام قراءة القرآن أفضل الكلام، وفي الركوع والانحناء تعظيم الرب، وفي السجود القرب من الله عز وجل.

وقرن بين الطواف والصلاة في الآية؛ لأن الطواف لا يصح إلا بالبيت الحرام، والصلاة لا تصح إلا إليه. وقدم الطواف على الصلاة لاختصاصه بالبيت.

وفي آية البقرة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [الآية: ١٢٥]، قدم أيضًا الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بالحرم، كما قدم الاعتكاف على الصلاة لاختصاص الاعتكاف بالمساجد.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾.

قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ الأمر لإبراهيم- عليه السلام، والأذان هو الإعلام والنداء، والإخبار، أي: وناد في الناس وأخبرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، أي: وإعلام من الله ورسوله.

قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء[2]

أي: أَعْلَمتنا.

و﴿ٱلنَّاسِ﴾ يعم كل البشر، أي: كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك.

والمعنى: وأعلم الناس وأخبرهم وناد بهم بأن يحجوا بيت الله الحرام، أو بوجوب الحج عليهم.

والحج لغة: القصد. وشرعًا: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) البيت للحارث بن حلزة. انظر: «ديوانه» ص١٩.

وقد رُوي أن إبراهيم- عليه السلام- قال: «يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّن وعليَّ البلاغ». فقام إبراهيم- عليه السلام- على الحجر، أو على المقام، وقيل: على الصفا، أو على أبي قبيس، فنادى ألا إن ربكم قد اتخذ بيتًا، وأمركم أن تحجوه، أو إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، فخفضت له الجبال رؤوسها فسمعه ما بين السماء والأرض، فأجابه كل من سمعه «لبيك اللهم لبيك» هكذا روي عن جمع من السلف[1].

وهكذا قال محمد ﷺ لأمته: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**»[2].

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ﴿رِجَالًا﴾ حال، وهي: جمع راجل، والراجل: هو الذي يمشي على رجليه، أي: يأتوك للحج حال كونهم ماشين على أرجلهم.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله: ﴿رِجَالًا﴾، أي: ويأتوك حال كونهم راكبين على كل ضامر.

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ تدل على الكثرة، أي: وعلى ضوامر كثيرة.

والضمور: الضعف والهزال بسبب الركوب وطول السير وبعد الشقة. والضمور أيضًا قلة لحم البطن، وهو من محاسن الرواحل والخيل؛ لأنه يعينها على السير والحركة.

والمعنى: يجيئك الناس للحج منهم الماشي على رجليه، ومنهم الراكب على الإبل والخيل الضوامر، التي أضمرها السير والركوب وبُعد الشقة.

وفي تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة إلى أن الحج يجب على من قدر عليه ولو ماشيًا، إذا كان يستطيع ذلك بلا مشقة شديدة، فليس من شرطه أن يجد مركبًا.

وفيه إشارة أيضًا إلى عظم أجر الحج ماشيًا؛ لأن الأجر على قدر المشقة، ولا شك أن الحج على الأقدام أشق، فهو أفضل إذا لم يجد مركبًا، أما إذا وجد مركبًا فالسُّنَّة أن يركب كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد أَخذ من هذا بعضهم أن الحج ماشيًا أفضل؛ لأن الله قدمه، ولما فيه من المشقة والدلالة على علو الهمة وقوة العزيمة. وقالوا: إنما حج الرسول ﷺ راكبًا رفقًا بأمته،

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٥١٤- ٥١٧)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وطاف راكبًا ليرى الناس هيئة الطواف.

وأكثر أهل العلم على أن الحج راكبًا أفضل؛ لأن الرسول ﷺ حج راكبًا، بل وطاف بالبيت وتنقل بين المشاعر ورمى الجمار وهو راكب ﷺ- مع قوته وقدرته على المشي، وهو الأسوة ﷺ والقدوة للأمة، وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا- كما قالت عائشة- رضي الله عنها[١].

وليس المقصود من الحج ولا من غيره من العبادات المشقة، وإنما المهم أداء العبادة كما شرعها الله- عز وجل- وبيَّنها رسوله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**»[٢]، وقال في أمر الصلاة: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[٣].

﴿يَأْتِينَ﴾ هذه الضوامر.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ الفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، وغلب على الطريق أي: من كل طريق ومسلك وسبيل، وجمعه «فجاج»؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، يقال: بئر عميقة، أي: بعيدة القعر، أي: يأتين هذه الضوامر من كل طريق ومسلك بعيد، استجابة لنداء إبراهيم- عليه السلام، ودعائه في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالمسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم كلهم يَحِنون إلى البيت العتيق، ويحجونه، ويزورونه، ولا يكاد أحد منهم يسلو عنه، أو يشبع منه مهما حج وتردد إليه.

وقد أحسن القائل:

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٦)، وأبوداود في المناسك (١٧٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٦٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٨)- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١)، والدارمي في الصلاة (١٢٥٣)- من حديث مالك بن الحويرث- رضي الله عنه.

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر نكابده ... ومن أقام على عذر كمن راحا[(١)]

قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾.

قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾، اللام للتعليل، ونكِّرت ﴿مَنَٰفِعَ﴾ للتعظيم والتكثير، أي: لأجل أن يحضروا ويحصلوا على منافع عظيمة كثيرة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، فيستفيدوا من الحج وأداء مناسكه كما شرع الله- عز وجل- وفي التعبد في تلك البقاع الطاهرة تكفير السيئات ورفعة الدرجات والفوز بالجنات.

كما قال ﷺ: «**من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[(٣)].

ويستفيدوا من منافع البدن والهدي وطلب الفضل والربح بالتجارة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ويستفيدوا من الحج أيضًا منافع أخرى دينية ودنيوية بتعلم أمور دينهم وأحكام حجهم، وتقوية الألفة والترابط بينهم، والتعاون على البر والتقوى، ودراسة مصالحهم المشتركة، اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا وأمنيًا.

وهذا لن يتأتى إلا بالنظرة الجدية في الحكمة من مشروعية الحج، والصدق مع الله في طلب هذه المنافع، والاستزادة من الخير، أما في غياب هذه النظرة، وغياب الصدق مع الله في طلب هذه المنافع، كما هو حال كثير من الحجاج اليوم فلن تدرك هذه المنافع، بل إن مما يؤسف له أن من الحجاج من ليس له من حجه إلا اللغو والفسوق والجدال

---

(١) البيتان لأبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي. انظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٤/ ٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، والترمذي في الحج (٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وأذية الآخرين ومزاحمتهم ونحو ذلك.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: ويتقربوا إلى الله- عز وجل- بنحر وذبح الهدي والأضاحي[(١)] ويذكروا اسم الله عليها عند النحر والذبح، بقولهم: بسم الله والله أكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى في صيد الجوارح: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷺ: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا**»[(٢)].

﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أي: في أيام محددة بوقتها وعددها، وهي يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة بعده، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الاهتمام بحسابها لما فيها من النسك وأعمال الحج وذكر الله.

﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي:على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام، من الإبل والبقر والضأن والمعز، قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]، فلا تجزئ الأضحية من غيرها.

وسميت بهيمة لما في نطقها من الإبهام، وسميت بالأنعام لما في مشيها من اللين والنعومة، وقيدها بالأنعام لأن غيرها من البهائم لا يتقرب إلى الله بذبحه كالخيل والبغال والحمير وغيرها.

والمجزئ في الهدي واجبًا كان أو تطوعًا وكذا في الأضحية شاة، أو سبع بدنة أو

---

(١) الهدي: ما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام، والأضاحي: ما ينحر ويذبح من بهيمة الأنعام يوم النحر وأيام التشريق، سميت بذلك لأنها تذبح ضحى بعد صلاة العيد.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٩١)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٧)- من حديث رافع بن خديج- رضي الله عنه.

سبع بقرة[١]، ما عدا إفساد الحج ففيه بدنة كاملة، وتجزئ البدنة عن سبعة، وكذا البقرة. والشاة أفضل من سبع البدنة وسبع البقرة.

ويجزئ في الأضحية عن الواحد وأهل بيته شاة؛ لأن النبي ﷺ ضحى بكبشين أقرنين أحدهما عنه وعن أهل بيته، والآخر عمن لم يضح من أمته[٢].

والسن المجزئ في الهدي والأضحية جذع من الضأن، وهو ما له ستة أشهر، وثني من غيرها، وهو من الإبل ما كان له خمس سنوات، ومن البقر ما له سنتان، ومن المعز ما له سنة؛ لحديث: «**لا تذبحوا إلا مسنة، فإن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن**»[٣].

ويشترط سلامتها من العيوب البيّنة، قال ﷺ- فيما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: «**أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البيِّن عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تُنقي**»[٤].

وفي قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ دون الأمر بالنحر والذبح إشارة إلى أن المقصود من ذلك هو ذكر اسم الله- عز وجل- عليها والتقرب إليه بها.

وفي قوله: ﴿أَيَّامٍ﴾ ما يشمل الليل والنهار فيجوز ذبح الهدي والأضاحي نهارًا وليلًا لكن النهار أولى وأفضل، وقيل: لا يجوز الذبح ليلًا.

كما أن في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ما يوجب استشعار أنها من الله، ينبغي شكره عليها بالإخلاص له بالعبادة، ولهذا يشرع أن يقول بعد التسمية

---

(١) هذا بخلاف العقيقة فلا يجزي فيها سبع بدنة أو سبع بقرة، ولا يجوز الاشتراك فيها.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي- سن الأضحية (١٩٦٣)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٨)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤١)، من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦٩)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٧)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤)- من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

والتكبير «**اللهم هذا منك ولك**»(١).

ومن ذكر اسم الله- عز وجل- ومما يشرع في هذه الأيام صلاة العيد وخطبتاه يوم النحر، والتكبير والتهليل والتحميد، وأداء بقية مناسك الحج من المبيت بالمزدلفة وبمنى والطواف والسعي ورمي الجمار وغير ذلك.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالأيام المعلومات عشر ذي الحجة التي أقسم الله- عز وجل- بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢]، فهي أفضل أيام السنة؛ لمشروعية الأعمال الصالحة كلها فيها وفضلها، واختصاصها بأداء فريضة الحج فيها.

وقال بعض أهل العلم: العشر الأواخر من رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها ورجح ابن القيم أن أيام عشر ذي الحجة أفضل للحديث الوارد في فضلها، وأن لياليَ عشر رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها جمعًا بين الأدلة.

فهذه الأيام العشر أيام معلومات مفضلة، والعمل فيها أفضل من غيرها.

فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**ما العمل في أيام أفضل منها في هذه**» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**»(٢).

ومن أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام الحج والعمرة، والتكبير والتهليل والتحميد، فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»(٣).

وقد ثبت عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما: «**أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما**»(٤).

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٩)، وأبوداود في الصوم- صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم- ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصوم- صيام العشر (١٧٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥، ١٣١، ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري معلقًا- في كتاب العيدين- فضل العمل في أيام التشريق (٢/ ٤٥٧).

كما أن من أفضل الأعمال وآكدها في هذه الأيام العشر صيام يوم عرفة؛ لما رواه أبوقتادة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده**»(١).

وهو من أفضل أيام العشر، قال ﷺ: «**ما رُئي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما أُريَ يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة**»(٢).

كما أن من أفضل هذه الأيام يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر- فيه تؤدى كثير من مناسك الحج من الرمي والذبح والحلق والطواف.

ولا مانع من حمل الأيام المعلومات على عشر ذي الحجة، وعلى أيام التشريق، فكلها أيام معلومات مفضلة.

قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ كقوله فيما يأتي: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

والخطاب في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾: للمُهدي، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لتأكيد مشروعية الأكل والإطعام من هذه الذبائح، والامتنان عليهم بذلك، أي: فكلوا مما ذبحتم من بهيمة الأنعام من الهدي والأضحية.

وظاهر قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ وجوب الأكل من الهدي والأضحية، وهذا الظاهر غير مراد؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأكثر أهل العلم على عدم وجوب الأكل من الهدي والأضحية؛ لأن هذا الأمر لرفع ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج من الأكل منها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام- استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٢)، وأبوداود في الصوم (٢٤٢٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»- كتاب الحج (٩٦٢)- من حديث طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه.

فالأمر بالأكل محمول على الرخصة أو الاستحباب، وهكذا قوله ﷺ بالنسبة للأضحية: «**كلوا وأطعموا وادخروا**»(١)، وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**»(٢).

وقد أهدى النبي ﷺ مائة بدنة، نحر منها ثلاثًا وستين بيده الشريفة، ونحر بقيتها علي بن أبي طالب- رضي الله عنه، ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة فطبخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها(٣).

ويستحب جعلها أثلاثًا، يأكل ثلثًا، ويهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث؛ لقوله- ﷺ: «**كلوا وأطعموا وتصدقوا**»(٤).

وإن أكل أكثرها أو تصدق به جاز ذلك.

وينتفع بجلودها وأوبارها وأشعارها، أو يدفع ذلك لمن ينتفع به، ولا يبيع منها شيئًا، ولا يعطي الجزار أجرته منها؛ لما رواه علي- رضي الله عنه- قال: أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بدنه، فقال: «**اقسم جلودها وجلالها، ولا تعط الجزار منها شيئًا**»(٥).

لكن لو أعطى الجزار منها على سبيل الإهداء، أو تصدق عليه منها لفقره جاز ذلك.

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ وهو محمول على الاستحباب عند أكثر أهل العلم، وقيل بوجوبه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٩)، ومسلم في الأضاحي (١٩٧٤)- من حديث سلمة بن الأكوع- رضي الله عنه. وأخرجه النسائي في الضحايا (٤٤٢٩)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٠)- من حديث بريدة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧١)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨١٢)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣١)- من حديث عبدالله بن واقد- رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج- حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك- صفة حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والترمذي في الحج- حج النبي ﷺ (٨١٢)، وابن ماجه في المناسك- حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤)- من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٧١٦)، ومسلم في الحج (١٣١٧)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٩).

و﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي عليه آثار البؤس وشدة الحاجة والفقر في حاله وهيئته.

و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية.

وقيل: البائس الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال وهو الفقير، ولهذا لم يعطف أحد الوصفين على الآخر؛ لأنه كالبيان له، وفي وصفه بهما معًا تأكيد شدة حاجته، وتحريك المشاعر للعطف عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ قرأ أبوعمرو وهشام عن ابن عامر، وورش عن نافع وقنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب بكسر اللام «لِيقضوا» وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿لْيَقْضُوا۟﴾.

﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، واللام: للأمر، وهي كذلك في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ ولام الأمر تأتي غالبًا ساكنة بعد الحروف الثلاثة: ثم، والواو، والفاء، كما في قوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٩].

والتفث: الوسخ من طول الشعر والأظفار والشعث، أي: ثم ليزيلوا درنهم ووسخهم بإزالة هذه الأشياء، وذلك بإتمام مناسك الحج من الطواف والرمي وغير ذلك، والخروج من الإحرام؛ بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط والاستحداد وتقليم الأظافر ولبس الثياب.

قال أمية بن الصلت[1]:

حفّوا رؤوسهم[2] لم ينزعوا تفثًا ... ولم يسلوا لهم قملًا وصئبانا

وقال بعض المفسرين: التفث: مناسك الحج كلها، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر- رضي الله عنهما، ويقويه قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾.

﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الواو في الموضعين عاطفة.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٦٢).

(٢) يقال: حف رأس الإنسان، أي: شعث وبعد عهده بالدهن. انظر: «لسان العرب» مادة: «حفف».

قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بكسر اللام من قوله: ﴿وَلْيُوفُوا﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ وقرأ الباقون بإسكان اللام منهما.

وقرأ أبوبكر عن عاصم بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوَفّوا) والباقون بإسكان الواو وضم الفاء بدون تشديد.

والنذور: جمع نذر، والنذر: ما أَلزم الإنسانُ به نفسه وأوجبه عليها مما لم يكن واجبًا عليه في الأصل، أي: وليوفوا نذورهم التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدي وغير ذلك بإتمامها وقضائها، وأيضًا وليتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة؛ لأن مجرد الإحرام بهما يوجب إتمامهما، حتى ولو كانا غير واجبين.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الأمر: للوجوب، والطواف بالبيت: الدوران عليه.

أي: وليطوفوا بالكعبة المشرفة طواف الحج، الذي هو ركن من أركان الحج، ويسمى طواف الإفاضة، وطواف الزيارة، وبه يحصل التحلل الأول، وبه يحصل قضاء التفث، كما صح أنه ﷺ لما رجع إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت(١).

وقيل: المراد بالطواف في الآية ما يشمل طواف الحج، وطواف الوداع.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»(٢).

وعن أبي جمرة قال: قال لي ابن عباس: «أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت»(٣).

وسمي البيت بـ﴿الْعَتِيقِ﴾؛ لأنه أفضل وأكرم وأقدم بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران: ٩٦].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٥٤)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤)- من حديث جابر- رضي الله عنه الطويل في صفة حجته ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٥٥)، ومسلم في الحج (١٣٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

ولأنه أعتق من تسلط الجبابرة وظهورهم عليه، فلم يرده أحد بسوء إلا هلك كما حصل لأبرهة الأشرم وغيره.

عن عبدالله بن الزبير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط**»[١].

قال السعدي[٢] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: «وهذا أمر بالطواف خصوصًا بعد الأمر بالمناسك عمومًا لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه، ولعله- والله أعلم- أيضًا: لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعًا لنسك أم مستقلًا بنفسه».

الفوائد والأحكام:

١- تذكير الله- عز وجل- بما منّ به على إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وأتباعه المؤمنين، في إرشاده إلى مكان البيت، وتهيئته له لعبادة الله وحده لا شريك له، وحج بيته والصلاة فيه، وهي نعمة ومنة على نبينا محمد ﷺ وأمته، لهذا ذكَّره- عز وجل- بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.

٢- عظم منزلة نبي الله إبراهيم الخليل- عليه السلام، فهو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، وثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

٣- عظم مكانة البيت الحرام الذي بناه إبراهيم- عليه السلام، وأنه أعظم وأقدم، بل وأول بيت وضع للناس؛ لقوله تعالى في أول الآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: البيت العظيم، ولقوله في آخر الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ ولهذا أضافه الله- عز وجل- إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ تشريفًا وتعظيمًا له.

٤- عهد الله- عز وجل- إلى إبراهيم- عليه السلام- بتطهير البيت الحرام من الشرك

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧٠)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وهكذا روي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٠).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٠).

والمعاصي والأنجاس المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٥- عظم خطر الشرك؛ لأن الله بدأ بالنهي عنه، ونهى عنه إبراهيمَ- عليه السلام- إمامَ الحنفاء- وإذا كان إبراهيم- عليه السلام- إمام الحنفاء منهيًا عن الشرك فغيره منهي عن ذلك من باب أولى وأحرى.

٦- أن المقصود من بناء البيت الحرام توجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده والبُعد عن الشرك.

٧- وجوب تطهير البيت الحرام من جميع الأرجاس والأدناس المعنوية والحسية.

٨- التنويه بمكانة المؤمنين الطائفين بالبيت والمصلين فيه والعناية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٩- عظم منزلة الطواف والصلاة في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

١٠- تقديم ذكر الطواف في الآية على أركان الصلاة- القيام والركوع والسجود- مع أن الصلاة أفضل وأهم العبادات البدنية؛ لأن الطواف مختص بالبيت الحرام، إذ لا يجوز الطواف بغيره.

١١- أن من أعظم أركان الصلاة القيام والركوع والسجود؛ لهذا خصها بالذكر من بين أركان الصلاة وحالاتها.

١٢- فرض الحج على الناس منذ عهد إبراهيم عليه السلام وأمر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بالنداء والإعلام بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾.

وهكذا دل القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الحج على هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ﷺ: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)، والترمذي في العلم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في المقدمة (١، ٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا**»(١).

١٣- التنويه بشأن المجيبين داعي الله لحج البيت الحرام، وكثرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧].

١٤- جواز الحج رجالًا وركبانًا على الإبل وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

١٥- في تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة- والله أعلم- إلى أنه ليس من شرط الحج وجود المركب إذا استطاعه الإنسان ماشيًا بلا مشقة شديدة.
وليس فيه دلالة على فضل الحج ماشيًا لمن لم يجد المركب، كيف وقد حج ﷺ راكبًا، وقد قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».
لكن من لم يجد مركبًا وحج ماشيًا أعظم أجرًا؛ لأن الأجر على قدر المشقة، وإلا فالأفضل الحج راكبًا تأسيًا بالنبي ﷺ، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

١٦- أن الحج كما يجب على القريب من البيت يجب على البعيد إذا استطاعه، والأجر على قدر المشقة.

١٧- أن من حكمة مشروعية الحج شهود المنافع الدينية والدنيوية والأخروية، وذكر اسم الله بالتلبية وأداء مناسك الحج والتكبير والتهليل والتحميد والتسمية على نحر وذبح الهدي والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.
وينبغي للمسلمين أن يتأملوا هذا المقصد الأسمى من فرضية الحج فيستغلوا هذا الموسم العظيم لما يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم وأخراهم.

١٨- مشروعية الهدي في هذه الأيام المعلومات؛ هدي التطوع، أو الهدي الواجب

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان (١٦)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩)- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

كهدي التمتع والقران وغير ذلك، وهي: يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده، ويبدأ ذبح الهدي بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ لم ينحر هديه ولا هدي أزواجه إلا بعد أن رمى جمرة العقبة، وكذا فعل أصحابه- رضي الله عنهم.

كما تشرع في هذه الأيام المعلومات الأضحية، وهي سنة مؤكدة عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم بوجوبها منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]، أي: وانحر أضحيتك، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤].

وقد أقام النبي ﷺ في المدينة عشر سنوات يضحي[(١)].

ويقوي القول بعدم وجوبها قوله ﷺ: «**إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**»[(٢)]. فقوله: «**وأراد أحدكم أن يضحي**» يدل على عدم وجوبها.

وهي من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسًا**»[(٣)].

ووقت ذبحها من بعد صلاة العيد وخطبتيه إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، عن البراء بن عازب- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا،**

---

(١) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩١)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦١)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) سيأتي تخريجه.

ومن نحر قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء»[١].

فإن كان في مكان لا تقام فيه صلاة العيد ذبح بعد ارتفاع الشمس قدر رمح ومضي وقت كاف لصلاة العيد وخطبتيه.

وقيل: أيام الذبح فقط يومان بعد العيد، وقيل بل يوم واحد بعد العيد، والأصح أن أيام التشريق الثلاثة مع يوم العيد كلها وقت للذبح، وفي الحديث: «**وأيام التشريق كلها ذبح**»[٢].

فهذه الأيام كلها ذبح، وهي سواء في حرمة صيامها، وفي التكبير فيها، ورمي الجمار، وغير ذلك.

١٩- مشروعية ذكر اسم الله على الهدي والأضاحي وغيرها من الذبائح عند ذبحها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى وجوب التسمية عند الذبح؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى في الجوارح: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله ﷺ في حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: «**ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه**»[٣].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية عند الذبح سنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٥)، ومسلم في الأضاحي- وقتها (١٩٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، من حديث جبير بن مطعم- رضي الله عنه، وكذا رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٤٣)، والبزار في «الكشف» (١٢٠٦)، وصحح البيهقي إرساله، وضعفه الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٦١، ٤/ ٢١٣)، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٣١٨): «منقطع لا يثبت وصله» وذكر أنه ورد من وجهين مختلفين يشد أحدهما الآخر، واختار العمل به.

(٣) سبق تخريجه.

وذهب الجمهور إلى أنها تجب عند الذكر، وتسقط عند النسيان.

والصحيح القول بوجوب التسمية عند الذبح، وقد ذكرت تحقيق القول في هذا في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، في تفسير سورة المائدة.

٢٠- أن الرزق كله من الله- عز وجل- من بهيمة الأنعام وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ ولهذا شرع أن يقول عند ذبح الأضحية والهدي بعد التسمية والتكبير: «**اللهم هذا منك ولك**»[(١)].

٢١- أن مكان ذبح الهدي البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال ﷺ: «**كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر**»[(٢)].

ويفرق لحمه على مساكين الحرم.

٢٢- أن الهدي والأضحية لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم؛ لأن الإبل أكبر وأنفع للفقراء، وكذا البقر أنفع من الغنم.

٢٣- استحباب الأكل من الهدي والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ وبخاصةً ما كان منها تطوعًا، أو واجبًا بسبب تمتع أو قران، وقيل بوجوب الأكل منها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ أهدى مائة ناقة وأمر بكل منها ببضعة فطبخت وأكل منها وحسا من مرقها[(٣)]، وفيها دم قران لأنه ﷺ كان قارنًا.

أما ما كان منها واجبًا بسبب ترك واجب أو ارتكاب محظور، أو فوات الحج أو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبوداود في المناسك (١٩٣٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٤٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٦)، من حديث جابر رضي الله عنه، و أخرجه أحمد أيضًا (٤/ ٨٢)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

إفساده أو إفساد العمرة، أو الإحصار فلا يجوز لصاحبه الأكل منه.

وقيل: يجوز له الأكل منه ما لم يكن جزاء صيد أو فدية أذى. وقيل: يجوز الأكل من ذلك كله.

والصحيح القول الأول؛ لأنه دم جبر.

بخلاف هدي التمتع والقران فأكثر أهل العلم على جواز الأكل منه، بل على استحبابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، ولأنه دم شكر لله حيث مكَّنه من الجمع بين نسكي الحج والعمرة في سفر واحد.

وقيل: لا يجوز الأكل منه واعتبروه دم جبر.

والصحيح القول الأول، ويشهد له ظاهر الآية، فإن فيها- مع الأمر بالأكل- ترتيب قضاء التفث على الذبح والطواف، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها، وقد ذبح ﷺ عن أزواجه بقرًا وكن قارنات ودخل عليهن يوم النحر بلحم من ذلك[١].

٢٤- استحباب إطعام البائس الفقير من لحوم الهدي والأضاحي، وعدم جواز بيع شيء منها؛ أو إعطاء الجزار أجرته منها، وقيل بوجوب الإطعام منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٢٥- وجوب إكمال مناسك الحج وإتمامها كما شرع الله والتحلل من الإحرام وإزالة التفث بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

٢٦- وجوب الوفاء بالنذر من حج وغيره.

٢٧- وجوب طواف الإفاضة، وهو ركن من أركان الحج لا يصح الحج بدونه، ووجوب طواف الوداع، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ وأهمية الطواف بالبيت وفضله.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٢٠)، ومسلم في الحج (١٢١١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٨- أن البيت الحرام أفضل وأقدم وأول بيت وضع للناس، لقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

٢٩- فضل هذه الأيام المعلومات، واستحباب الإكثار فيها من الأعمال الصالحة، من الحج والتكبير والتهليل والتحميد وصيام يوم عرفة وصلاة العيد وخطبتيه وذبح الهدي والأضحية، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وأعمال البر والخير، وأهم ذلك وأعظمه أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما سبق ذكره من مناسك الحج، من شهود المنافع وذكر اسم الله على الهدي والأضاحي، والأكل منها والإطعام، وقضاء التفث والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق، وأشار إليها بإشارة البعيد تعظيمًا لها، والقصد من الإشارة- مع تعظيم المشار إليه- التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥].

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ» شرطية.

﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿حُرُمَٰتِ﴾ جمع حُرْمَة.

و﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كل ما أوجب الله احترامه وحرم استحلاله، كالحرم والإحرام ومحظورات الإحرام، والمناسك كلها من الهدايا وغيرها، وكذا ما أمر الله به من العبادات، وتعظيمها بإجلالها بالقلب ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله.

وكذا كل ما نهى الله عنه، وتعظيمها باجتنابها والبعد عنها.

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى**

يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه»[(١)].

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فتعظيمه حرمات الله- تعالى؛ فعلًا لما أمر الله به وانتهاءً عما نهى الله عنه ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

ونكر ﴿خَيْرٌ﴾ وأطلقه؛ ليشمل كل أنواع الخير، أي: فهو خير له مطلقًا عند ربه في دينه ودنياه وأخراه، يجازيه عليه بالخير الكثير، والثواب الجزيل، في الدنيا، والآخرة مما لا يقدر قدره إلا العلي الكبير.

وفي إضافة ضمير هذا المعظِّم لحرمات الله إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾ خالقه ومالكه ومدبره ومربيه الربوبية العامة والخاصة تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عظمة هذا الخير، وتكفله- عز وجل- به.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: وأحللنا لكم جميع الأنعام، وبُني الفعل «أحلت» لما لم يسمّ فاعله؛ لأن المحلل معلوم وهو الله- عز وجل- وحده.

أي: وأحللنا لكم أكل جميع الأنعام إذا ذكيتموها على اسم الله- عز وجل، والمراد بالأنعام ما يشمل بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية الإبل والبقر والضأن والمعز وغيرها.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل، و﴿مَا﴾ موصولة في محل نصب على الاستثناء.

﴿يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُقص ويُقرأ عليكم، والمعنى: إلا الذي يقرأ ويقص عليكم تحريمه في كتاب الله- عز وجل، وسنة رسوله ﷺ في المستقبل، وما سبق تلاوة تحريمه عليكم فيهما، فقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يشمل ما تلي عليهم تحريمه قبل نزول هذه الآية، وما يتلى عليهم بعد ذلك في الكتاب والسنة، وإنما عبر بالمضارع للتنبيه على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره في الذهن، والتنبه له، وذلك يشمل: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه، والصيد في الحرم وحال الإحرام، وكل ذي ناب من السباع، وكل

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥).

ذي مخلب من الطير والفواسق، وغير ذلك مما حرمه الله.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ﷺ: «**يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير**»(١).

قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ هذا من تعظيم حرمات الله عز وجل، و﴿ٱلرِّجْسَ﴾ النجس الخبيث القذر حسًا ومعنى وحكمًا، والمراد به هنا: النجس معنى وحكمًا من الأعمال والأقوال الباطلة والمحرمة، وسماها رجسًا تقبيحًا لها وتنفيرًا منها.

﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾، ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو عبادة الأوثان.

و﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: جمع وثن، وهي الأصنام والأنداد والمعبودات من دون الله، فهي رجس وعبادتها رجس، وهي سبب الرجز والعذاب.

أي: ابتعدوا كل البعد عن عبادة الأوثان وتعظيمها وعما يقرب إليها، والأمر بالاجتناب أبلغ في التحريم والنهي من الأمر بالترك.

وقال السعدي(٢): «والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله أكثر المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًّا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا».

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وابتعدوا كل البعد عن قول

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٢).

الكذب والباطل وشهادة الزور والشرك، وهو رأس الزور وأعظمه.

والزور مأخوذ من الإزورار، وهو الانحراف عن الحق، والميل والعدول عن الصواب، وليس هناك أشد انحرافًا وميلًا وبعدًا عن الحق والصواب ممن زعم أن لله شريكًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي قرن الأمر باجتناب قول الزور بالأمر باجتناب الأوثان دليل على عظم شهادة الزور.

عن أيمن بن خريم رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قام خطيبًا فقال: «**يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكًا بالله**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾»[1].

وعن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «**تُعْدَلُ شهادة الزور بالشرك**، وقرأ هذه الآية...»[2].

وعن أبي بكرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**- وكان متكئًا فجلس، فقال: **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[3].

ولهذا ذكر الله- عز وجل- أن من صفات عباد الرحمن عدم شهادة الزور. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وأحمد (٤/ ١٧٨، ٢٣٣، ٣٢٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه البخاري- في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان- بيان الكبائر وأكبرها (٨٧)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠١).

قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ حال، أي: فاجتنبوا الشرك وقول الزور حال كونكم حنفاء لله، أي: مخلصين له العبادة.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ قال: «حجاجًا لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: «**حجوا الآن غير مشركين بالله**»[(١)].

وعن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- قال: «كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم: حنفاء الحجاج، فنزلت: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ يقول: حجاجًا غير مشركين به»[(١)].

و﴿حُنَفَآءَ﴾: جمع حنيف، وهو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، ولهذا بيّنه بقوله: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: حال كونكم غير مشركين به، أي: غير مشركين معه غيره، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وكما قال إبراهيم- عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩].

والمعنى: مائلين إلى توحيد الله- عز وجل- مستقيمين عليه غير مشركين به شيئًا.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

بعدما أمر باجتناب الشرك والميل عنه إلى توحيد الله ضرب مثلًا في فظاعة حال المشرك وشدة هلاكه وضلاله وبعده عن ربه، وعن الحق والهدى، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ [الآية: ٧١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩١).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الواو عاطفة، و«من» شرطية، ﴿يُشْرِكْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة، أي: فكأنما سقط من السماء.

﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الخاء وتشديد الطاء: «فتخَطَّفُه».

وقرأ الباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

أي: فتخطفه الطير في الهواء، وتأخذه بسرعة، وتمزقه قطعًا في حواصلها.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ قرأ أبوجعفر: «الرياح»، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيحُ﴾.

أي: أو تعصف به الريح وتلقيه وترمي به.

﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: في مكان بعيد كل البعد، مُهلك لمن هوى وسقط فيه.

والمعنى: أن من أشرك بالله فقد أهلك نفسه غاية الإهلاك، حيث استبدل بالتوحيد وأعلى عليين الشرك وأسفل سافلين، وفي هذا أعظم التخويف، وأبلغ التنفير عن الشرك، فشتان بين من وحد الله- عز وجل- فهو يترقى في مصاعد السمو إلى أعلى عليين، وبين من أشرك بالله فهبط بنفسه إلى أسفل سافلين، وشتان بين من عبد الله وحده واتبع سبيله، وبين من تفرقت به السبل واحتوشته الشياطين من كل جانب فصار بينهم شذر مذر، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به من تعظيم حرمات الله واجتناب الشرك وقول الزور وغير ذلك، وتعظيم شعائر الله بفعل المأمورات وترك المحظورات، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ»: شرطية، ﴿يُعَظِّمْ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

و﴿شَعَٰٓئِرَ﴾ جمع شعيرة، وهي: المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله واحترامه من الهدي والأضحية، من البدن وغيرها، ومن الصفا والمروة، وغير ذلك من

مشاعر الحج ومناسكه مما أمر الله به، فكل ذلك من شعائر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنه سمي إشعار البدن، أي: إعلامها؛ ليعلم أنها هدي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢].

وتعظيم شعائر الله عمومًا بإجلالها واحترامها ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله- عز وجل- وكما أمر.

وخص بعض أهل العلم ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ هنا بالهدي، ولا شك أنه من أعظم الشعائر، ومن أول ما يدخل في عموم الآية؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وتعظيم الهدي والأضاحي باستحسانها واستسمانها وتمام صفاتها وأوصافها، وعدم التعرض لها أو تحميلها ما يضر بها، أو التقصير في طعامها وشرابها، وبذل الثمن الغالي فيها، وعدم المماكسة في شرائها، وأن يتولى نحرها أو ذبحها بنفسه، أو يحضرها، ونحو ذلك.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «تعظيمها: استحسانها واستسمانها»[(١)].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف- رضي الله عنه- قال: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في الأضاحي- أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين ويذكر سمينين- قال: «وقال يحيى بن سعيد: سمعت أبا أمامة بن سهل- وذكره». انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج- باب التحميد والتسبيح والتكبير (١٧١٢)، ومسلم في الأضاحي- استحباب التضحية (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٣)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٠).

فحيل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد[١]»[٢].

وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين خصيين»[٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**دم عفراء[٤] أحب إلي من دم سوداوين**»[٥].

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعود إلى ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ وتعظيمها، أي: فإن تعظيم شعائر الله ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: برهان ودليل على تقوى القلوب لله- عز وجل، وإجلالها له، وخشيتها منه- عز وجل، التي تحمل على فعل أوامره وترك نواهيه.

وخص القلوب بالتقوى؛ لأنها موضع التقوى والصلاح كما قال ﷺ: «**التقوى هٰهنا**- ويشير إلى صدره»[٦].

وقال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٧].

وفي إضافة الشعائر إليه- عز وجل، والإخبار بأن تعظيمها من تقوى القلوب حث وترغيب في تعظيم شعائر الله واحترامها، والقيام بها كما شرعها الله- عز وجل.

---

(١) أقرن: ذي قرنين، فحيل: كامل الخلقة، لم تقطع أنثياه، يأكل في سواد: أي في بطنه سواد، ويمشي في سواد، في رجليه سواد، وينظر في سواد: أي: مكحول في عينيه سواد.

(٢) أخرجه أبوداود في الأضاحي- ما يستحب من الضحايا (٢٧٩٦)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٠)، والترمذي في الأضاحي- ما يستحب من الأضاحي (١٤٩٦)، وابن ماجه في الأضاحي- ما يستحب في الأضاحي (٣١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١)- ومعنى «موجوءين» أي: خصيين، أي: قد قطعت خصيتاهما أورضتا.

(٤) العفراء: البيضاء بياضًا ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها؛ لأن دمها أحب إليه ﷺ من دم سوداوين.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة و الآداب (٢٥٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

وعن علي- رضي الله عنه- قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء».

وفي رواية عن علي- رضي الله عنه- قال: «المقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة»[(١)].

وعنه- رضي الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يضحى بأعضب القرن والأذن[(٢)]»[(٣)].

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء[(٤)] التي لا تنقي**»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣﴾.

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لكم في الهدي من البدن وغيرها منافع دنيوية من ركوبها وشرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها، وهذه المنافع الدنيوية عون على المنافع الدينية والأخروية.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت محدد، وهو وقت نحرها وذبحها، وهو يوم النحر وأيام التشريق، الأيام المعدودات.

والمعنى: أنهم ينتفعون بالهدي من البدن وغيرها عند الحاجة قبل نحرها وذبحها في هذه الأيام.

---

(١) أخرجه أبوداود في الأضاحي- ما يكره من الضحايا (٢٨٠٤)، والنسائي في الضحايا (٧٢، ٤٣)، والترمذي في الأضاحي- ما يكره من الأضاحي (١٤٩٨)، وابن ماجه في الأضاحي- ما يكره من الأضاحي (٣١٤٢)، وأحمد (١/ ٨٠، ١٠٨). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أعضب القرن: مكسور القرن، وأعضب الأذن: مقطوع الأذن.

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨٠٥)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٧)، والترمذي في الأضاحي (١٥٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٥)، وأحمد (١/ ٨٣، ١٠٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أي: الهزيلة.

(٥) سبق تخريجه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا كان يسوق بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة. قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة»[(١)].

وعن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبدالله سئل عن ركوب الهدي فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرًا**»[(٢)].

وذهب طائفة من السلف منهم ابن عباس- رضي الله عنهما، وجمع من التابعين إلى أن معنى قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما لم تُسم وتُعيَّن بدنًا أو هديًا، فإذا عينت فلا يجوز الانتفاع منها بشيء، لا لبنها ولا صوفها وشعرها وأوبارها ولا تركب.

والأظهر القول الأول، وهو جواز الانتفاع منها عند الحاجة، شريطة ألا يضُرّ ذلك بها.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: ثم محل الهدي من البدن وغيرها وانتهاؤها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي إلى الكعبة والحرم. والمَحِل مكان الحلول، أي: ثم محل الهدي، والبدن، أي: المكان الذي تنحر وتذبح فيه الحرم، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: أن يبلغ الحرم.

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم**»[(٣)].

وأيضًا: مِحل النسك والشعائر كلها الطواف بالبيت يوم النحر، وكان ابن عباس- رضي الله عنهما- يقول: «من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج- ركوب البدن (١٦٨٩)، ومسلم في الحج- ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢)، وأبوداود في المناسك (١٦٧٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٧٩٩)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في الحج- ركوب البدن (١٣٢٤)، وأبوداود في المناسك (١٧٦١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨).

﴿ٱلْعَتِيقِ﴾»[(١)].

كما أن مناسك الحج وشعائره؛ من الوقوف بعرفة والمبيت بمنى ومزدلفة ورمي الجمار والطواف والسعي كلها تنتهي بانتهاء وقتها وبالطواف بالبيت العتيق.

الفوائد والأحكام:

١- الحث على تعظيم حرمات الله من مناسك الحج وغيرها، والقيام بما أوجبه الله والبُعد عما حرَّمه من محظورات الحج وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٢- عظم ما أعدَّه الله- عز وجل- لمن يعظم حرماته من الخير الكثير من عنده- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٣- إثبات الربوبية الخاصة لله- عز وجل- التي يربي بها أولياءه ويسددهم ويوفقهم ويثيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤- امتنان الله- عز وجل- على العباد بتحليل جميع الأنعام، إلا ما دل الدليل على تحريمه، فالحلال منها بفضل الله غير محصور، والمحرم منها محدود محصور معدود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- أن مما حرم الله- عز وجل- ما ذكر في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣].

كما حرم ﷺ كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والفواسق ونحو ذلك، مما تليَ تحريمه في الكتاب والسنة.

٦- وجوب اجتناب الرجس والشرك وعبادة الأوثان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

٧- وجوب اجتناب قول الزور وشهادة الزور، وأن ارتكاب ذلك من أكبر الكبائر حيث قرن بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٩٦)- من حديث عطاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما.

٨- وجوب توحيد الله- عز وجل- وإخلاص العبادة له بلا شريك؛ لقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

٩- عظم خطر الشرك وسوء عاقبة ومآل صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾.

١٠- بلوغ القرآن الغاية في التنفير عما يريد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج: ٣١]، فمثَّل المشرك بالله بأبشع صورة وأقبح مثال.

١١- مشروعية إشعار البدن والهدي ليعلم أنها هدي.

١٢- الترغيب في تعظيم شعائر الله وأعلام دينه، من مناسك الحج وغيرها، بالقيام بها وإتمامها، وتعظيم البدن والهدي باستحسانها واستسمانها، وعدم التعرض لها ومنعها أو إلحاق الضرر بها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾.

١٣- أن تعظيم شعائر الله من أعظم الدلائل على تعظيم القلوب لله- عز وجل- وتقواه.

١٤- أن مدار صلاح الأعمال وفسادها على القلوب.

١٥- جواز الانتفاع بالبدن والهدي بركوبها وشرب لبنها ونحو ذلك عند الحاجة من غير إضرار بها إلى وقت نحرها وذبحها؛ لقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

١٦- أن محل ذبح البدن والهدي هو الحرم كله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾.

١٧- أن مناسك الحج وأعماله ومشاعره فيها المنافع والأجور أيام الحج، فإذا انتهت أيامه انتهت تلك المنافع فالوقوف بعرفة والمبيت بالمزدلفة ومنى ورمي الجمار كل هذا ينتهي بانتهاء أيام الحج وأعماله التي تنتهي بالطواف بالبيت العتيق للإفاضة ثم الوداع؛ لقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة أنه شرع الحج والمناسك والشعائر ونحر البدن وذبح الهدي لهذه الأمة، ثم ذكر أنه- عز وجل- جعل لكل أمة منسكًا، فشرع لكل أمة التعبد لله- عز وجل- والتنسك له بذبح الهدي والقرابين، وإراقة الدماء باسمه- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم، والأمة: الجماعة، والمراد لكل أتباع دين من الأديان السماوية.

﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «منسِكًا» هنا وفي الموضع الذي بعده بكسر السين على معنى الاسم كالمسجد والمطلع، أي: ولكل أمة جعلنا وشرعنا موضعًا للنسك والعبادة، ومكانًا لذبح الهدي، وهو الحرم.

وقرأ الباقون بفتح السين على المصدر: ﴿مَنسَكًا ﴾، أي: نُسكًا يتعبدون به من الحج والعمرة وغير ذلك، ونسكًا يتقربون بذبحه إلى الله- عز وجل- من الهدي والأضحية.

﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذكروا اسم الله على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم عند نحرها وذبحها، فيقولوا: «بسم الله والله أكبر»؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر، ووضع رجله على صفاحهما»[1].

وعن زيد بن أرقم- رضي الله عنه- قال: قلت: أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي- من ذبح الأضاحي بيده (٥٥٦٥)، ومسلم في الأضاحي- استحباب الضحية وذبحها مباشرة (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٤)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣٢١٠).

الأضاحي؟ قال: «**سنة أبيكم إبراهيم**» قالوا: وما لنا منها؟ قال: «**بكل شعرة حسنة**» قالوا: فالصوف؟ قال: «**بكل شعرة من الصوف حسنة**»(١).

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: «ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوءين، فلما وجههما قال: «**إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك وعن محمد وأمته، ثم سمى الله، وكبَّر وذبح**»(٢).

وفي رواية عنه: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: «**بسم الله والله أكبر، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»(٣).

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: فمعبودكم معبود واحد أنتم وجميع الأمم، وإن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضًا، فالأنبياء كلهم يدعون إلى عبادة الله- عز وجل- لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات، أو إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(٤).

﴿فَلَهُۥٓ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«له» متعلق بـ﴿أَسْلِمُوا۟﴾ قدم عليه لإفادة الحصر، أي: فله وحده دون غيره. ﴿أَسْلِمُوا۟﴾ أي: استسلموا بالتوحيد

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨)، وابن ماجه- في الأضاحي- ثواب الأضحية (٣١٢٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٧٩٥)، وابن ماجه في الأضاحي- أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١)، والدارمي في الأضاحي (١٩٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٣).

(٣) أخرجه أبوداود في الأضاحي (٢٨١٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢١)، وأحمد (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب»..

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبوداود في السنة (٣٦٧٥).

والإخلاص والانقياد والطاعة.

فإله جميع الخلق إله واحد وهو الله- عز وجل، ودينهم واحد وهو الإسلام.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ التبشير والبشارة: الإخبار بما يسر القلوب ويبهج النفوس مأخوذ من البشرة؛ لأن الخبر السار إذا ورد على القلب سر وفرح وظهرت آثار ذلك على الوجه والبشرة فيستنير الوجه وتنبسط البشرة.

عن كعب بن مالك- رضي الله عنه- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[1].

والإخبات: سكون الجوارح على وجه الخشوع والخضوع والتواضع لله- عز وجل، والخَبْت في الأصل: المكان المنخفض المطمئن من الأرض.

فـ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: الخاشعين لله- عز وجل- الخاضعين المتواضعين له، المطمئنين المخلصين لله، الوجلين عند ذكره، كما وصفهم الله- عز وجل- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فهذا تفسير لما قبله، ولم يذكر المبشَّر به وأطلقه لتعظيمه وتعميمه، وليذهب فيه الفكر كل مذهب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ عندهم، أو ذكروه بأنفسهم ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل: الخوف الشديد المقرون بهيبة ومحبة، أي: خافت قلوبهم هيبة منه وتعظيمًا ومحبة له وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٢)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ الصَّابِرِينَ: جمع صابر، والصبر لغة: الحبس والمنع، وشرعًا: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله. وهو أنواع الثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والمعنى: والصابرين على الذي يصيبهم في ذات الله عند القيام بأمره، والصبر عن نهيه، وعلى ما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأهليهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

والصبر من أعظم صفات المؤمنين وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «**وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»[(١)].

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قرأ أبوعمرو في رواية: «وَالْمُقِيمِي الصَّلاةَ» بنصب الصلاة، وعليه يكون حذف النون من «وَالْمُقِيمِي» للتخفيف.

وقرأ بقية القراء بجر ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على الإضافة، وعليه يكون حذف النون من ﴿وَٱلْمُقِيمِى﴾ بسبب الإضافة.

أي: والذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ولهذا جاء التعبير بالإقامة هنا، وفي أكثر المواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية دون أن يقول: «يصلون» تنبيهًا على أن المهم، أن تكون الصلاة تامة كاملة مستقيمة.

وهي هنا تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ «من»: تبعيضية، و«ما» موصولة أو مصدرية.

أي: ومن بعض الذي رزقناهم، أو من بعض رزقنا ينفقون. فالمطلوب إنفاق البعض مما رزقناهم.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية، أي: ومن الذي رزقناهم، أو من رزقنا ينفقون، بعضه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبوداود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)- من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه. وانظر في تفصيل الكلام على الصبر وبيان فضله: الكلام في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الآية: ٣٥].

أو كله، وعلى هذا فيجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله- كما فعل أبوبكر الصديق- رضي الله عنه- حسب قوة إيمانه واعتماده على الله وثقته بما عند الله- ما لم يحتج لغيره فلا يجوز.

وقوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾، أي: أعطيناهم من الأموال وغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن المال مال الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يخرجون المال ويصرفونه في مصارفه الشرعية من النفقات الواجبة من الزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، ومن النفقات المستحبة والصدقات في وجوه البر والخير، شكرًا لله- عز وجل- واعترافًا وإقرارًا بفضله، فجمعوا بين الخوف من الله وإقامة الصلاة، وهذا إحسان في عبادة الله- عز وجل، وبين الإنفاق مما رزقهم الله من الأموال، على أولادهم وأهليهم، وعلى الفقراء والمساكين، وفي وجوه البر والخير، وهذا إحسان إلى عباد الله، فجمعوا بين الإحسانين وهذا غاية الإحسان، والله يحب المحسنين.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله- عز وجل، وفضله على العباد بجعله لكل أمة منسكًا يتقربون إلى الله- عز وجل- بنحره وذبحه وذكر اسمه- عز وجل- عليه، وجعله لهم نسكًا وعبادات يتعبدون لله- عز وجل- بها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

٢- وجوب ذكر اسم الله- عز وجل- عند الذبح والنحر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾.

٣- أن الأضحية والهدي لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والمعز.

٤- أن إله الخلق ومعبودهم واحد، وهو الله- عز وجل، لا معبود لهم غيره ولا رب لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٥- وجوب الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾.

٦- البشارة للمخبتين الخائفين الوجلين عند ذكر الله، الخاضعين له، المتذللين لعظمته؛

لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

٧- في إطلاق بشارة المخبتين إشارة لعظمة ما أعد لهم، أي: وبشر المخبتين بما لا يُعلم كنهه وكيفه وكمه من ألوان النعيم، وفي هذا ما فيه من الترغيب في الخشوع والخضوع لله- عز وجل.

٨- مدح المخبتين الخاشعين بذكر صفاتهم العظيمة، وهي وجل قلوبهم عند ذكر الله، والصبر على ما أصابهم، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٩- الترغيب والحث على الخوف من الله- عز وجل، وذكره، والصبر على أقداره، وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله، والتنبيه على فضل هذه الأعمال.

١٠- أن الرزق كله من الله- عز وجل، من بهيمة الأنعام وغيرها من الأموال، وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

حض عز وجل في الآيات السابقة على تعظيم الشعائر والنسك، وذكر اسم الله- عز وجل- عليها، وامتن على العباد بأنه جعل لكل أمة منسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ثم أتبع ذلك بالتنويه بشأن البدن وتعظيمها، من بين الشعائر، ومن بين بهيمة الأنعام هديًا كانت أو أضحية.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ البدن: جمع بَدَنة، وهي الإبل، ذكرًا كانت أو أنثى، وسميت بُدنًا لبدانتها وضخامتها وكبرها، وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على ما يهدى منها للحرم.

فالبدن في الأصل هي الإبل خاصة، وهي المرادة في الآية بدليل قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي: سقطت وهذا وصف خاص بالإبل فإنها تنحر قائمة.

ولكن اسم البدن صار يطلق على البقر عند بعض أهل العلم؛ لأن الشرع جعلهما سواء في الإجزاء كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»[1].

وفي رواية: «كنا ننحر البدنة عن سبعة. فقيل: والبقرة؟ قال: وهل هي إلا من البدن»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- الاشتراك في الهدي (١٣١٨)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨٠٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٣)، والترمذي في الحج (٩٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٢).

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر».

ومن أهل العلم من قال: لا تطلق البدنة على البقرة لما ورد في بعض روايات حديث جابر المتقدم: «نحرنا مع رسول الله ﷺ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة». قالوا: فالعطف يقتضي المغايرة بين البدنة والبقرة.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن**»(١).

قالوا: فتفريقه ﷺ بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة، وقسم الشيء لا يكون قسيمه ومقابلًا له. قالوا: وعلى هذا لو أن رجلًا نذر أن ينحر بدنة لم تجزئه البقرة.

وخص البدن بالذكر- وهي الإبل- دون غيرها من بين بهيمة الأنعام مع أنها كلها مما يشرع في الهدي؛ لبيان أن البدن أفضل الهدي؛ لعظمها وشرفها ومكانتها عند الناس، ولكبرها وكثرة لحمها، ولما لها من صفات عظيمة اختصها الله بها من بين سائر البهائم، ولهذا وجه الله- عز وجل- الأنظار للتأمل في عظيم خلقها، والاستدلال بذلك على ربوبيته وعظيم قدرته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغاشية: ١٧]، وقرن عز وجل خلقها بخلق السماء والجبال والأرض.

وذكر عز وجل أن من علامات القيامة وأهوالها الشديدة إهمال الإبل العشار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤]، أي: أهملت وتركت بلا راع وسيبت من شدة هول ذلك اليوم مع أنها من أنفس الأموال عند العرب.

هذه خلقتها العظيمة وهذه مكانتها وقيمتها الرفيعة من حيث الأصل، فكيف إذا عُينت هديًا للبيت الحرام أو أضحية، فلا تسأل عن عظيم فضلها وشرفها وبركتها وكثرة خيرها، وجزيل ثوابها؛ لأن الله نوّه بها وامتنَّ على عباده بجعلها من شعائره عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة- فضل الجمعة (٨٨١)، ومسلم في الجمعة- الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٥٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٥١)، والنسائي في الإمامة (٨٦٤)، والترمذي في الجمعة (٤٩٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٢).

﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾.

﴿شَعَٰٓئِرِ﴾ جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: جعلناها لكم جعلًا شرعيًا من أعلام دين الله وشريعته التي شرعها لعباده، ومن مناسك حج بيته الحرام.

ولهذا يسن إشعارها بطعنها في صفحة سنامها بحديدة ونحو ذلك؛ ليعلم أنها هدي، فلا يتعرض لها بأذى تعظيمًا لها.

والمعنى: والبدن جعلناها شرعًا لكم من شعائر الله التي يتقرب بها إلى الله- عز وجل، وتهدى إلى بيته الحرام، وهي أفضل الهدي، ويجب احترامها وتعظيمها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٣٣]، أي: لكم فيها خير كثير ومنافع عظيمة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، ففيها خير في الدين من حيث إنها شعائر ونسك يتقرب إلى الله- عز وجل- بنحرها وإهراق دمها.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُنفقت الورِق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد**»[1].

وفيها خير كثير ومنافع في الدنيا؛ من ركوبها وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها وأشعارها من غير إضرار بها، وأكل لحومها والتصدق بها والإهداء منها، والإفادة من جلودها.

وفيها خير كثير وثواب عظيم في الآخرة، فهي من أعظم الشعائر والقربات.

عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا**»[2].

---

(١) أخرجه الدارقطني في الأشربة وغيرها- الصيد والذبائح والأطعمة ونحو ذلك (٤/ ٢٨٢) حديث (٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي- ما جاء في فضل الأضحية (١٤٩٣)، وابن ماجه في الأضاحي- ثواب الأضحية (٣١٢٦). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾ أي: فاذكروا اسم الله على هذه البدن عند نحرها بقولكم: «باسم الله»، والأمر للوجوب.

﴿صَوَآفَّ﴾ حال، وهي: جمع صافة، والمعنى: حال كون البدن قائمة على ثلاث قوائم معقولة اليد اليسرى.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿صَوَآفَّ﴾ قال: «قائمة على ثلاث قوائم معقولة إحدى يديها»[١].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما: «أنه أتى رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ»[٢].

وعن جابر- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى- قائمة على ما بقي من قوائمها»[٣].

وتذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة، ويضع رجله على صفحة رقبتها ليكون أثبت له وأمكن؛ لئلا تضطرب فلا يتمكن من إتمام ذبحها فتتأذى بذلك وتؤذيه.

ويستحب أن يكبر بعد التسمية ويدعو بما ورد، فيقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم تقبل مني ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: ٣٧].

وعن جابر بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: «صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أُتي بكبش فذبحه، فقال: «**بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضحِّ من أمتي**».

وعنه- رضي الله عنه- قال: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الحج- نحر الإبل مقيدة (١٧١٣)، ومسلم في الحج- نحر البدن مقيدة (١٣٢٠)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٨).

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك- كيف تنحر البدن (١٧٦٧).

حين وجههما: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته ثم سمى الله وكبّر، وذبح**»[١].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ: «أمر بكبش أقرن، يطأ في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد، فأتى به ليُضحي به، فقال لها: يا عائشة هلمي المدية، ثم قال: اشحذيها بحجر، ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه، ثم ذبحه، ثم قال: باسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد، ثم ضحى به»[٢].

كما يستحب أن يتولى الإنسان بنفسه نحر وذبح ما يتقرب به إلى الله- عز وجل- من أضحية أو هدي، كما كان ﷺ ينحر أضحيته بنفسه[٣]، ونحر ثلاثًا وستين بدنة من هديه ﷺ بيده الشريفة[٤]. فإن لم يتمكن من ذلك فيستحب له حضور نحرها أو ذبحها.

وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أُتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللهم إن هذا عن أمتي جميعًا، من شهد بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعًا المساكين، ويأكل هو وأهله منهما»[٥].

قوله: ﴿**فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا**﴾ أي: سقطت جنوبها، والجنوب: جمع جنب، وهو الشق، أي: إذا ماتت بعد نحرها وذبحها وسكنت حركتها، عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «ولا تُعَجِّلوا النفوس أن تزهق»[٦].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان**

---

(١) سبق تخريجهما.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٦٧)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٢).

(٣) كما سبق في حديث ابن عباس وجابر وعائشة- رضي الله عنهم.

(٤) سبق تخريجه من حديث جابر- رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٨، ٣٩١).

(٦) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٥).

على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[(١)].

وعن أبي واقد الليثي- رضي الله عنه- قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يَجُبُّون أسنمة الإبل، ويقطعون إِليات الغنم، فقال: «**ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة**»[(٢)].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ كقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: ٢٨].

وفي ترتيب الأكل والإطعام على وجوب جنوبها، أي: سقوطها ترتيب الجزاء على الشرط إشارة إلى المبادرة بالأكل منها والإطعام، ولهذا كان من السنة أن يكون أول ما يأكله الإنسان يوم النحر من هديه وأضحيته.

والخطاب للمُهدي والمضحي، والأمر في الموضعين للاستحباب، أي: فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر، فكلوا منها وأطعموا، وقيل: للوجوب، وقيل: للإباحة.

و﴿ٱلْقَانِعَ﴾ الذي يقتنع بما أعطي، أو بما عنده، ويتعفف ولا يسأل، مأخوذ من القناعة، وهي الرضى بما قُسم له.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض للناس ويسألهم.

قال زهير[(٣)]:

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وقال الآخر:

يعطي ذخائر ماله ... معترَّه قبل السؤال[(١)]

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد- الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبوداود في الأضاحي(٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

(٢) أخرجه أبوداود في الصيد- باب في صيد قطع منه قطعة (٢٨٥٨)، والترمذي في الصيد- ما قطع من الحي فهو كميت (١٤٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وأخرجه ابن ماجه في الصيد- ما قطع من البهيمة وهي حية (٣٢١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «ديوانه» ص(١١٤).

وقيل: القانع الذي يسأل بتذلل، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل. وقيل غير ذلك.

وقد استحب بعض أهل العلم- لهذه الآية- تجزئة الأضحية ثلاثة أجزاء، يُهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث، ويأكل ثلثًا.

وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «**إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم**» وفي رواية: «**فكلوا وادخروا وتصدقوا**» وفي رواية: « **فكلوا وأطعموا وادخروا**»[٢].

ولا يجوز بيع شيء منها ولا إعطاء الجزار أجرته منها، ولا بيع جلدها ووبرها وصوفها، بل يَنتفع به أو يتصدق به أو يهديه.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هكذا جعلناها مسخَّرة لكم مذللة منقادة، تركبونها وتشربون من ألبانها، وتنحرونها وتأكلون لحومها، وتنتفعون من أصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣].

قال الزمخشري[٣]: «ولولا تسخير الله لم تُطَق، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرمًا وأقل منها قوة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدًا وغيره».

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأجل أن تشكروا الله- عز وجل، أو لكي تشكروا الله- عز وجل، اعتقادًا بقلوبكم، وإقرارًا بألسنتكم، وعملًا بجوارحكم، على ما أنعم به عليكم من تسخير البدن وغير ذلك بالاستعانة بذلك على طاعة الله- عز وجل، والقيام بما أوجب الله، والبعد عن ما نهى الله عنه. وفي هذا تعريض بالمشركين الذين جعلوا الكفر مكان الشكر.

وكل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر، وتوفيق الله العبد للشكر هو أيضًا

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ٢٩٧.

(٢) سبق تخريجها.

(٣) في «الكشاف» (٣/ ٣٤).

نعمة تحتاج إلى شكر، ولهذا يقر العبد ويعترف أنه لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره؛ كما قال ﷺ: «**سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1].

وقد أحسن القائل:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً	**عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ**
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	**وإن طالت الأيام واتصل العمر**[2]

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ قرأ يعقوب بالتاء على التأنيث: «تنال»، «تناله». وقرأ الباقون بالياء على التذكير.

هذه الجملة فيها معنىٰ التعليل والتأكيد للجملة قبلها، أي: سخرناها لكم لأجل أن تشكروا الله- عز وجل- بتقواه؛ لأنه لن يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

أي: ليس المقصود ذبحها فقط أو نحرها، وتقطيع لحمها، فلن ينال الله ولن يصل إليه لحوم هذه البدن ولا دماؤها؛ لأنه- عز وجل- هو الغني عما سواه، كما قال- عز وجل: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

وفي الآية إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية حيث كانوا ينضحون الكعبة بدماء البدن والهدي، ويلطخونها بدمائها ويضعون لحومها هنا وهناك حول الكعبة.

ويذبحون على النصب، ولها، ويهدون إليها القرابين، ويضعون عليها لحومها وينضحونها بدمائها.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾، أي: ولكن يناله التقوى منكم بامتثال أوامره

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» (ص٩٥).

واجتناب نواهيه، وإخلاص التعبد له بنحر وذبح الهدي والأضاحي، وذكر اسمه- عز وجل- عليها، والتقرب إليه- عز وجل- بذلك، وبالأكل منها والتصدق والإهداء.

فشرع الله- عز وجل- هذه النسك لذكره- عز وجل- وتقواه؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ كما قال تعالى في مشروعية الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال ﷺ: «**إنما شرع الطواف والسعي ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(٢)].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر هذا امتنانًا عليهم، وتذكيرًا لهم بعظيم نعمة الله عليهم فيها، أي: هكذا سخر الله- عز وجل- البدن وذللها لكم، تنتفعون بها منافع كثيرة، وتتقربون إلى الله- عز وجل- بنحر ما شئتم منها هديًا وأضحية وذكر اسم الله- عز وجل- عليها.

﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهذا من أعظم الشكر المذكور بقوله قبل هذا: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن أعظم التقوى المذكورة بقوله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ففي الآية تأكيد وبيان لما قبلها.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ مصدرية، أي: على هدايته إياكم، هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهداية توفيق.

وقد تكون ﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف.

والمعنى: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه بقولكم: «الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد»، ونحو ذلك. وبالتسمية والتكبير عند الذبح، وغير ذلك، شكرًا لله

---

(١) أخرجه أبوداود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢)- من حديث عائشة- رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في البر- تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد- باب القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩).

تعالى على هدايته إياكم وتوفيقه لكم لهذا الدين القويم والشرع المستقيم، ولأداء النسك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب، أي: بشر يا محمد المحسنين، وليبشرهم بذلك كل مبشر ممن هو أهل لذلك.

والبشارة: الإخبار بما يَسر ويُفرح القلب، ويبهج النفس، مأخوذة من البشرة؛ لأن الإنسان إذا ورد على قلبه الخبر السار استنار وجهه واتسعت بشرته، و«كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»[1].

و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جمع محسن، والإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله- عز وجل- بالإخلاص له- عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع رسوله ﷺ.

وقال ﷺ: «**الإحسان أنك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

والقسم الثاني: الإحسان إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، بوجوه الإحسان كلها؛ قولًا وفعلًا وبذلًا.

أي: بشر المحسنين في عبادة الله- عز وجل، إخلاصًا لله- عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، والمحسنين إلى عباد الله، بأداء حقوقهم والتصدق عليهم.

ولم يذكر المبشَّر به، بل أطلقه؛ لتعظيمه وتعميمه ليذهب فيه الذهن كل مذهب، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣، التوبة: ١١٢، الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: بشر المحسنين بشارة مطلقة، بشرهم بالسلامة من كل شر، والحصول على كل خير، بشرهم بخيري الدنيا والآخرة، بشرهم بالإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

بشرهم بالحسنى والزيادة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: المثوبة الحسنة والجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم كما قال ﷺ[1].

بشرهم بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وبرحمة الله تعالى ورضوانه والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

الفوائد والأحكام:

١- التنويه بشأن البدن والامتنان على العباد بخلقها، وجعلها شرعًا من شعائر الله، وما فيها من الخير للناس في دينهم ودنياهم، وأنها أعظم وأفضل ما يتقرب به إلى الله- عز وجل- من بهيمة الأنعام، هديًا أو أضحية؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ ﴾.

٢- استحباب إشعار البدن وإعلامها ليعرف أنها هدي؛ لأن الله سماها وجعلها من الشعائر.

٣- وجوب ذكر اسم الله عند نحر البدن؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ ﴾.

٤- استحباب نحر البدن قائمة صافة على قوائمها معقولة يدها اليسرى؛ لقوله تعالى: ﴿صَوَآفَّۖ ﴾.

٥- لا يجوز سلخ البدن ولا غيرها من بهيمة الأنعام ولا تقطيعها ولا الأكل منها حتى تموت وتسكن حركتها تمامًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾.

٦- استحباب الأكل من الهدي إن كان هدي تطوع، أو هدي تمتع وقران، ومن الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

فإن كانت فدية ترك واجب، أو فعل محظور، أو فوات الحج، أو إفساده، أو إحصار فلا يجوز الأكل منها عند أكثر أهل العلم وهو الصحيح.

وقيل يجوز الأكل منها ما عدا فدية الصيد والأذى.

٧- استحباب إطعام المحتاج من البدن والهدي سأل أو لم يسأل، وقيل بوجوب الإطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

٨- أن من استعف عن السؤال مع حاجته ينبغي أن يطعم ولا ينسى، بل هو أولى بالإطعام ممن يسأل الناس؛ لهذا قُدّم ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ على ﴿المعتر﴾.

٩- امتنان الله- عز وجل- على العباد- بتسخير البدن- هذه المخلوقات العظيمة، يسيرونها كيف شاءوا، ويركبونها، ويشربون ألبانها ويستفيدون من أصوافها وأوبارها وغير ذلك، وينحرونها ويتقربون بها إلى الله- عز وجل، ويأكلون لحمها وينتفعون بجلودها، وغير ذلك، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾.

١٠- أن الحكمة من تسخير البدن للعباد؛ ليشكروا الله- عز وجل- على ذلك بالقيام بطاعته والبعد عن معاصيه، وذكر الله- عز وجل- وتكبيره وتعظيمه على هدايته لهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم، وحج بيته العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

١١- أن الله- عز وجل- إنما شرع البدن وغيرها من الهدي والأضاحي لأجل التقرب إليه- عز وجل، وذكر اسمه، وتقواه إذ لا يناله- سبحانه- شيء من لحومها ولا دمائها؛ لأنه- عز وجل- الغني عما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٢- التأكيد على وجوب الإخلاص لله- عز وجل- في ذبح القرابين من الهدي والأضاحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

١٣- البشارة المطلقة للمحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله- عز وجل- إخلاصًا لله- عز وجل، واتباعًا لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة

والمستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- استحباب الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآيتين.

ولما ثبت أنه ﷺ «ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمَّى وكبَّر ووضع رجله على صفاحهما»[(١)].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «**ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتىٰ يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا**»[(١)].

وعن زيد بن أرقم قال: قلت- أو- قالوا: «يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: **سنة أبيكم إبراهيم**. قالوا: ما لنا منها؟ قال: **بكل شعرة حسنة**. قالوا: فالصوف؟ قال: **بكل شعرة من الصوف حسنة**»[(١)].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أقام رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنين يضحي»[(٢)].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الأضحية على من ملك نصابًا، واستدلوا بما رُوِيَ عن أبي هريرة مرفوعًا: «من كان له سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا»[(٣)].

وأكثر أهل العلم على أن الأضحية سنة وليست بواجبة؛ لأن النبي ﷺ «ضحى عن نفسه بكبش وضحى عمن لم يضحّ من أمته بكبش»[(٤)] وبهذا سقط وجوبها عليهم.

وقد قال أبوسريحة: «كنت جارًا لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- فكانا لا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧)- وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٢١). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨): «على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل».

(٤) سبق تخريجه.

يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما»[١].

وعن أبي أيوب- رضي الله عنه- قال: «كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، حتى تباهى الناس، فصار كما ترى»[٢].

* * *

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٤٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي- ما جاء في أن الشاة الواحدة عن أهل البيت (١٥٠٥)، وابن ماجه في الأضاحي- من يضحي بشاة عن أهله (٣١٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾.

ذكر الله- عز وجل- في الآيات السابقة صد الكفار للمسلمين عن البيت الحرام وأتبعه بذكر الحج وأداء المناسك والشعائر، فكأن قائلًا قال: كيف القيام بهذا مع صد المشركين للمسلمين عن البيت الحرام، وإخراجهم لهم من ديارهم؟ فوعد الله- عز وجل- ووعده حق- بالمدافعة عن الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب بفتح الياء وإسكان الدال وفتح الفاء من غير ألف: «يَدْفَع»، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء: ﴿يُدَافِعُ﴾.

وهذا والله أعلم- توطئة وتمهيد لمشروعية الجهاد.

والمدافعة: مفاعلة من الدفع ومبالغة، أي: إن الله- عز وجل- يدافع عن الذين آمنوا بشدة وقوة، ومرة بعد أخرى، أي: يدافع عنهم من بغى عليهم من المشركين والكفرة الخائنين؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، كما يدافع عنهم شر النفس والشيطان وشر الأشرار وكيد الفجار وشر طوارق الليل والنهار، وكل سوء ومكروه.

وهذه بشارة من الله- عز وجل- للمؤمنين، ووعد منه لا يتخلف؛ لأنه- عز وجل- لا يخلف الميعاد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى عن النساء الصالحات القانتات: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، أي:

بحفظ الله لهن.

وقال ﷺ في حديثه لابن عباس- رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١).

قال قتادة: «والله ما يُضيِّع الله رجلًا قط حفظ له دينه»(٢).

وقال ابن القيم(٣): «فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله- تعالى، فمن كان أكثر إيمانًا وأكثر ذكرًا كان دفع الله- تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكرًا بذكر ونسيانًا بنسيان».

عن جندب بن عبدالله- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**»(٤).

فما أعظم سعادة من دافع الله- عز وجل- عنه وحفظه فلا يضيره أحد، ويا خيبة من تخلى الله- عز وجل- عن الدفاع عنه وعن حفظه، فهو عرضة لجميع الشرور والبلايا والآفات. فانتبه لهذا.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الوهن والضعف وتسلط الأعداء عليهم إلا بسبب ضعف إيمانهم واختلافهم وتفرقهم، وتخليهم عن الأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية التي يدافع الله بها عنهم.

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾ تعليل لمدافعة الله الكافرين عن المؤمنين، فهو- عز وجل- يدفع الكافرين لخيانتهم وكفرهم، ويدافع عن المؤمنين لأمانتهم وإيمانهم.

و﴿**خَوَّانٍ**﴾ على وزن «فعّال» و﴿**كَفُورٍ**﴾ على وزن «فعول» كل منهما صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، لبيان الواقع الذي هم عليه، فقد بلغوا غاية الخيانة والكفر.

و﴿**خَوَّانٍ**﴾ كثير الخيانة للأمانات، والنقض للعهود والمواثيق، وعدم الوفاء بها،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٥).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١١).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥٧).

شديد الغدر، مخالف لأمر الله، مرتكب لنهيه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿كَفُورٍ﴾ شديد الجحود لربوبية الله- عز وجل- وألوهيته وأسمائه وصفاته ونعمه، لا يعترف بها ولا يشكرها.

والمعنى: إن الله- عز وجل- لا يحب من كان خوانًا للأمانات، ناقضًا للعهود والمواثيق، لا يحفظ أمانة، ولا يرعى ذمة، ولا يفي بعهد، كفور بربه وبدينه ونعمه، والكفر أشد الخيانة وأعظمها، بل يكره عز وجل من هذه صفته ويبغضه، وإذا كان الله- عز وجل- لا يحب من هذه صفته فهو- عز وجل- يحب من كان أمينًا وافيًا بالأمانات والعهود مؤمنًا بالله معترفًا بنعمه- عز وجل.

قوله- تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: «فأنزل الله- عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبوبكر- رضي الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال»[(١)].

فهذه أول آية نزلت في القتال، كما قال ابن عباس- رضي الله عنهما، وبه قال جمع من السلف- وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن سورة الحج مدنية.

قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب وأبوعمرو وعاصم بضم الهمزة ﴿أُذِنَ﴾. وقرأ الباقون بفتحها «أَذن».

وقرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر وحفص بفتح التاء من ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون بكسرها: «يُقاتِلون».

والإذن ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

(١) سبق تخريجه.

[آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

وإذن شرعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وكما في هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾.

والفرق بين الإذن الشرعي والإذن الكوني: أن المأذون به شرعًا لابد أن يكون محبوبًا لله- عز وجل، ولا يلزم وقوعه، كالأمر الشرعي والإرادة الشرعية.

والإذن الكوني لا يلزم أن يكون محبوبًا لله، ولابد من وقوعه، كالأمر الكوني والإرادة الكونية.

والمراد بالإذن في الآية الإذن الشرعي، أي: أذن الله- عز وجل- شرعًا للنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والكفار بالقتال، أو أذن الله بالقتال للمؤمنين الذين يُقاتِلون في سبيل الله.

﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ الباء: للتعليل، أي: لأجل أنهم ﴿ظُلِمُواْۚ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان أو على سبيل التعدي، وهو النقص، كما قال تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئًا.

ومعنى ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ أي: لأجل أنهم ظلموا واعتدى عليهم الكفار وآذوهم، في أنفسهم وأموالهم وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم.

فأذن الله- عز وجل- شرعًا للمؤمنين بالقتال للكفار بسبب ظلم الكفار لهم، ومقاتلتهم إياهم بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذا أعظم الرد على من يقولون: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فقد ذكر الله- عز وجل- أن سبب الإذن في الجهاد هو دفع الظلم عن المسلمين، وقد قال- عز وجل- في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن الظلم للمسلمين أيضًا منعهم من الدعوة إلى الله- عز وجل، ونشر دينهم الذي أوجب الله عليهم نشره والدعوة إليه؛ لإخراج الناس من الكفر، وإنقاذهم من النار؛ ولهذا أوجب الله- عز وجل- على المسلمين قتال من يقف عائقًا في سبيل الدعوة

إلى الله ونشر الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة: ٢٩].

فالمقصود من الأمر بالقتال في هذه الآيات وفي غيرها إقامة دين الله وشرعه، ودفع الظلم عن المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩)﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال السعدي[1]: «وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين الله، أو ذب الكفار المؤذين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة».

وقال- أيضًا: «فلولا دفع الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخربوا معابدهم وفتنوهم في دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره».

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي: وإن الله- عز وجل- على نصر المؤمنين على من ظلمهم من الكفار وقاتلهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَقَدِيرٌ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، و«إِنَّ»، ولام التوكيد.

و«قدير» على وزن فعيل «صفة مشبهة أو صيغة مبالغة» أي:إنه عز وجل ذو قدرة تامة على نصر المؤمنين على الكفار من غير قتال، ولكنه عز وجل يريد ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بفرض القتال عليهم، وقد تكفل بنصرهم، ففي الآية بيان لقدرته على نصر

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

المؤمنين على الكفار بغير قتال لو شاء ذلك، ووعد منه- عز وجل- للمؤمنين بنصرهم على الكفار في قتالهم وجهادهم لهم، وحث وترغيب لهم على الصدق مع الله- عز وجل- وطلب النصر منه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ [محمد: ٧].

وقد نصر الله- عز وجل- رسوله ﷺ وأولياءه وأذل أعداءهم في بدر وحنين وغيرهما من الغزوات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال ابن كثير[(١)]: «وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق بهم؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا فلو أمر المسلمين- وهم أقل من العشر- بقتال الباقين لشق عليهم ذلك، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي- يعنون أهل منى- ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أؤمر بهذا**»[(٢)] فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب طائفة منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجؤون إليه- شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٣١- ٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٢) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٤٨).

ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾».

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من «الذين» في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ وهذا من أعظم الظلم الذي وقع على المسلمين؛ لأن إخراج الإنسان من بلده، ومسقط رأسه ليس بالأمر السهل عليه، ولهذا قال ﷺ مخاطبًا مكة: «**والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك**»(١).

أي: الذين أخرجهم المشركون من مكة، أي: اضطروهم للخروج منها، فهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة، وإلى المدينة، فرارًا بدينهم بعد أن لقي كثير منهم صنوف الأذى والاضطهاد من المشركين.

﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ حال، أي: حال كون إخراجهم بغير حق يستوجب إخراجهم، وبلا ذنب ولا مبرر، بل ظلمًا وعدوانًا، وهذا يدل على أن الإذن بالقتال إنما كان في المدينة بعد الهجرة، وإخراج المسلمين من ديارهم. وهذه السورة فيها المكي والمدني.

﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ﴾ ﴿إِلَّآ ﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع، و﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء، والتقدير: إلا قولهم ربنا الله.

أي: فلا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾، فآمنوا بربوبية الله- عز وجل، وعبدوه وحده لا شريك له، وهذا من تأكيد الشيء بما يوجب نقضه، فقولهم: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ لا يبرر إخراجهم وظلمهم، كيف وهذا مما يجب عليهم وعلى الناس أجمع أن يقولوه.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ [الآية: ١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله تعالى عن سحرة فرعون أنهم قالوا له: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ

---

(١) سبق تخريجه.

أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨].

عن ابن عباس- رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ «أي: من مكة إلى المدينة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني محمدًا ﷺ»[١].

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. وفي رواية أنه قال: أُخرج رسولُ الله ﷺ والله ليهلكن جميعًا، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قال أبوبكر: فعرفت أنه سيكون قتال.. وهي أول آية نزلت»[٢].

وعن عثمان بن عفان- رضي الله عنه، قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، فهي لي ولأصحابي»[٣].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الواو: استئنافية، و«لولا»: حرف امتناع لوجود ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب: «دفاع»، وقرأ الباقون: ﴿دَفْعُ﴾.

أي: ولولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، بإقامة الجهاد في سبيل الله والحدود، فيدفع الله- عز وجل- المشركين بالمسلمين، ويدفع الله الشر والاعتداء عن قوم بسبب قوم آخرين ولو كانوا غير مسلمين، وهذا كما قال ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٦- ٢٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ اللام في قوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ واقعة في جواب «لولا».

قرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير: «لهدِمت» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ مبالغة في الهدم، أي: لهدمت بشدة وقوة، أو لهدمت مرة بعد مرة. والهدم: تقويض البناء وإسقاطه.

﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمع صومعة، وهي صوامع الرهبان ومعابدهم.

﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بِيعة، وهي كنائس اليهود ومعابدهم، وقيل: كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كنائس اليهود، مُعَرَّبة عن كلمة «صلوتا»، وقيل: كنائس النصارى، وقيل: صلوات المسلمين.

عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين»[1].

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ جمع مسجد، وهي ممنوعة من الصرف؛ لأنها على وزن صيغة منتهى الجموع «فعالل»، وهي بيوت الله، وأماكن الصلاة والعبادة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وإنما بدأ- والله أعلم- بالصوامع والبيع مراعاة للسبق الزمني؛ لأن عبادة وصلاة من تقدم من أهل الكتاب كانت فيها، وكذا «صلوات» على اعتبار أن المراد بها أيضًا مواضع عبادتهم.

قال الزجاج والأزهري: أي: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي من الأنبياء- عليهم السلام- المكان الذي يصلي فيه هو وأتباعه، أي: لهدمت متعبدات كل فريق.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٧).

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]- بعد ذكره هذين القولين: «وعلى هذا القول- يعني قول الحسن- لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول. وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة- غير المساجد- محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده- وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة- وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين- وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أُقروا عليها شرعًا وقدرًا، فهو يحب الدفع عنها- وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها- وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى».

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: في المساجد بالصلاة فيها وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاعتكاف فيها وغير ذلك من أنواع الذكر والعبادة. و«كثيرًا» صفة لمصدر محذوف، أي: ذكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا.

ويحتمل عود الضمير إلى كل ما ذكر من أماكن عبادة أهل الكتاب من الصوامع والبيع والصلوات، وأماكن عبادة المسلمين المساجد.

قال الطبري[(٣)]: «الصواب لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم. ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم».

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم محذوف، و«من»: موصولة، أي: والله لينصرن الله الذي ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه وأولياءه، ويقاتل في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٣- ٢١٤).

(٣) في «جامع البيان» (١٦/ ٥٨٦).

وقد أكدت الجملة بالقسم ولام القسم ونون التوكيد، وهذا وعد من الله- عز وجل- لا يتخلف إذا وجد مقتضاه، وهو صدق النية والعمل في نصرة دين الله، دون وجود مخالفة تمنع تحقيق ذلك، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ (٥١)﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة تعليل وتوكيد لما قبلها، واللام في قوله: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ للتوكيد.

أي: إنه- عز وجل- ذو القوة الشديدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٢)﴾ [الأنفال: ٥٢].

و«القوي»: الذي يفعل الشيء بلا ضعف، كما أن «القدير»: الذي يفعل الشيء بلا عجز.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية وصفه- عز وجل- بـ«القوي» و«العزيز» فالأولى حمل قوله: «عزيز» على عزة القهر، وعزة الامتناع؛ لدلالة قوله: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ الظاهرة على معنى «القوة».

أي: إن الله لقوي على نصر من ينصره، ويقاتل في سبيله، منيع لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، فبقوته- عز وجل- الشديدة وعزته التامة ينصر من ينصره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١)﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. بدل من «مَن» في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وفيها حث وإغراء على الاتصاف بالصفات المذكورة.

عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- قال: «فينا نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي»[1].

ولا شك أن أول من يدخل تحت هذه الآية هم صحابة رسول الله ﷺ؛ كما قال عثمان- رضي الله عنه، لكنها- أيضًا- عامة لكل من اتبعهم وعمل بها، وهي كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

ويدخل تحت الوصف المذكور في الآيتين كل من الراعي والرعية.

ومعنى ﴿ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: جعلنا لهم السلطة والتمكين فيها والاستخلاف عليها بلا منازع ولا معارض ولا مدافع ولا ممانع.

﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أقاموا الصلاة المفروضة، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده وأعظم العبادات البدنية وأهمها، أي: أقاموها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها إقامة تامة؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون أن يقول: «الذين يصلون» ونحو ذلك.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها في المساجد، وغيرها من النوافل.

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: وأعطوا الزكاة المفروضة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية وأهمها، وغيرها من النفقات والصدقات.

﴿ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعروف: ما أمر به الشرع وتعارف المسلمون على حسنه، ويشمل الأمر بتوحيد الله وطاعته وفعل الواجبات والمستحبات.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المنكر ما أنكره الشرع، وعرف المسلمين، ويشمل النهي عن الشرك والمعاصي، وعن ارتكاب المحرمات.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم وأخص صفات هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو حصن الإسلام المنيع، ومن أعظم وأهم واجبات الدين؛ ولهذا عدّه بعض أهل العلم الركن السادس من أركان الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٢).

وعن أبي بكر- رضي الله عنه- أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه**

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥)- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩). وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٥/ ٣٨٨).

أوشك أن يعمهم الله بعقابه»(١).

وعن زينب بنت جحش- رضي الله عنها- قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ فزعًا مرعوبًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(٢).

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: مَن ميّت الأحياء؟ فقال: «**الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا**»(٣).

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أي: أن مرد الأمور ومرجعها ونهايتها إلى الله- عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٣]، فإليه- عز وجل- مرد جميع الأمور ونهايتها، وإليه مرد الخلائق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، وإليه مصيرهم وإيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قال ابن كثير(٤): «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣]».

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله- عز وجل- وتكفله بالمدافعة عن الذين آمنوا أذى الكفار وشرور الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢- التشويق والإغراء بالدخول تحت حفظ الله- عز وجل- ودفاعه بالإيمان به- عز وجل- والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

(٤) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٤).

٣- قوة الله- عز وجل- التي لا تقهر وقدرته التامة في دفاعه عن أوليائه المؤمنين.
٤- لا حول ولا قوة لأحد من المؤمنين ولا غيرهم على دفع الشرور إلا بالله عز وجل.
٥- نفي محبة الله- عز وجل- لمن كان خوانًا كفورًا، وإثبات بغضه له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.
٦- إثبات محبة الله- عز وجل- لمن كان أمينًا مؤمنًا؛ لأنه- عز وجل- إذا كان لا يحب من كان خوانًا كفورًا، فمفهوم الآية أنه يحب من كان بضده.
٧- التحذير والتنفير من الخيانة والكفر؛ لأن ذلك سبب بغض الله- عز وجل- ومقته وانتقامه.
٨- إذن الله- عز وجل- الشرعي للرسول ﷺ والمؤمنين بالقتال لَـمَّا وجد سببه، وجاءت مناسبته واكتملت أدواته؛ لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وكان المشركون بمكة يؤذون المؤمنين أذى شديدًا، فيتظلمون إلى رسول الله ﷺ فيأمرهم بالصبر؛ لأنه لم يؤمر بالقتال.
٩- أن سبب الإذن للمؤمنين بالقتال ظلم المشركين لهم بأذيتهم وقتالهم لهم وإخراجهم لهم من ديارهم بغير حق؛ وذلك أشد الظلم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾.
وفي هذا رد على من يقول: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فالجهاد شرع لدفع الظلم عن المسلمين، وقتال من يقاتلهم، أو يقف في طريق الدعوة إلى الله وإقامة شرعه، ونشر دينه الحق.
١٠- قيام الدين الإسلامي على العدل ورفع الظلم.
١١- قدرة الله- عز وجل- التامة على نصر المؤمنين، وتحقيقه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.
١٢- أن نهاية الظلم الخسار والبوار والهزيمة.
١٣- شدة بغض الكافرين للمؤمنين، فقاتلوهم وآذوهم، وأخرجوهم من ديارهم، لا لشيء، وبغير حق، إلا أنهم آمنوا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين.

١٥- تأكيد الشيء بما يوجب نقضه.

١٦- حفظ الله- عز وجل- للناس حياتهم الدينية والدنيوية وأماكن عباداتهم بدفع بعضهم ببعض، بالجهاد في سبيل الله وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

١٧- أن الجهاد في سبيل الله هو الحصن المنيع الحامي بإذن الله لبيضة الإسلام ودولته وحرية الدعوة إلى الله- عز وجل- وعبادته.

١٨- دفع الله- عز وجل- عن مواضع عبادة أهل الكتاب وغيرهم بالجهاد في سبيل الله، إذا دخلوا تحت حكم الإسلام ودفعوا الجزية، وإن كان يبغضهم ومواضع عباداتهم.

١٩- الإشارة إلى أن الله- عز وجل- قد يدفع عن المؤمنين بالكافرين وقد يدفع عن الكافرين بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

٢٠- الترغيب في إقامة المساجد، وذكر الله فيها كثيرًا بالصلاة وأنواع العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

٢١- وعد الله- عز وجل- الذي لا يتخلف- بنصر من ينصر دينه وأولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

٢٢- إثبات صفتي القوة والعزة التامتين لله- عز وجل، وتأكيد قدرته التامة على نصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

٢٣- ثناء الله- عز وجل- على المؤمنين الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٢٤- الإغراء والحث على الاتصاف بما ذكر في الآية من الصفات؛ لأن الله- عز وجل- رتب نصره الذي وعد به المؤمنين وتمكينه لهم على قيامهم بذلك شكرًا له- عز وجل- على نعمة النصر والتمكين في الأرض.

٢٥- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات، فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وأعظم العبادات كلها بعد الشهادتين، من حفظها وأقامها كما شرع الله- عز وجل- حفظ دينه، وربح دنياه وأخراه، ومن أضاعها خسر دينه ودنياه وأخراه.
والزكاة أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، فيها يتجلى مظهر الإحسان إلى عباد الله- كما يتجلى في الصلاة مظهر الإحسان في عبادة الله.

٢٦- عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله ذكره بعد الصلاة والزكاة، ولا غرو في هذا فهو حصن الإسلام الحصين وسياجه المتين.

٢٧- أن عاقبة الأمور كلها ومصيرها ومرجعها ومردها إلى الله- عز وجل، إليه إياب الخلائق، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الواو: استئنافية، و«إن»: شرطية، و﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ، أي: وإن يكذبك هؤلاء المشركون، وجواب الشرط قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.

ويجوز كون جواب الشرط محذوفًا دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، والتقدير: فلا عجب في تكذيبهم لك، أو فلا تبالهم، فإن ذلك عادة أمثالهم.

أي: فلست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمة كَذَّبت.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أول الرسل عليهم السلام، مع لبثه فيهم يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَعَادٌ﴾، أي: وكذبت عاد، وهم قوم هود عليه السلام.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وكذب قوم إبراهيم عليه السلام، وهم الكلدان.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: وكذب قوم لوط عليه السلام.

﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾، أي: وكذب أصحاب مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾ كليم الرحمن مع ما جاء به من الآيات البينات، والمعجزات الواضحات.

﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: أنظرتهم وأمهلتهم، ولما أعاجلهم بالعقوبة، استدراجًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥].

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فأمليت لهم؛ للإيماء أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل، وفي هذا تعريض بالنذارة والوعيد لمشركي قريش.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، أي: أخذتهم بالعقوبة، أي: ثم عاقبتهم.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم، وعقابي لهم، بسبب تكذيبهم وكفرهم؟ والاستفهام للتعجب، أي: ما أعظم عقابي لهم، وما أشد إنكاري عليهم!

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٢][1].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «أَهْلَكْتُها» بالتاء مضمومة من غير ألف، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾.

و«كأين» للتكثير، أي: فكم من قرية، أي: وكثير من القرى المكذبة أهلكناها.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والتكذيب لرسولها.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، أي: متهدمة، قد سقطت حيطانها على سقوفها، وصارت خرابًا بعد العمران، وموحشة بعد أن كانت آهلة بالسكان.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾، أي: وكم من بئر معطلة لا يستقي منها أحد، ولا يردها أحد، بعد أن كانت مزدحمة بالواردين والصادرين.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، أي: وكم من قصر مشيد، مرفوع البنيان، مبيض ومزين بالجص وغيره، تعب عليه أهله، وشيدوه وحصنوه وزخرفوه، قد تعطل وصار موحشًا بعد خلوه من السكان، فصار ذلك كله عبرة وعظة لمن تفكر ونظر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أفلم يسيروا في الأرض بأقدامهم وأبدانهم، ويتأملوا ببصائرهم؟ والاستفهام للأمر؛ ولهذا قال: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون لهم قلوب يعقلون بها آيات الله في الكون، وفي عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا.

﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ «أو»: حرف عطف بمعنى الواو، أي: وآذان يسمعون بها أخبار القرى والأمم المكذبة، وما حل بهم من العقوبات والنكال، فيعتبرون ويتعظون؟

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الفاء: تعليلية، والضمير في «إنها»: ضمير الشأن، أي: فالشأن أنها لا تعمى الأبصار الحسية عن المشاهدة والنظر، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن التفكر والتدبر والتأمل والاتعاظ والاعتبار، فما ينفع مع ذلك مجرد الإبصار.

وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ صفة لـ«القلوب».

قال ابن كثير[1]: «أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ

---

(١) في «تفسيره» ٥/ ٤٣٥.

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك يا محمد هؤلاء الكفار المكذبون بالعذاب؛ لجهلهم وعنادهم وشدة تكذيبهم وإنكارهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣ – ٥٤].

﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده؛ من تعذيب الكافرين في الدنيا والآخرة والانتقام منهم، وإكرام المؤمنين، أي: أن ذلك واقع لا محالة، وفي هذا تهديد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالغيب: «يَعُدُّونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَعُدُّونَ﴾.

أي: وإن يومًا عند ربك يا محمد من طوله وشدته وهوله كألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا وسنيها، فمقدار يوم واحد عنده كألف سنة عند خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥].

وهو سبحانه حليم لا يعجل؛ لتمام علمه وكمال قدرته، وكونه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأمهل.

وسواء عجل لهم العذاب في الدنيا أو أجل؛ فإن أمامهم هذا اليوم العظيم، وهو آتٍ لا محالة فلا يستعجلوه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٢٩ – ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٨ – ٢٩]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾، أي: وكم من قرية أمهلتها وأنظرتها مدة طويلة، ولم أعاجل أهلها بالعقوبة استدراجًا لهم.

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعقوبة، أي: ثم عاقبتها.

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: وإلي مصير الأمور ومآلها، ومرجع الخلق يوم القيامة فأحاسبهم وأجازيهم على أعمالهم.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾.

لما استعجل المشركون والكفار والمكذبون منه ﷺ العذاب؛ أمره الله عز وجل أن يبين لهم أن مهمته الإنذار البين لهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب، فذلك إلى الله عز وجل.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك، المستعجلين بالعذاب، ولغيرهم من الناس.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ «إنما» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير لكم بيِّن وواضح النذارة، وليس إليَّ تعجيل العذاب.

و«النذير»: المنذر المخوف من الشر والعذاب قبل وقوعه، ولهذا قال ﷺ: «**أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء**»[1].

وخص الإنذار بالذكر في الآية؛ لأن السياق مع المكذبين، وإلا فهو نذير وبشير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤].

ولهذا قال مبشرًا:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ خاصة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: وعطاء واسع من فضل الله عز وجل في الدنيا، وفي الآخرة الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ» بتشديد

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ٢٢٨٣، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بالتخفيف والألف: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، أي: مغالبين لإطفاء نور الله، وتثبيط الناس عن اتباع القرآن، ظانين أنهم يعجزوننا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: ساكنوها وملازموها، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم عذابها.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه من كذبه من قومه، بإخباره بتكذيب كثير من الأمم قبلهم لرسلهم؛ ليعلم أنه ليس بأول رسول كذبه قومه؛ تقوية لقلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ۝٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾.

٢- أن المصائب إذا عمت خفت؛ كما أن التكاليف إذا عمت خفت.

٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ وتثبيته له، وتشريفه عز وجل له بخطابه له بقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾.

٤- إثبات رسالة من ذكر من الرسل في هذه الآية، وتكذيب أقوامهم لهم.

٥- الإشارة إلى عظم ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البينات، والدلائل والمعجزات.

٦- إملاء الله تعالى للذين كفروا وللقرى الظالمة، وإمهالهم استدراجًا لهم، ثم أخذهم بالعقوبة الشديدة أخذ عزيز مقتدر، وإنكاره عليهم أعظم الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾.

٧- أن الله عز وجل يمهل ويُنظر ولا يهمل، وإذا أخذ فإن أخذه أليم شديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾.

٨- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسل، وتهدمها بعد العمران، وسقوط حيطانها على سقوفها، وتعطل آبارها من الوارد والصادر، وخلو قصورها المشيدة من السكان.

٩- التهديد والإنذار للمكذبين له ﷺ من مشركي قريش؛ أن يحل بهم ما حل

بالمكذبين قبلهم.

١٠- التعجيب من حال المكذبين والإنكار عليهم؛ كيف وهم يسيرون في الأرض بأبدانهم لا يتأملون بعقولهم، ولا ينتفعون بأسماعهم وأبصارهم فيما يسمعون ويشاهدون من آيات الله في الكون، وفي آثار عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا؟! لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١١- أن العمى الحقيقي ليس هو عمى الأبصار، وإنما هو عمى القلوب والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١٢- أن السير في الأرض دون تأمل في آيات الله ونظر، وانتفاع بما منح الله الإنسان من عقل وسمع وبصر لا يفيده شيئًا، بل قد يكون حجة عليه.

١٣- أن القلوب محلها الصدور، وكذا العقول؛ فإن العقل دائر بين القلب والمخ.

١٤- استعجال المكذبين النبي ﷺ بالعذاب؛ لجهلهم وظلمهم وعنادهم وشدة تكذيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

١٥- إثبات أن عذاب المكذبين آتٍ لا محالة، ولا بد من وقوعه؛ لأن الله لا يخلف وعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة وطوله وشدة أهواله، والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

١٧- أن مصير الأمور كلها، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٨- أن الرسول ﷺ رسول الناس عامة، نذير بيِّن النذارة؛ كما أنه مبشر لمن آمن منهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب أو تأجيله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

١٩- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٠- أنه إنما يثاب بالمغفرة والجنة الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات

الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعهم بجوارحهم.

٢١- الوعيد والتهديد للذين سعوا في آيات الله معاجزين، ظانين أنهم سيفلتون من عذاب الله، ومثبطين للناس عن الإيمان بالله وآياته بدخول الجحيم وملازمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

الواو: استئنافية، و«مَا»: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: بعثنا ووجهنا.

﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ الخطاب للنبي- محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين، فيعم قوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم- عليه السلام- إلى بعثته ﷺ.

﴿مِن رَّسُولٖ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لاستغراق العموم في النفي، أي: ما أرسلنا قبلك أيّ رسول ولا نبي ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: مؤكدة للنفي.

وفي عطف النبي على الرسول: دلالة على أن النبي غير الرسول، فالرسول عند أكثر أهل العلم: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

قال مجاهد: «النبي الذي يُكلم ويُنزل عليه، ولا يرسل»[1].

وقال البغوي[1]: «الرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانًا. والنبي: الذي تكون

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٠).

نبوته إلهامًا».

وقال بعض أهل العلم: «الرسول من أوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله»[٢].

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر، أو استثناء، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير عاملة.

﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿أَلْقَى﴾.

ومعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: تلا وقرأ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا قراءة، أي: يقرؤون ولا يكتبون[٣].

﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته في مسامع الناس ما لم يقرأه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه»[٤].

ومراد ابن عباس- رضي الله عنهما، أي: إذا تكلم وقرأ وتلا، ومن هذا قول حسان- رضي الله عنه- في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر[٥]

وقال الآخر:

تمنَّيَ كتاب الله أول ليله ... تمنِّيَ داود الزبور على رسل[٦]

أي: تلا كتاب الله.

---

(١) في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١٧/ ١٥٧)، «الرسل والرسالات» ص(١٤، ١٥).

(٣) انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/ ٤٣٨)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٣٢). وانظر مادة «مني» في «لسان العرب».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٠٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٣٠)، وأخرجه البخاري- معلقًا- في تفسير سورة الحج (٨/ ٤٣٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» مادة «منَي».

(٦) البيت لحسان بن ثابت- رضي الله عنه. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٥٢٧)، «روح المعاني» (٩/ ١٦٤).

وبهذا قال أكثر المفسرين[١].

والمعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا حدث وقرأ وتلا ألقى الشيطان في حديثه وقراءته وتلاوته، مما لم يقرأه الرسول وإنما ألقاه الشيطان في مسامع الناس.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه بذكر ما حصل للرسل والأنبياء قبله- عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: فيزيل الله- عز وجل- ويبطل ما يلقيه الشيطان، يريد به التلبيس على الناس وخلط الحق بالباطل.

وقد رُويَ أنه لما كان ﷺ يقرأ في سورة النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» ولما سجد النبي ﷺ في آخر السورة سجد معه المسلمون والمشركون، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ إلى آخر ما جاء في هذه القصة، المسماة: قصة الغرانيق.

وقد رويت هذه القصة مطولة ومختصرة عن جمع من السلف منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحارث بن هشام والزهري ومحمد بن قيس والضحاك وأبوالعالية والمطلب بن عبدالله والسدي وغيرهم[٢].

وفي أكثر روايات هذه القصة ما لا يليق بمقامه ﷺ، وهي باطلة من وجهين:

أولًا: أن هذه القصة لم ترد من وجه صحيح، بل كل طرقها ما بين منكر وضعيف ومرسل ومنقطع، وقد سئل عنها محمد بن إسحاق، فقال: «هذا من وضع الزنادقة»

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٩- ٦١٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦٠٣) وما بعدها، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٥٠٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٧- ٥٢٨، ٥٣٣)، «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٢).

وقد صنف فيها كتابًا[١].

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، رواتها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا التصانيف الحديثيّة شيء مما ذكروه، فواجب اطراحه، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه»[٢].

وقال القاضي عياض[٣]: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم».

وقال القرطبي[٤]: «الأحاديث الواردة في نزول هذه الآية ليس منها شيء صحيح».

وقال ابن كثير[٥]: «قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح- ثم ساق بعض روايات هذه القصة عن سعيد بن جبير وابن عباس والسدي وقتادة وابن شهاب الزهري- ثم قال: قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات».

ثانيًا: أن ما جاء فيها من أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ تلك المقالة مستحيل وقوعه شرعًا؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ ما أوحاه الله إليه، محفوظ عن الشياطين بحفظ الله- عز وجل- لوحيه. قال- عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٨١- ٣٨٢).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) في «الشفاء» (٢/ ١٢٤).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٨٠).

(٥) في «تفسيره» (٥/ ٤٣٨- ٤٤٠).

﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن الجوزي[١] عما ورد في هذه القصة: «قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح؛ لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا».

ومما ينبغي أن يُعلم أن نص الآية يدل على أن الرسل والأنبياء قبل رسولنا ونبينا محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام- كان الواحد منهم إذا قرأ وتلا ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته، وهذا ظاهر الدلالة من الآية.

وأيضًا فإن الحكمة من ذكر ما حصل للرسل والأنبياء وهي تسليته ﷺ وتثبيت قلبه، وكذا سياق الآيات ومعناها- كل ذلك قد يدل على وقوع شيء من ذلك له ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

لكن يجب القطع بأن ما حصل من إلقاء الشيطان إنما هو في مسامع المشركين، لا أن الرسول ﷺ قال ذلك وتكلم به، فذلك مستحيل شرعًا؛ لعصمته ﷺ عن مثل هذا وحفظ الله- عز وجل- لوحيه- كما سبق بيانه- وعلى هذا يجب تنزيل ما رُويَ في هذه القصة على فرض صحتها- علمًا أن كل أسانيدها مرسلة ومنقطعة، وضعيفة ومنكرة[٢].

وعلى هذا أيضًا ينزل سبب سجود المشركين مع المؤمنين لما سجد النبي ﷺ في آخر السورة، كما ثبت في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[٣].

قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: ثم يثبت الله آياته ويحررها ويقررها ويحفظها ويبينها، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، فتبقى خالصة

---

(١) في «زاد المسير» (٥/ ٤٤١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦١٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٨- ٥٢٩، ٥٣٢- ٥٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٠٢- ١٣٠٣)، «الشفاء» (٢/ ١٤٢)، «زاد المسير» (٥/ ٤٤١)، «الروض الأنف» (١/ ٢٢٩)، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩١)، «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩)، «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٠)، «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» للألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٧٠)، وفي تفسير سورة النجم (٤٨٦٢)، والترمذي في الجمعة (٥٧٥).

من مخالطة إلقاء الشيطان- تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن القيم[1]: «فالمحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله، أي: فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه- عز وجل- ذو علم واسع محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ١٢].

ولما سئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعتري علمه- عز وجل- جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف المخلوق الضعيف فإنه عرضة للأمرين.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، المحكم المتقن في خلقه وقدره وشرعه.

وبعلمه- عز وجل- الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة- عصم رسله وأنبياءه من الخطأ في التبليغ، وحفظ وحيه من الشياطين، وأحكم آياته وهو العليم الحكيم.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اللام في ﴿ لِّيَجْعَلَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجعل. والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني القدري.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: الذي يلقيه

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٩).

الشيطان، أو إلقاء الشيطان، من الجن أو الإنس. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاءً وامتحانًا.

﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض القلوب نوعان: مرض حسي، ومرض معنوي، وهو أشد، وينقسم إلى قسمين: مرض شهوة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شهوة اتباع هوى، وشهوة فرج، وشهوة بطن، والقسم الثاني: مرض شبهة وشك ونفاق، وهو المراد هنا في الآية.

والمعنى: ومن علمه- عز وجل- الواسع- وحكمه التام، وحكمته البالغة أن قدر كونًا ما يحصل من إلقاء الشيطان في قراءة رسله وأنبيائه؛ ليجعل ما يلقيه الشيطان ابتلاءً وامتحانًا للذين في قلوبهم مرض شبهة وشك ونفاق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ويجعل ما يلقيه الشيطان؛ ابتلاءً وامتحانًا للقاسية قلوبهم من المشركين واليهود وغيرهم من الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن كثير[(١)]: «﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان».

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من أهل الشرك والكفر والشك والنفاق من اليهود وغيرهم.

والظلم في الأصل: النقص، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله وأشرك معه غيره؛ لأن حق الله- عز وجل- هو أعظم الحقوق وأوضحها

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ٤٤٢).

وأبينها؛ ولهذا قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ أي: لفي مشاقة ومحادة ومخالفة لله- عز وجل- ولدينه ورسوله ﷺ، والشقاق والمشاقة: المحادة والمخالفة والمعاندة، مأخوذ من الشق وهو الجانب والحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٥، ٢٠].

﴿بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد كل البعد عن الموافقة والمتابعة، بالغ الغاية في المخالفة؛ لتماديهم وإغراقهم في الظلم والكفر والضلال، فهم بعيدون كل البعد عن الرجوع إلى الحق بسبب زيغهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الواو: عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الذين أعطوا العلم النافع؛ العلم بالله وشرعه، والذي يفرقون به بين الحق والباطل، أي: الذين جمع الله لهم بين العلم والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: أن القرآن الكريم الذي أنزلناه إليك وأحكمنا آياته هو الحق الثابت من ربك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: فيصدقوا به.

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي: فتلين وتخضع وترق وتذل له قلوبهم وتطمئن وتخشع

وتُسلِّم؛ مما يكون سببًا في انقياد جوارحهم، كما قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا وعد من الله- عز وجل- للذين آمنوا بدلالته وإرشاده لهم وتوفيقهم إلى صراط مستقيم.

وهداية الله- عز وجل- للمؤمنين تنقسم إلى قسمين، هداية الدلالة والإرشاد والبيان- وهذه عامة لهم ولغيرهم، وهداية التوفيق والقبول- وهذه خاصة بالمؤمنين.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: إلى طريق معتدل لا اعوجاج فيه، بمعرفة الحق والعمل به، وهو صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣ ، النور: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: ٤١]، وقال عز وجل لنبيه- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهو صراط المنعم عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

ومن هداه الله وأرشده ووفقه للطريق المستقيم في الدنيا هداه إلى الطريق المستقيم في الآخرة، لجواز الصراط الحسي على متن جهنم ودخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ﴾ أي: ولا يزال الذين كفروا بالله وجحدوا دينه وشرعه في شك وريب من الحق الذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى تأتيهم القيامة فجأة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤)- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

ويحال بينهم وبين الإيمان، وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها محددة الوقوع، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ عاطفة بمعنى الواو، أي: ويأتيهم عذاب يوم عقيم، وهو يوم القيامة.

ومعنى ﴿عَقِيمٍ﴾ أي: شر محض عليهم لا خير فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

وهذا كما سمى الله- عز وجل «الريح الدبور» التي أهلك بها عادًا بالريح العقيم، لأنها شر محض لا خير فيها، أهلكت كل شيء أتت عليه كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وقيل: سمي عقيمًا لأنه لا ليل له.

ويحتمل كون ﴿أَوْ﴾ على معناها للتقسيم وهو الأصل، والمراد باليوم العقيم يوم بدر الذي قتل فيه سبعون من صناديدهم، فهو عقيم بالنسبة لهم لا خير لهم فيه البتة، ويقوي هذا ذكر الساعة قبله، أي: أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وهو يوم بدر؛ فيُقْتَلون على الكفر.

ويقوي أن المراد به يوم القيامة: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، أي: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم تأتيهم الساعة.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلاقيه من أعدائه من شياطين الجن والإنس- بذكر ما حصل للرسل والأنبياء- قبله- عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأنها جاءت من عند الله- عز وجل.

٣- الإشارة إلى كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾.

٤- أن النبي غير الرسول، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ والعطف يقتضي المغايرة.

٥- حرص الشيطان- لعنه الله- على تشكيك الناس فيما جاءت به الرسل والأنبياء والتلبيس عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

٦- حفظ الله- عز وجل- لوحيه ورسله وما أنزله عليهم، وإبطال ما يلقي الشيطان وإزالته، وإحكام آياته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٧- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- والحكم التام بأقسامه الثلاثة، الكوني والشرعي، والجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٨- ابتلاء الله- عز وجل- وامتحانه لمرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة بما يلقيه الشيطان للتلبيس عليهم وتشكيكهم في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

٩- عظم مشاقة الظالمين، من مرضى القلوب وقُساتها من المنافقين والكفرة وبُعدهم كل البعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

١٠- أن الظلم كل الظلم بمعصية الله- عز وجل- ومخالفة أمره وتكذيب رسله وعبادة غيره.

١١- تثبيت الذين أوتوا العلم بمعرفتهم أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله- عز وجل- هو الحق وإيمانهم به، وخضوع قلوبهم له، وعدم اغترارهم بما يلقيه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٢- فضل العلم وأهله؛ لأن الله- عز وجل- امتدحهم بمعرفة أن ما جاءت به الرسل هو الحق وإيمانهم به وإخبات قلوبهم له.

١٣- تعظيم ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي؛ لقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإضمار دون الإظهار.

١٤- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب- عز وجل- إلى ضميره ﷺ،

وربوبية الله تعالى الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

١٥- وعد الله- عز وجل- وتكفله للذين آمنوا بدلالتهم وإرشادهم وتوفيقهم إلى طريق مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به، والذي يسعدون بسلوكه في الدنيا بالحياة الطيبة، ويسعدون في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

١٦- استمرار الذين كفروا على ما هم عليه من المرية والشك والريب فيما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق حتى تأتيهم القيامة وما فيها من العذاب الأليم والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

لما ذكر استمرار الذين كفروا في التشكيك في القرآن، وتوعدهم بالساعة وعذاب يوم القيامة، أتبع ذلك ببيان أن الملك في ذلك اليوم له وحده، يفصل بينهم.

قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، أي: الملك في ذلك اليوم- يوم القيامة، يوم تزول مريتهم وشكهم- لله وحده، لا لغيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾، أي: يفصل بينهم بحكمه العدل وقضائه الفصل.

والملك لله تعالى اليوم، وفي ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٤ - ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولكن في ذلك يتضح ويتبين ويظهر تمام الظهور تفرده وحده بالملك، ويخضع جميع ملوك الدنيا وما ملكوه له عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الصلاة والزكاة وغير ذلك، فصدقوا إيمانهم بعملهم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: كفروا بالله ورسله، واستكبروا عن الإيمان واتباع الحق، وأعرضوا عنه.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: جحدوها وأنكروها.

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم حسيًّا ومعنويًّا، بسبب كفرهم واستكبارهم، واستهانتهم بأمر الله ورسله وآياته؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

لما ذكر ما أعد للمؤمنين من جنات النعيم، ذكر في هذه الآية ما أعده للمهاجرين في سبيل الله خاصة من الرزق الحسن، والمدخل العظيم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، أي: خرجوا من ديارهم وأوطانهم وهجروها وتركوا أولادهم وأموالهم.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: ابتغاء وجه الله ونصرة لدينه.

﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾، أي: في الجهاد في سبيل الله.

﴿أَوْ مَاتُوا﴾ من غير قتل، على فرشهم أو غير ذلك.

أي: فهم في أجر الهجرة سواء، لهم الأجر الجزيل والثناء الجميل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، ولهذا قال:

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ليعطينهم الله عطاء حسنًا في البرزخ بنعيم القبر، وفي يوم القيامة في الجنة، رزقًا يجمع لهم بين الحسن

والإحسان، والروح والريحان، ونعيم القلب والروح والبدن.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اللام: للتوكيد، والمفاضلة لا تعني أن هناك رازقًا غير الله، بل إن الله تعالى هو الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر.

﴿مُّدْخَلًا﴾ قرأ نافع: «مَدْخَلًا» بفتح الميم اسم مكان، وقرأ الباقون: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم مصدرًا ميميًّا، أي: ليدخلنهم الجنة دار الرضوان؛ كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢١ – ٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو علم واسع لكل شيء، عليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، ويستحق ما ذكر ممن ليس كذلك.

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب، ولا يهمله.

قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر أو الشأن.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

هذا- والله أعلم- من باب التهيئة والتوطئة للجهاد، والتأكيد للنصر الذي سبق الوعد به بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]، قوله: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ﴾، أي: ومن جازى ظالمًا واستوفى حقه منه.

﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾ «ما»: موصولة، أي: بمثل الذي عوقب به، أي: بمثل اعتداء هذا الظالم عليه، ولم يتعد في الاقتصاص وسمي الاعتداء معاقبة من باب المشاكلة؛ لقوله: ﴿عَاقَبَ﴾.

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾، أي: ثم اعتدى عليه مرة أخرى بسبب أنه استوفى حقه.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لينصرنه الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ الجملة: استئنافية، واللام: للتوكيد، أي: أن من صفته عز وجل العفو والتجاوز، مع تمام قدرته على الانتقام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

﴿غَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عنه.

وحيث اجتمعت صفة العفو والمغفرة، فيحمل العفو على التجاوز عن الذنوب، ويحمل الغفور على سترها عن الخلق.

وفي ختم الآية بهاتين الصفتين ترغيب في العفو والصفح والمغفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: ذلك النصر بسبب أن الله عز وجل ذو القدرة التامة والتصرف المطلق في خلقه بما يشاء: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، أي: يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم العكس، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦ - ٢٧].

ويترتب على ذلك اختلاف الفصول، وذلك من أجل نعم الله تعالى على العباد؛ لما في ذلك من المنافع للإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: ذو البصر الذي يبصر ويرى كل شيء، يرى النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

فهو عز وجل سميع لأقوال عباده بصير بهم، لا تخفى عليه منهم خافية، قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها ... والمخ من بين العظام النُّحَّل

امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأول[1]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: بسبب أن الله هو الحق الثابت، فذاته حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص بالغيب: ﴿يَدْعُونَ﴾.

---

(١) الأبيات تنسب للزمخشري، ولغيره، مع اختلاف فيها. انظر: «الكشاف» ١/ ١١٦، «ربيع الأبرار» ١/ ١٠، «المستطرف» ص٣٥٢، «الكشكول» ٢/ ٢٩١، «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» ص٤٦٤.

وقرأ الباقون بالخطاب: «تدعون»، والجملة والتي بعدها في محل جر عطفًا على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

و«ما»: موصولة، أي: وأن الذي يدعونه ويعبدونه غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان.

و«الباطل»: إما أن يكون في الطلب فيكون كذباً، وإما أن يكون في الحكم فيكون جوراً، وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يشمل الأمرين: دعواهم أن هذه آلهة، وهذه دعوى كاذبة، وعملهم لهذه الآلهة وعبادتهم لها، وهو جور وظلم، حيث يعدلون المخلوق بالخالق. فدعوى ألوهيتها كاذبة باطلة، وهي معبودات باطلة؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا، وعبادتها باطلة تبعًا لذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، أي: وذلك بأن الله هو العلي الكبير؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ٩].

و«العلي»: اسم من أسماء الله عز وجل، يفيد أنه سبحانه ذو العلو المطلق على جميع خلقه، بذاته وصفاته، وقدره وقهره.

و«الكبير»: اسم من أسمائه عز وجل، يفيد أنه ذو الكبرياء والعظمة، الذي لا أعظم منه، ولا أكبر منه؛ كما قال عز وجل: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»[1].

فله عز وجل كل صفات العلو والعظمة والكبرياء والكمال والجلال، وله من كل صفة منها أكملها وأجلها.

الفوائد والأحكام:

١- أنه في يوم القيامة يتبين ويتضح ويظهر تمام الظهور تفرد الله عز وجل وحده بالملك؛ حيث يخضع له في ذلك جميع الملوك وما ملكوا وجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

٢- حكم الله تعالى في ذلك اليوم وقضاؤه بين الخلق جميعًا، وفصله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣- إثابة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات النعيم، وعقاب الذين

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كفروا وكذبوا بآيات الله بالعذاب المهين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧﴾.

٤- أن من شرط الإيمان أن يقرن بالعمل، وأن من شرط العمل أن يكون خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والتكذيب بآيات الله.

٦- الجمع للكفار والمكذبين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي المذل والمهين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

٧- فضيلة الهجرة في سبيل الله، والشهادة في سبيله؛ لعظم ما أعد الله لمن هاجروا في سبيله، ثم قتلوا أو ماتوا، من الرزق الحسن، والمدخل الذي يرضونه، وهو الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾.

٨- أن الممدوح والمعتبر من الهجرة هو ما كان في سبيل الله، أي: لنصرة دين الله وإقامة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٩- أن من هاجر في سبيل الله فله أجر هجرته سواء قتل، فاجتمع له أجر الهجرة وأجر الشهادة، أو مات بدون قتل فنال أجر الهجرة فقط.

١٠- أن الرزق من الله تعالى وحده، وأن الله تعالى هو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

١١- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ۝٩٨﴾ [طه: ٩٨].

١٢- إثبات صفة الحلم الواسع لله عز وجل، وأنه عز وجل لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله يتوب ولا يهمله؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٞ﴾.

١٣- جواز رد الظلم والاعتداء بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾.

١٤- وعد الله تعالى لمن استوفى حقه من ظالمه، ثم عاد ظالمه فاعتدى عليه؛ بنصره

تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ﴾.

١٥- إثبات صفتي العفو والمغفرة الواسعتين لله تعالى؛ فهو سبحانه عفو يتجاوز عن ذنوب عباده، غفور لهم، يستر ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

١٦- إثبات تمام قدرة الله تعالى على نصر من بُغي عليه، وعلى تدبير الكون كله، وإدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، وترتيب المصالح العظيمة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

١٧- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأصوات، وذو البصر النافذ يشاهد ويرى جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

١٨- أن الله عز وجل هو الحق وحده، فربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وشرعه حق، وقدره حق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

١٩- أن كل ما يعبد من دون الله فهو باطل زائل مضمحل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

٢٠- إثبات اسم الله تعالى «العلي»، وأنه سبحانه ذو العلو المطلق بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «الكبير»، وأنه لا أكبر منه ولا أعظم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۝٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾.

ذكر عز وجل من دلائل تمام قدرته وعظيم سلطانه إدخال الليل بالنهار والنهار بالليل، وأنه الإله الحق، وبطلان ما يعبد من دونه، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، ثم أكد ذلك بذكر إنزاله المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وتسخير ما في الأرض للناس، والفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه السماء من السقوط، وإحياء الخلق ثم إماتتهم ثم إحياؤهم مرة أخرى.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الاستفهام في الموضعين: للإخبار والتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك أن الله بقدرته التامة أنزل من السماء، أي: من العلو، ماءً وهو المطر، بعد أن أوجد أسبابه فأنشأ السحاب ولقحه بالرياح؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فتصير الأرض مخضرة بأصناف النباتات بعد أن كانت جرزًا جرداء مجدبة يابسة قاحلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج:

٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

قال الشاعر:

وقولا له من ينبت الحب في الثرى — فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه — ففي ذاك آيات لمن كان واعيا(١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾، أي: ذو اللطف التام، يدرك أسرار الأمور وحكمها ودقائقها وخفياتها، وذو اللطف والإحسان إلى عباده، والتيسير عليهم، والتخفيف عنهم.

قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ الأحزاب: ٣٤، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩].

قال ابن القيم(٢):

وهو اللطيف بعبده ولعبده — واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة — واللطف عند مواقع الإحسان

﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء، وخفايا الأمور، وما تكنه الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾، أي: له وحده خلقًا وملكًا وتدبيرًا جميع

---

(١) البيتان لأمية بن أبي الصلت، أو زيد بن عمرو بن نفيل. انظر «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤١٦.

(٢) «النونية» ص١٤٩.

الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ «إن» واللام: للتوكيد. و«الغني» من أسماء الله عز وجل، أي: وإنه سبحانه ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، عن جميع خلقه؛ لسعة ملكه وعظيم قدرته وقوة سلطانه، وكثرة خزائنه وملاءتها وغير ذلك، والخلق كلهم محتاجون إليه.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه، وواسع جوده، يده سحاء الليل والنهار.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: سخر لكم جميع الذي في الأرض، مما على ظاهرها من حيوان ونبات وجماد، ومما في باطنها من معادن وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: تسير على ظهر الماء وتمخر عباب البحر بأمره الكوني وتسخيره، تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجاراتكم من بلد إلى آخر، ومن مكان إلى مكان.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ «أن» والفعل «تقع» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: لئلا تقع، أو خشية أن تقع.

أي: ومن لطفه ورأفته ورحمته وتمام قدرته؛ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وأمره الكوني، وفي هذا تخويف للعباد بأنه لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها؛ إذ لا ممسك لها غيره؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئنافية، وفيها معنى التعليل للتسخير والإمساك، أي: لأن الله بالناس ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ذو رأفة

ورحمة، والرأفة: شدة الرحمة؛ فهي أخص من الرحمة، فهو عز وجل ذو رأفة ورحمة عامة بجميع الناس، وذو رأفة ورحمة خاصة بالمؤمنين منهم، ومن رأفته ورحمته بالناس سخر لهم ما سخر من المخلوقات، وأمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بإيجادكم وخلقكم من العدم بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدمًا.

وأحياكم أيضًا: بخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم كسا العظام لحمًا، ثم أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ بعد أن أحياكم.

﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ مرة أخرى ويبعثكم للحساب والجزاء على الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢٦﴾ [الجاثية: ٢٦].

أي: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل بالإحياء والإماتة؟ ولهذا يقول الكفرة والمكذبون معترفين حين لا ينفعهم الاعتراف: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿لَكَفُورٞ﴾ اللام: للتوكيد، أي: شديد الكفر والجحود لربه ولنعمه، إلا من هداه الله ووفقه، مع رأفة الله تعالى ورحمته به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾.

قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾، أي: لكل أمة نبي، ﴿جَعَلۡنَا﴾ جعلًا شرعيًّا، أي: شرعنا ﴿مَنسَكًا﴾، أي: عبادة ومتعبدًا وشريعة؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ

وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: ولكل أمة من الأمم جعلنا منسكًا جعلًا قدريًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾، أي: متعبدون به شرعًا، أو قدرًا.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾، أي: فلا ينازعك يا محمد هؤلاء المشركون المكذبون ويخاصمونك ويجادلونك.

﴿فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، أي: في الأمر الذي أنت عليه، وتدعو إليه، وهو توحيد الله تعالى.

والمعنى: فلا تبالهم؛ فأنت على الحق، فلا يثبطونك ويثنونك عن دعوتك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: واستمر على الدعوة إلى ربك.

كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ [القصص: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الجملة تعليل للأمر بالدعوة إلى ربه، أي: لأنك على هدى مستقيم، أي: على طريق واضح معتدل موصل إلى المقصود، بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

والمراد: إنك على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فاستمر في دعوتك؛ كما قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾، أي: وإن جادلك المكذبون والمشركون وخاصموك فيما جئت به من الحق.

﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: فقل لهم: الله أعلم بعملكم، أو بالذي تعملونه، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعيد أكيد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾، أي: يفصل بينكم يوم القيامة في الذي كنتم فيه تختلفون في الدنيا، فيجازي كل فريق بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠﴾:

لما ذكر حكمه بين الخلائق يوم القيامة، أتبع ذلك بما يدل على كمال حكمه؛ وهو إحاطة علمه بما في السماء والأرض، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الاستفهام للإخبار والتقرير، أي: اعلم ذلك، أو أنت تعلم بما علمك الله.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: أن علمه محيط بجميع الذي في السماء والأرض من المخلوقات.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾، أي: إن ذلك مكتوب عنده في كتاب عظيم، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب فيه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير**

كل شيء حتى تقوم الساعة، فجرى بما هو كائن إلى الأبد»[١].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾، أي: إن ذلك المذكور؛ وهو علمه ما في السماء والأرض، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل وهيّن عليه عز وجل؛ لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقرير كمال قدرة الله تعالى ورحمته ومنته بإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وجعلها مخضرة زاهية بعد أن كانت يابسة جرداء، والاستدلال بذلك على وحدانيته وقدرته التامة على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل، فهو سبحانه ذو اللطف بعباده والرفق بهم والإحسان إليهم، وهو ذو اللطف بإدراك أسرار الأمور وخفياتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾.

٣- إثبات أنه سبحانه ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء وخفايا الأمور، وما تكنه الصدور، وذو العلم بالظاهر والمستور؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

٤- إثبات سعة ملك الله عز وجل، وأن له جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الغني»، وأنه عز وجل ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، خزائنه ملأى، لا تغيضها كثرة النفقة، وكل الخلق محتاجون إليه، لا غنى لهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر ٤٧٠٠، والترمذي في تفسير سورة «ن» ٣٣١٩، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأحمد ٥/ ٣١٧.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٢٦٥٣.

٦- إثبات اسم الله «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه وجزائه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه وواسع جوده؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾.

٧- الامتنان على العباد بتسخير الله لهم ما في الأرض، وتسخير الفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه عز وجل السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبيان تمام قدرته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾.

٨- إثبات إذن الله تعالى وأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾.

٩- تخويف العباد بأنه عز وجل لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها.

١٠- إثبات صفة الرأفة لله تعالى، وأنه سبحانه رؤوف بالناس كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾.

١١- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه عز وجل ذو الرحمة العامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾، وفي هذا دلالة على أن «الرحيم» لا يختص بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، بل يدل على الرحمة العامة لجميع الناس، وعلى الرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٢- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته؛ لأنه سبحانه الذي خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم، والاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

١٣- أن الإنسان كفور بربه، جحود لنعمه، إلا من وفقه الله وهداه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾.

١٤- أن الله جعل شرعًا لكل أمة نبي منسكًا ومتعبدًا وشريعة هم متعبدون به؛ كما جعل لكل أمة من الأمم منسكًا ومتعبدًا هم متعبدون به؛ لقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾.

١٥- تقوية عزيمته ﷺ، ونهيه عن الالتفات إلى منازعة قومه، وأمره بالاستمرار بالدعوة إلى ربه؛ لأنه على هدى مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ

رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

١٧- أمره بالتحذير والتهديد للمجادلين له بالباطل بعلم الله عز وجل بعملهم، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

١٨- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وما يبدون وما يكتمون، وأنه أعلم بذلك منهم ومن غيرهم.

١٩- فصل الله تعالى بين الخلائق يوم القيامة، وبين المؤمنين والكافرين، ومجازاة كل فريق بما عمل، وإدخال المؤمنين جنات النعيم، وسوق المجرمين إلى دار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢٠- إثبات يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢١- إثبات وتقرير علم الله تعالى بجميع ما في السماء والأرض، وكتابته ذلك باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾.

٢٢- إثبات اللوح المحفوظ، وأن الله تعالى كتب فيه كل شيء.

٢٣- أن إحاطة علمه عز وجل بما في السموات والأرض وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ في الأزل، ووقوع ذلك كما علمه عز وجل وكتبه أمر عليه يسير؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون المكذبون غير الله.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به حجة ولا برهانًا على جواز عبادته، بل أنزل الحجج والبراهين على بطلان عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾، أي: والذي ليس لهم به علم، بل عبدوه على جهل وتقليد أعمى لآبائهم، مما سوله لهم الشيطان وزينه.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك بالله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: وما لهم؛ لبيان أن سبب الوعيد لهم وانتفاء النصير عنهم هو ظلمهم بالشرك والكفر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ الخطاب لكل من يصلح له، بدليل قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: ترى الكراهة ظاهرة على وجوههم.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: يكادون من شدة الغيظ والغضب من سماع القرآن، ﴿يَسْطُونَ﴾، أي: يبطشون بالذين يقرؤون عليهم آيات الله.

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهؤلاء الظالمين الكارهين لتلاوة القرآن عليهم.

﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه تهكم بهم، ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ الإشارة إلى ما أثار نكرهم وغضبهم وحفيظتهم، أي: إذا كنتم تستاؤون عند تلاوة القرآن عليكم وتكرهون ذلك ويغيظكم، وتعدونه في نظركم الفاسد وقلوبكم القاصرة شرًّا، فأخبركم بما هو شر لكم من ذلكم: النار وعذابها الشديد، فمآلكم ومصيركم إليها، وهي أشد وأعظم مما تخوفون به المؤمنين وتنالون منهم في الدنيا.

﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يقل: وعدكم الله إياها، وإنما قال: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للدلالة على أن سبب توعدهم بها ومصيرهم إليها هو كفرهم.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية، أي: وبئس المصير هي، أي: وبئس المآل والمنزل والمقام النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ «ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي لإيضاحه وبيانه وتقريبه بأمر حسي، وهو مما امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، أي: ألقوا له أسماعكم، وأنصتوا إليه، وتفهموه وتدبروه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: إن الذين تعبدون غير الله من الأصنام والأوثان، وترجون شفاعتهم، وتطلبون منهم الحاجات.

﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾، أي: لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابًا، الذي هو من أحقر

المخلوقات وأضعفها.

﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ الواو: حالية، أي: ولو اجتمع هؤلاء الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان والأنداد ما قدروا على خلق ذباب واحد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا ذرة أو ذبابة أو حبة**»(١).

وفي رواية: «**فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة**»(٢).

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ﴾، أي: وإن يسلب هذه المعبودات، أي: يأخذ منهم ﴿ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: وإن يسلبهم الذباب أي شيء مهما قل أو صغر، مما يضعونه عليها من طيب ونحوه.

﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، أي: لا يستخرجوه ولا يستردوه ولا ينقذوه منه، والسين والتاء للمبالغة.

فهم عاجزون عن مقاومته والامتناع منه، وعن الانتصار والانتصاف منه لو سلبهم شيئًا، وهم عن خلقه أشد عجزًا.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ وهو: الصنم المعبود من دون الله، الذي سلب منه شيء، ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ وهو: الذباب، وفيه تسوية بين السالب والمسلوب في الضعف والعجز.

وقيل العكس: فالطالب الذباب، والمطلوب المعبود.

أو ضعف الداعي والمدعو، أي: ضعف العابد، وهو المشرك، والمعبود، وهو الصنم، فهو عاجز متعلق بعاجز.

قال ابن القيم: «والصحيح: أن اللفظ يتناول الجمع، فضعف العابد والمعبود، المستلِب والمستلَب»(٣).

فالذباب السالب ضعيف، وأضعف منه المسلوب المعبود من دون الله، وأضعف منهما من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجها البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس، لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ٢١١١.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٢١.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، وما قدروه حق تقديره، حين عبدوا معه آلهة غيره، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا، وسووها به، وهو الإله الحق، الخالق العظيم، وهذا غاية الجهل والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦ - ٩٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ تعليل لمضمون قوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

«إن» واللام: للتوكيد، أي: ذو القوة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بأنواعها: عزة القوة، وعز القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية «قوي» و«عزيز»، فالأولى حمل قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ على عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وبقوته عز وجل وتمام قدرته وكمال عزته خلق هذا الكون، واختص بملكه وتدبيره، ويعيده كما بدأه؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: يختار بعلمه وحكمته من الملائكة رسلًا؛ لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية وقدره، ولتبليغ رسالاته إلى أنبيائه ورسله من البشر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على «الملائكة»، أي: ويصطفي ويختار من الناس رسلًا؛ لتبليغ رسالاته إليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: إن الله ذو سمع واسع يسمع أقوال عباده ودعاءهم وجميع الأصوات، وذو بصر واطلاع وعلم بهم وبأحوالهم وبجميع المخلوقات، يعلم من هو أهل للرسالة منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، أي: يعلم ما بين أيدي الخلق كلهم من الملائكة والناس، والرسل من هؤلاء وهؤلاء، أي: يعلم أحوالهم كلها، وما يظهرونه وما يخفونه، وما سبق من أحوالهم وما يستقبل، وما قبلهم وما بعدهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أي: وإلى الله وحده ترجع الأمور كلها في الدنيا والآخرة، وإليه عز وجل مصير الخلائق كلهم وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ – ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به حجة ولا برهانًا، وما ليس لهم به علم، بل بجهل وضلال؛ تقليدًا لآبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢- التهديد والوعيد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أي: أن الله سيعذبهم، ولا أنصار لهم يدفعون أو يمنعون أو يرفعون عنهم عذاب الله.

٣- أن عبادة آلهة من دون الله، والإشراك به ظلم عظيم، يوجب لصاحبه العذاب.

٤- تنكر الكفار لآيات الله، وكراهتهم لها، واستياؤهم من تلاوتها عليهم، واغتياظهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ٱلۡمُنكَرَۖ﴾.

٥- شدة بغضهم لمن يقرأها عليهم، ومقاربتهم البطش به؛ لقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾.

٦- انطماس عقول المشركين، وانقلاب الحقائق عندهم؛ لتنكرهم للآيات وما فيها من الدعوة إلى الخير، واعتبارهم ذلك شرًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾.

٧- أن النار أشر شيء يجب الحذر منها ومن موجبات دخولها.

٨- أن التنكر لآيات الله والكراهة لها والبغض لمن يتولاها كفر موجب للعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾.

٩- أن النار بئس المصير والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

١٠- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني، والامتنان بذلك على الناس، والحث على الاستماع للمثل، والإنصات له بتدبر وتعقل؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾.

١١- عموم رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

١٢- بيان وتأكيد شدة ضعف ما يعبده المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان، وأنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا؛ وهو أحقر المخلوقات وأضعفها، ولو اجتمعوا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾.

١٣- أن هؤلاء المعبودين من دون الله لا يستطيعون استنقاذ ما سلبه الذباب منهم من شيء، فضلًا عن أن يخلقوا ذبابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

١٤- ضعف الذباب وحقارته، وأضعف منه المعبود من دون الله، وأضعف منهما من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

١٥- إثبات كمال عظمة الله تعالى، وذم المشركين الذين سووا به غيره من المعبودات الضعيفة الحقيرة، ولم يعظموه حق تعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦٓ﴾.

١٦- إثبات صفة القوة التامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾.

١٧- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى بأنواعها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾.

١٨- اصطفاء الله تعالى واختياره من يشاء من الملائكة رسلًا لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية القدرية، وتبليغ رسالاته الشرعية لأنبيائه ورسله من الناس، واختياره من الناس رسلًا لتبليغ رسالاته الشرعية إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

١٩- إثبات أنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع أقوال عباده وجميع الأصوات، وذو البصر والاطلاع والعلم بهم وبجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

٢٠- علم الله تعالى المحيط بالخلائق كلهم، من الملائكة والرسل والناس وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢١- أن مرد الأمور كلها إلى الله في الدنيا والآخرة، وأن مصير الخلائق كلهم إليه، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾.

خاطب الله- عز وجل- في مطلع هذه السورة وفي ثناياها عموم الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في أربعة مواضع، ثم ختم السورة بخطاب المؤمنين خاصة؛ لأنهم صفوة الناس والممتثلون لأمر الله- عز وجل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ﴾ أي: انقادوا بجوارحكم للإيمان واركعوا واسجدوا لله- عز وجل- أي: صلوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما من أعظم أركان الصلاة.

قال ﷺ: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب- عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم**»(١).

وقال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»(٢).

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: واعبدوا ربكم بأنواع العبادات كلها، من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للرحم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، وأخلصوا له فيها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

وإنما خص الركوع والسجود أولًا؛ لعظم مكانة الصلاة بين سائر العبادات، فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وأفضل العبادات كلها، ولهذا فهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله كما جاء في الحديث[1].

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بأنواع الإحسان التي ليست بواجبة، وبخاصة الإنفاق في وجوه الخير كلها، فبعد أن أمر الله- عز وجل- بالعبادة الواجبة بأنواعها، عطف عليه الأمر بفعل الخير بأنواع الإحسان المستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا.

وقد يكون هذا من عطف الأعم على العام. فيكون أولًا عطف العام على الخاص، ثم عطف على العام ما هو أعم منه. وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ عامًّا لأنواع البر كلها الواجب والمستحب من العبادات وغيرها.

وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ ما يتعدى نفعه إلى الناس من الزكاة والصدقات وحُسن المعاملة وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، أو راجين أن تفلحوا.

والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية، كما يشرع السجود عند الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٨ من هذه السورة].

ويقول في سجود التلاوة مثل ما يقول في سجود الصلاة: «سبحان ربي الأعلى» والأولى أن يكررها ثلاثًا، ويقول: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[2].

---

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤١٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٥٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي تحت شجرة فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ هذا أيضًا معطوف على ما قبله. من عطف الأعم على العام، فأمر أولًا بالركوع والسجود، ثم أمر بالعبادة وفعل الخير من عطف العام على الخاص، ثم أمر بالمجاهدة في الله حق جهاده بأنواع المجاهدة كلها من عطف الأعم على العام، توكيدًا لما قبله.

﴿فِي ٱللَّهِ﴾ ﴿فِي﴾ للسببية، أي: في ذات الله، ومن أجله، ونصرة لدينه.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ مفعول مطلق، أي: الجهاد الحق الذي لا يشوبه تقصير.

والمجاهدة في الله حق جهاده: بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طاعة الله- عز وجل- ومحبته ومرضاته- بالأنفس والأموال والأقوال والأفعال، وفي جهاد النفس والشيطان والمنافقين والكفار، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق، بل هو كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: حق تقاته مما تستطيعونه وتقدرون عليه؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله- ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[2].

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة- ما يقول في سجود القرآن (٥٧٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة- سجود القرآن (١٠٥٣)، وقال الترمذي: «حديث غريب من حديث ابن عباس».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٧٧)، والنسائي في مناسك الحج

وجهاد النفس والشيطان واجب؛ جهاد النفس بمخالفة هواها وشهواتها، وحملها على طاعة الله تعالى، والبُعد عن معصيته، وجهاد الشيطان بمدافعة وساوسه وتسويله.

وجهاد المنافقين ونحوهم من أهل البدع والمعاصي، وجهاد الكفار كل منهما واجب على الكفاية، وقد يتعين[١]. فجهاد المنافقين وأهل البدع والمعاصي بالحجة والبيان والبرهان، وجهاد الكفار المعاندين المعتدين بالسيف والسنان.

قال ابن القيم[٢]: «وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليُسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا».

وقال أيضًا: «وحق تقاته وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد من نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء».

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: وجاهدوا في الله حق جهاده شكرًا لله- عز وجل؛ لأنه هو اجتباكم، أي: هو اختاركم واصطفاكم، وجعلكم أهله وخاصته وصفوته من خلقه- بعد النبيين والمرسلين، فخصكم بأفضل الرسل

(٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(١) يتعين جهاد المنافقين وأهل البدع ونحوهم بالحجة واللسان والبرهان إذا لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي، كما يتعين جهاد الكفار في مواضع منها إذا كان في الصف، وإذا استنفره الإمام، وإذا هاجم العدو بلد المسلمين.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٤).

وسيدهم، وأعظم الكتب والمهيمن عليها، وأكمل الأديان، وفضلكم وشرفكم على الأمم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»(١).

﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ لما أمر عز وجل بالمجاهدة فيه حق جهاده ربما يتوهم متوهم أن في هذا تكليف ما لا يطاق أو ما فيه ضيق- احترز من ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾.

الواو عاطفة، و«ما» نافية، ﴿**مِنْ حَرَجٍ**﴾، ﴿**مِنْ**﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لاستغراق العموم في النفي.

أي: وما جعل عليكم في الدين الإسلامي أيَّ ضيق أو مشقة، ولم يكلفكم ما لا تطيقون بل يسر لكم غاية التيسير، كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال تعالى في الحديث القدسي: «**قد فعلت**»(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٥، ٦]، أي: مع كل عسر يسران من الله- عز وجل، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء: ٢٨].

ولهذا رخص الله- عز وجل- للمسافر قصر الصلاة الرباعية، والجمع بين الظهر

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢)- من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما.

والعصر، والمغرب والعشاء، وعند الخوف تصلى رجالًا وركبانًا، وإذا مرض الإنسان ولم يستطع القيام فيها صلى قاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، فإن لم يستطع أومأ بها إيماء. وشرع سجود السهو لجبر ما يحصل من سهو في الصلاة.

كما رخص في التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر إذا لم يجد الإنسان الماء، أو لم يستطع استعماله.

ورخص بالمسح على الخفين يومًا وليلةً للمقيم وللمسافر ثلاثة أيام بلياليهن. ورخص للمسافر والمريض في الفطر في نهار رمضان والقضاء، وكذا المرضع والحامل، ورخص للكبير والمريض الذي لا يرجى برؤه بالفطر والإطعام.

وأوجب الحج على المستطيع دون غيره، ويسر في أحكامه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. قال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر، فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي. فقال: «أرم ولا حرج». فما سئل يومه عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج»[(١)].

كما جعل جميع التكاليف حسب الوسع والطاقة والاستطاعة، وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[(٢)].

ولهذا فإن من قواعد الشريعة: «**أن المشقة تجلب التيسير**».

كما جعل عز وجل في التوبة والكفارات مخرجًا من الذنوب والمعاصي، وأباح في حال الاضطرار أكل الميتة واستعمال المحرم، وجعل الضرورات تبيح المحظورات، قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء: ١٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٤)، والترمذي في الحج (٩١٦)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠).

وعفا للأمة عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله- عز وجل- في الحديث: «**قد فعلت**»(١).

وفي الحديث: «**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»(٢).

وأباح عز وجل جميع الطيبات وأحلها بلا حصر، وجعل الحرام محصورًا محدودًا معدودًا، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].

وبهذا رفع الله- عز وجل- عن هذه الأمة الأغلال التي كانت على من قبلهم.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**»(٣).

وقال ﷺ: «**وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(٤).

قال ابن القيم(٥) في كلامه على الآية ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: و«الحرج»: الضيق، بل جعله واسعًا يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد- ما يكره من الخلاف والتنازع في الحرب (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة وفي الجهاد- الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٣)، من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٥).

عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(١)] أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله- سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة مادامت الروح في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضًا من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسرًا قبله ويسرًا بعده، «فلن يغلب عسر يسرين» فإذا كان هذا شأنه- سبحانه- مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلًا عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه».

وقال السعدي[(٢)]: ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي: «أن المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات».

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم.

وقيل: منصوب على المصدرية بفعل مقدر يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

وفيه امتداح وثناء على ما جاء به محمد ﷺ، وإغراء وحث على اتباعه؛ لأنه جاء بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم- عليه السلام، ولهذا علَّم ﷺ المؤمنين أن يقولوا إذا أصبحوا وإذا أمسوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد،**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)- من حديث أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة**». وأخرجه أحمد (٦/ ١١٦)- من حديث عائشة رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني أرسلت بحنيفية سمحة**»، وأخرجه البخاري في الإيمان- باب الدين يسر- معلقًا بلفظ: «وقول النبي ﷺ: **أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٣٦) موصولًا من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»، قال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٩٣، ٩٤): «إسناده حسن». وأخرجه أحمد (٣/ ٤٤٢)- من حديث التنوخي قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل لك في الإسلام الحنيفية ملة إبراهيم أبيك**».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٣٠).

وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»(١).

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: الله- عز وجل- سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: وسماكم المسلمين ﴿فِي هَٰذَا﴾ أي: في القرآن الكريم، كما في حديث الحارث الأشعري- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله**»(٢).

فنوَّه بهم عز وجل، وأثنى عليهم- في كتبه المتقدمة قبل وجودهم وسماهم المسلمين، ونوَّه بهم وأثنى عليهم بذلك في القرآن الكريم بعد وجودهم.

وقيل: إن الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا الكتاب وهذا الشرع مازال هذا اسمكم قديمًا وحديثًا.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ امتنان من الله- عز وجل- على هذه الأمة، وتذكير لهم بفضله وإنعامه عليهم، باختيارهم من بين الأمم، ورفع الحرج عنهم، وهدايتهم إلى ملة أبيهم إبراهيم، وتسميتهم المسلمين في الكتب السابقة، وفي القرآن الكريم.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ اللام: للتعليل، و«ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: ليكون الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

والمعنى: أن الله- عز وجل- اجتباكم واصطفاكم واختاركم ورفع عنكم الحرج، ونوّه بكم وأثنى عليكم وسماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم لأجل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٠٢) حديث (٢٦٩١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص(١٩)- من حديث سعيد بن عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي عن أبيه- رضي الله عنه، وقال النووي في «الأذكار» ص(٦٨): «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الأمثال- ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)- وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، وانظر: «كنز العمال» (٤٣٥٧٧).

أن يكون الرسول محمد ﷺ شهيدًا عليكم ببلاغه لكم، وعلى استجابتكم واتباعكم له؛.

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ولأجل أن تكونوا أنتم ورسولكم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات الله إليهم، وذلك بما جاءكم من عند الله من الوحي على لسان رسوله محمد ﷺ؛ لأنكم أمة وسط عدول خيار، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقدمت شهادته ﷺ في الآية هنا لأنها في مقام التنويه بالدين الذي جاء به ﷺ بينما قدم في آية البقرة شهادة الأمة؛ لأن الآية صدرت بالثناء على الأمة.

فهو ﷺ بما فضله الله به على سائر الرسل- عليهم الصلاة والسلام- يشهد على أمته أفضل الأمم. وهم بما فضلهم الله به وشرفهم على سائر الأمم يشهدون هم ورسولهم على الأمم قبلهم بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام- بلغوهم رسالات الله.

وبهذا تكون هذه الأمة المحمدية شاهدة على الأمم ومشهودًا عليها بشهادة الرسول ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، يقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال: فذلكم قوله تعالى:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

وفي رواية عن أبي سعيد- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله- جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾** والوسط العدل»[1].

﴿**فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ**﴾ أي: فقابلوا نعمة الله عليكم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله- عز وجل- حيث اصطفاكم واختاركم من بين الأمم ورفع الحرج عنكم بما شرعه لكم من الحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وسماكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول محمدًا ﷺ شهيدًا عليكم، وجعلكم شهداء على الناس، فكل هذا موجب لشكر الله- عز وجل- بطاعته، وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿**فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ أي: صلوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والأمر للوجوب.

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ قائلًا: هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما**»[2]. أي: الدعاء لهما.

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرَّبتُ مرتحلًا ... يا ربِّ جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نومًا فإن لجنب المرء مضطجعًا[3]

والصلاة في الشرع: التعبد لله- عز وجل- بأقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة

---

(١) أخرجها البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٢) أخرجه أبوداود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤)- من حديث مالك بن ربيعة الساعدي- رضي الله عنه.

(٣) البيتان للأعشى، انظر: «ديوانه» ص(١٥١).

بالتسليم.

والمراد بالصلاة: الفرائض المكتوبات، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الفرائض والنوافل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، والأمر للوجوب والمراد بالآية الزكاة الواجبة، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الزكاة الواجبة وغيرها من النفقات الواجبة والمستحبة.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير.

وفي الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتنميه وتزيده، وتقيه بإذن الله- عز وجل- الآفات، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال بل تزيده**»[١]، وقال ﷺ: «**ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة**»[٢].

كما أنها تزكي وتطهر نفس صاحب المال من رذيلة البخل والشح.

وتطهر أيضًا أنفس من تدفع إليهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من الحقد والضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى كسب المال من طرق محرمة من الغصب والسرقة، وارتكاب الأعمال المحرمة من أجل ذلك.

فهي تزكية وتطهير ونماء للمال، وتزكية وتطهير لنفس الغني والفقير والمسكين ونحوهما، وتزكية وتطهير ووقاية للمجتمع الإسلامي من الجرائم والفواحش.

ولهذا قال ﷺ: «**واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر و الصلة (٢٠٢٩)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بلفظ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٢٤)- من حديث عبادة بين الصامت- رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» (٦/ ٥٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨)- من حديث جابر بن عبدالله- رضي الله عنه.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: التجئوا إلى الله وتمسكوا بحبله واستعينوا به وتوكلوا عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام: افتعال من العَصْم، وهو: المنع من الضُّرّ والنجاة، قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣].

﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: هو- عز وجل- متوليكم وحافظكم وناصركم على أعدائكم.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ أي: فنعم الولي كامل الولاية عظيمها. و﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ من يجلب النفع.

﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي: عظيم النصرة والمعونة. و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ من يدفع الضر.

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريمًا وتشريفًا لهم وحثًّا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣- وجوب الركوع والسجود لله- عز وجل- والصلاة له وعبادته وحده بأنواع العبادة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

٤- الترغيب في فعل الخير عمومًا قولًا وفعلًا وبذلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾.

٥- أن الإيمان بالله والركوع والسجود والصلاة له- عز وجل- وعبادته وحده، وفعل الخير كل ذلك سبب للفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

٦- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية، عن عقبة بن عامر- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما**»(١).

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- تشريع سجود السهو (١٤٠٢)، والترمذي في الجمعة- السجدة في الحج

وعن عمرو بن العاص- رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان»(١).

وعن أبي الجهم أن عمر- رضي الله عنه- سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: «إن هذه فضلت بسجدتين»(٢).

٧- وجوب المجاهدة في الله حق جهاده قدر الوسع والطاعة، بالأموال والأنفس والأفعال والأقوال، جهادًا عامًّا، وجهادًا خاصًّا؛ للشيطان والنفس والهوى، وللمنافقين والكفار وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾.

٨- نعمة الله- عز وجل- على هذه الأمة المحمدية حيث فضلهم واختارهم من بين الأمم، ورفع عنهم الحرج، وجعلهم على ملة أبيهم إبراهيم، وسماهم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول ﷺ شهيدًا عليهم، وهم شهداء على الناس، وفي ذلك تكريم وتشريف لهم على سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

٩- شهادة الرسول ﷺ على أمته، وشهادة أمته على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

١٠- تقرير قاعدة «**المشقة تجلب التيسير**» والأخذ بأيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾.

١١- وجوب شكر الله- عز وجل- على ما أنعم به على هذه الأمة بالمجاهدة فيه حق جهاده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾.

---

(٥٧٨)، وأحمد (٤/ ١٥١- ١٥٥)، وقال الترمذي: «حديث ليس إسناده بالقوي».

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة- تشريع سجود السهو (١٤٠١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة- عدد سجود السهو (١٠٥٧).

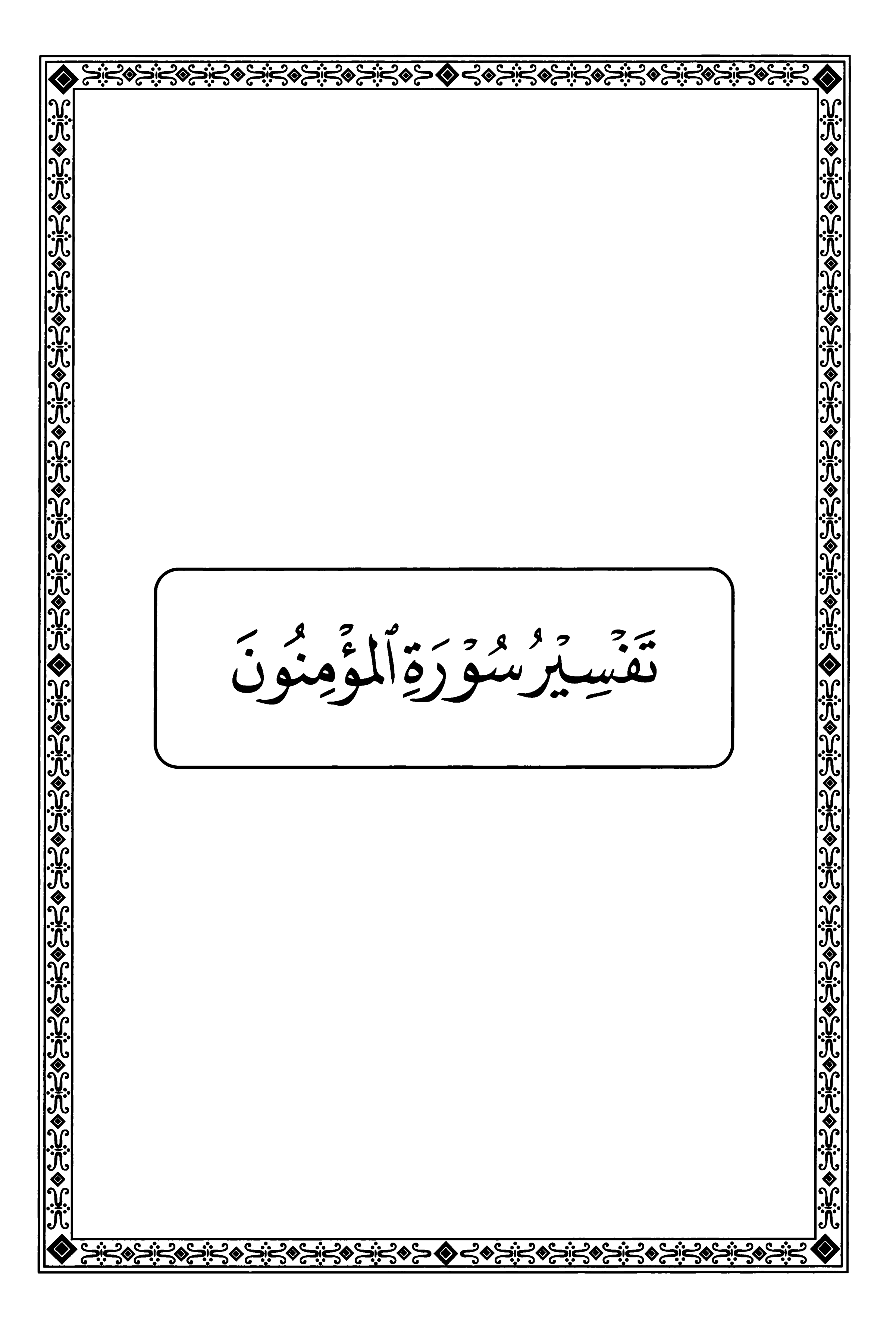
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٠).

١٢- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات.

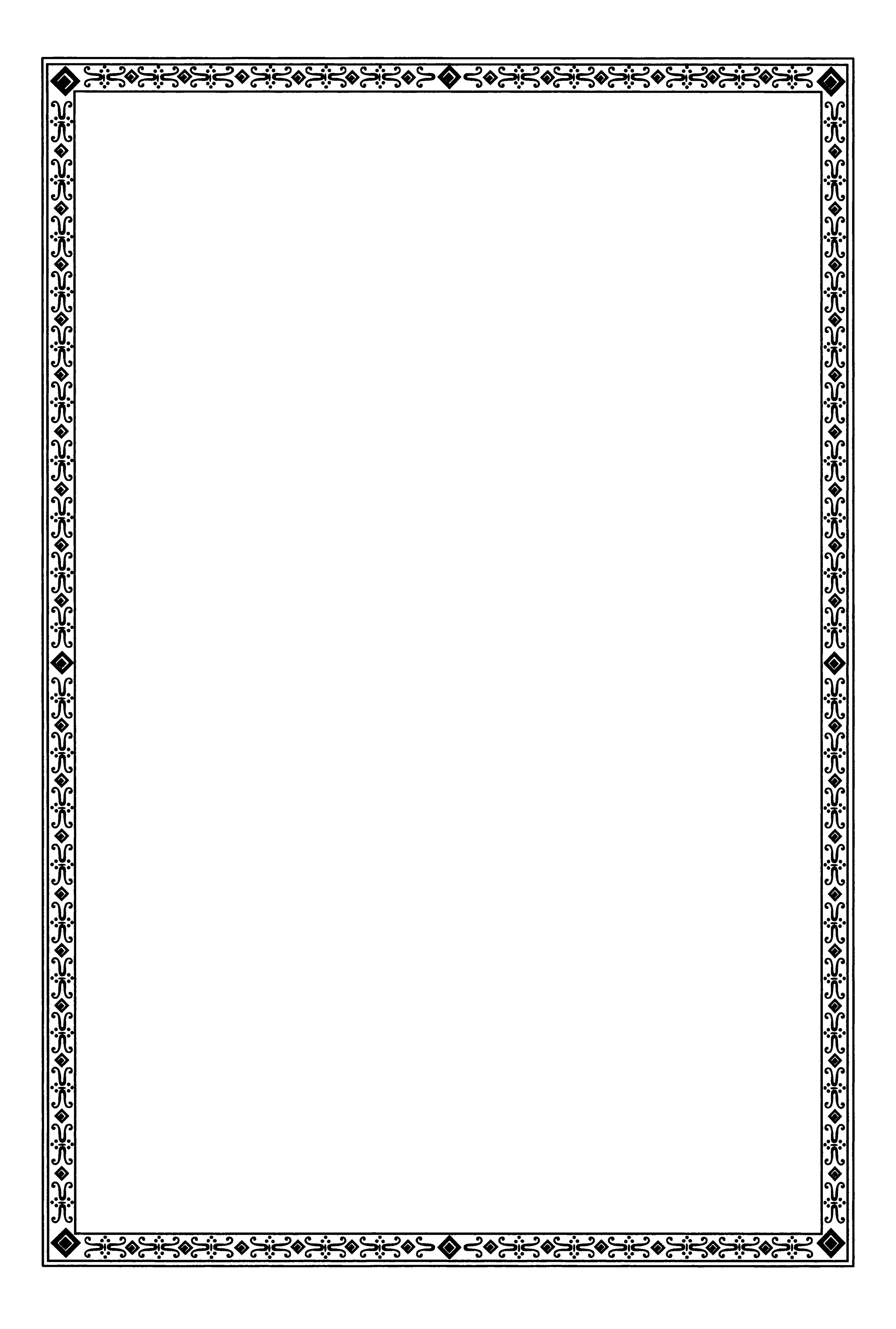
١٣- وجوب الاعتصام بالله واللجوء إليه وحده، والتوكل والاعتماد عليه وحده فلا ملجأ منه إلا إليه.

١٤- أن الله- عز وجل- هو مولى الذين آمنوا حافظهم وناصرهم ومتولي أمورهم، وجالب الخير لهم، ودافع الشر عنهم، فنعم المولى ونعم النصير؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

* * *



تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلمؤْمِنُونَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة المؤمنون»؛ لأن الله افتتحها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾، وذكر صفاتهم وسبب فلاحهم، وذكر ثوابهم.

وقد وردت تسميتها في السنة: «سورة المؤمنين».

عن عبدالله بن السائب قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح «سورة المؤمنين» حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى، أخذت النبي ﷺ سعلة فحذف وركع»(١).

ومما جرى على الألسنة أن يسموها: «سورة قد أفلح»، ويسمونها أيضا «سورة الفلاح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه كدوي النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا**»، ثم قال: «**لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ حتى ختم العشر»(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعد المؤمنين بالفلاح، وذكر صفاتهم التي استحقوا بها هذا الوعد من ربهم؛ من كونهم في صلاتهم خاشعين، وعن اللغو معرضين، وللزكاة فاعلين، ولفروجهم حافظين عما حرم عليهم، ولأماناتهم وعهدهم راعين، وعلى صلواتهم يحافظون.

ثم فصل ما وعدهم به من الفلاح في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٥٥، وأبو داود في الصلاة ٦٤٩، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٣٤، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٣.

﴿ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ثم ذكر دلائل قدرته ونعمته عز وجل في خلق الإنسان، فذكر أطواره منذ بداية خلقه من طين إلى اكتمال خلقه، وحياته إلى موته، ثم بعثه يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٣- ثم أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته في السماء والأرض، والماء والنبات والأنعام وغير ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٤- ثم لما ذكر دلائل قدرته في خلق الإنسان والكون بما فيه من الآيات الدالة على كمال عظمته ووحدانيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ أتبع ذلك بذكر نعمته على العباد بإرسال الرسل يدعون إلى عبادة الله تعالى دون غيره، وذكر ما جرى بنيهم وبين المكذبين من أقوامهم، وانتهاء ذلك كله بإنجاء الرسل وإهلاك المكذبين من أقوامهم.

بدأ ذلك بذكر رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، ثم ذكر إنشاء عدد من القرون الذين جاءتهم رسلهم تترى، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، فأهلكوا جميعًا، وأتبع الله بعضهم بعضًا، وجعلهم أحاديث، وأبعدهم لكفرهم وعدم إيمانهم. ثم ذكر إرساله موسى وهارون بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكذبوهما فكانوا من المهلكين، ثم ذكر أنه جعل ابن مريم وأمه آية فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- أمْره عز وجل الرسل جميعًا بأن يأكلوا الطيبات ويعملوا صالحًا، وهو أمر لهم ولأتباعهم المؤمنين، وبيان وحدة الأمة، فدينها واحد وهو الإسلام وتوحيد الله تعالى، وهو عز وجل ربهم جميعًا يجب أن يتقوه ويعبدوه وحده.

٦- ذكر تقطع أمر الأمم واختلافهم على رسلهم من مصدق لهم ومكذب، ومؤمن بهم وكافر، وفرح كل حزب بما هم عليه من الضلال ظنًّا أنهم مهتدون، واغترارهم بما هم فيه من النعم، والوعيد والتهديد لهم.

٧- ثناء الله وامتداحه للمؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

٨- حكمته عز وجل وكمال عدله، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها وطاقتها، ويحصي على العباد أعمالهم ويجازي كلًّا بما عمل، وهم لا يظلمون.

٩- ذم الكافرين والمكذبين لأن قلوبهم في غمرة وضلالة وغفلة عن آيات الله وما جاءهم من الحق، وتهديدهم ووعيدهم بالعذاب، يصرخون فلا ناصر لهم، وتقريعهم وتوبيخهم على نكوصهم على أعقابهم وعدم تدبرهم القرآن، وإنكارهم معرفة رسولهم ﷺ ورميهم إياه بالجنون وكراهتهم الحق؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾.

١٠- بيان أن الحق لو اتبع أهواء أهل الضلال والكفر والاستكبار لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: الكون كله بما فيه؛ لأن الله خلق الكون كله وأقامه على الحق والعدل.

١١- بيان قيام الحجة على المكذبين بما جاءهم من الذكر، لكنهم عنه معرضون، وانتفاء ما يمنعهم من الإيمان من سؤالهم خرجًا أو أجرًا، وأنه ﷺ إنما يدعوهم إلى صراط مستقيم، لكنهم بكفرهم بالآخرة عن الصراط ناكبون.

١٢- عدم شكرهم رحمة الله بكشف ما بهم من ضر، وعدم استكانتهم وخضوعهم له عند العذاب وتماديهم بالطغيان والعتو، وإبلاسهم عند شدة العذاب.

١٣- الامتنان على العباد بما منحهم عز وجل من السمع والإبصار والأفئدة، وقلة الشاكر منهم، وبيان تمام قدرته في ذرئهم في الأرض وإثبات حشرهم إليه وحده، وتفرده بالإحياء والإماتة وله اختلاف الليل والنهار ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾.

١٤- إنكارهم البعث ومقالهم كقول الأولين: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣﴾.

١٥- تقريرهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وعموم ملكه وشموله لكل شيء وسعته؛ الأرض وما فيها، وربوبية السموات السبع، وربوبية العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك، وتقريعهم لعدم تذكرهم وتقواهم: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

١٦- إثبات أنه عز وجل أتاهم بالحق بأن لا معبود بحق سواه، وتأكيد كذبهم في إشراكهم معه ونسبتهم الولد له، واستحالة أن يكون للخلق إلهان، وتنزيه نفسه عما يصفونه به، وبيان سعة علمه للغيب والشهادة وتعاليه عن شركهم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

١٧- أمره عز وجل له ﷺ أن يدعوه إن عاقبهم بسبب ظلمهم وهو شاهد ألا يجعله معهم، وبيان قدرته عز وجل بأن يريه ما توعدهم به. وأمره تعالى له أن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين وحضورهم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

١٨- بيان سوء حال المكذبين والكفار عند الموت، وطلب من حضره الموت منهم من ربه الرجعة ليعمل صالحًا فيما ترك وهيهات! ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، وانقطاع الأنساب بينهم فلا يتساءلون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ووعد من ثقلت موازينه بالفلاح، ووعيد من خفت موازينه بخسران أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون، وتوبيخهم على تكذيبهم بآيات الله، واعترافهم على أنفسهم بغلبة الشقاء عليهم وضلالهم، وتوسلهم بربهم ليخرجهم منها وهيهات لهم ذلك، وتقريعهم وتبكيتهم بقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

١٩- استقلالهم عند رؤيتهم العذاب لبثهم في الدنيا لعدم علمهم قيمة حياتهم وظنهم أنهم إنما خلقوا عبثًا وأنهم لا يرجعون إلى الله؛ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

٢٠- إثبات علو الله تعالى وعظمته، وأنه الملك الحق لا إله، ولا معبود بحق إلا هو وحده وهو رب العرش الكريم، والتهديد والوعيد لمن يدعو مع الله إلهًا آخر لا برهان

له به، وإنما حسابه عند ربه وأنه لا يفلح الكافرون؛ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

٢١- أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾، وهو أمر له ﷺ ولغيره من المؤمنين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ «قد»: حرف تحقيق، و«الفلاح»: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، أي: قد فاز المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، أي: فازوا وظفروا بمطلوبهم، ونجوا من مرهوبهم، بالسعادة في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من النار، ودخولهم الجنة، ووراثتهم لها؛ كما قال تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

أي: قد أفلح غاية الفلاح، وفاز الفوز العظيم، المؤمنون الإيمان المطلق، وبقدر ما يكون عليه الإنسان من الإيمان، والاتصاف بهذه الصفات يكون نصيبه من الفلاح.

رُوي أنه لما خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها، قال لها: «تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾»[1].

وروي أن عائشة رضي الله عنه سئلت: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ[2].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ «الذين» في محل رفع صفة لـ«المؤمنون»،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٥٥.

(٢) أخرجه النسائي في «تفسيره»، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٥٤.

والموصولات الثلاثة بعدها في محل رفع عطفًا عليها.

فالصفة الأولى من صفاتهم: أنهم في صلاتهم- فرضها ونفلها- خاشعون، أي: خاضعون لربهم، متذللون له، مستشعرون لعظمته، مستكينة ومنكسرة قلوبهم بين يديه، ساكنة جوارحهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، و«اللغو»: الباطل وما لا خير فيه، ولا فائدة منه من الأقوال والأفعال، أي: والذين هم عن اللغو- وهو الباطل من الأقوال والأفعال- صادون، لا يقعون فيه، ولا يجالسون أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «**كف عليك هذا**» وأخذ بلسان نفسه، فقال معاذ: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟**»(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾، أي: يؤدون زكاة أموالهم لمستحقيها، وهذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين.

وهذا يدل على أن أصل فرض الزكاة كان بمكة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية أيضًا: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد بينت أنصبتها ومقاديرها في المدينة في السنة الثانية من الهجرة.

ويحتمل أن يراد بالزكاة هنا: ما يشمل أيضًا النفس من الشرك والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾، أي: عن المحرم من الزنا واللواط وغير ذلك.

﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، إلا على أزواجهم التي أحلها الله لهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، «أو»: عاطفة، أي: والذي ملكته أيمانهم من الإماء والسراري.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ «اللوم»: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق، أي: لا لوم عليهم شرعًا، ولا حرج ولا إثم في وطء أزواجهم وما ملكته أيمانهم من الإماء، ومفهوم هذا: أن عدم حفظ الفروج عما سوى ذلك يوجب اللوم الشرعي، وهو ما صرح به بقوله:

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» طلب غير ذلك، أي: غير الأزواج والإماء.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والجملة مؤكدة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك هم المعتدون المجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال ابن القيم: «فمن لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وكان من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ قرأ ابن كثير: «أَمَانَتِهِمْ» بالإفراد دون ألف، وقرأ الباقون بالألف جمعًا: ﴿أَمَانَاتِهِمْ﴾.

أي: والذين هم لما ائتمنوا عليه من أمانات، وما عقدوه من عهود فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين العباد ﴿رَٰعُونَ﴾، أي: حافظون لتلك الأمانات، مؤدون لها، وافون بتلك العهود امتثالًا لقوله عز وجل: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»(٢).

بخلاف صفات أهل النفاق، قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا**

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالإفراد: ﴿صَلَاتِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بالجمع: «صَلَوَاتِهِمْ»، وهذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين.

ومعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾، أي: يواظبون ويداومون عليها في أوقاتها وشروطها وأركانها وواجباتها؛ كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**». قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[٢].

وقد افتتح الله عز وجل هذه الصفات الحميدة بصفة الخشوع في الصلاة، واختتمها بصفة المحافظة على الصلاة؛ لعظم مكانة الصلاة وفضلها، فهي أعظم العبادات مطلقًا بعد الشهادتين، قال ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٣].

ولأن الصلاة لا بد لصحتها وقبولها من الخشوع فيها، ومن المحافظة عليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ أكد الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهًا بشأنهم، ورفعة لهم، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، وحذف معمول ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾، ليحصل إبهام واحتمال يترقب السامع بيانه؛ قصدًا لتفخيم هذه الوراثة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٣، ومسلم في الإيمان ٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإيمان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل الصلاة على وقتها ٥٢٧، ومسلم في الإيمان، كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها، المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/ ٢٧٦ – ٢٧٧، ٢٨٢، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أي: أولئك هم الوارثون المستحقون لأعظم موروث، ثم بينه بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ بيان وتفسير للموروث في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾، أي: الذين يستحقون الفردوس ويختصون به.

قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾**»(١).

قال ابن كثير(٢): «فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما أوجب الله عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له؛ أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل».

و«الفردوس»: اسم يطلق على الجنة، وعلى أعلى الجنة، وأوسطها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(٣).

وفي حديث أم حارثة، قال رسول الله ﷺ: «**إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٤).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ ضمير الفصل «هم» للتوكيد، أي: هم في الفردوس مقيمون إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، صفة الجنة ٤٣٤١.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٠٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٤.

قال حسان رضي الله عنه[١]:

وإن ثـــواب الله كـــل موحّـــد جنـان مــن الفــردوس فيهـا يخلـد

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله المحقق للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، والبشارة لهم بالفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من النار، والتنويه بهم وبصفاتهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾ الآيات.

٢- أنه من لم يؤمن ولم يتصف بهذه الصفات فهو خاسر الخسران المبين.

٤- الترغيب والإغراء بالصفات المذكورة؛ لأنها من أعظم وأفضل صفات المؤمنين.

٥- أن لب الصلاة هو الخشوع لله تعالى، وتذلل القلب له، والخضوع وسكون الجوارح له؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾.

٦- فضيلة الإعراض عن اللغو قولًا أو فعلًا، والبعد عن مجالسه؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

٧- وجوب إخراج زكاة المال وتزكية النفس بالأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾.

٨- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله من الزنا واللواط والاستمناء باليد والسحاق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥﴾.

٩- إباحة وطء الزوجات، وملك اليمين، وأنه لا لوم على ذلك شرعًا؛ لأن الله أباحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

١٠- أن من طلب غير الأزواج وملك اليمين فهو من المعتدين المجاوزين الحلال إلى الحرام، الملومين على فعلهم، غير المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» ص(٣٣٩).

١١- حرمة نكاح المتعة؛ لأن المتمتع بها لا تسمى زوجة، وكذا نكاح المحلل.

١٢- وجوب أداء الأمانات، والوفاء بالعهد، مما بين العبد وبين ربه، ومما بين العبد وبين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾.

١٣- امتداح المؤمنين بمحافظتهم على صلواتهم على أوقاتها وحدودها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾.

١٤- فضيلة المواظبة والمداومة على الصلاة؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين.

١٥- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، والخشوع فيها، والمحافظة عليها؛ لأن الله ابتدأ بها هذه الصفات وختمها بها.

١٦- أنه لا بد لصحة الصلاة من أمرين: الخشوع فيها، والمحافظة عليها.

١٧- التنويه بشأن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات، وعظيم أجرهم، وجزيل ثوابهم، وأنهم هم الوارثون حقًّا للخير كله؛ لوراثتهم الفردوس وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١﴾، فأين المشمرون؟

١٨- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يبلى أهلها، ولا يخرجون منها، نسأل الله تعالى أن نكون من أهلها ووالدينا وذرياتنا وأهلونا وجميع المسلمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما وعد المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، وبشرهم بالفلاح ووراثة الجنة والخلود فيها، أتبع ذلك بذكر دلائل كمال قدرته وتمام نعمته على الإنسان، وعظم عنايته به في خلقه وأطوار حياته، وفي ذلك التدليل على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على البعث.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد أنشأنا الإنسان وابتدأنا خلقه بخلق آدم عليه السلام.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ١١].

والسلالة: الشيء المسلول، أي: المنتزع من شيء آخر، أي: خلاصة الشيء، والمعنى: أن خلْقه استل، أي: أخذ من جميع أجزاء الأرض وأصنافها؛ ولهذا جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، والسهل والحزن، وغير ذلك.

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك**»(١).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ الضمير في «جعلناه» يعود إلى جنس الإنسان؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٥٥، وأحمد ٤/ ٤٠٠، ٤٠٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

مَّآءٍ مَّهِينٍ ⑧﴾ [السجدة: ٧ – ٨].

والمراد بالنطفة: الماء الدافق، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ⑦﴾ [الطارق: ٥ – ٧].

﴿فِى قَرَارٍ﴾ وهو الرحم الذي تستقر فيه النطفة أعظم الاستقرار، وتنتقل فيه من طور إلى طور إلى تمام خلق الإنسان.

﴿مَّكِينٍ﴾، أي: مصون محفوظ من الفساد والآفات، في أعدل الأجواء، دفء في الشتاء، وبرودة في الصيف، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ⑳ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ㉑ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉒ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ㉓﴾ [المرسلات: ٢٠ – ٢٣].

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: ثم بعد مضي أربعين يومًا صيرنا النطفة علقة، أي: دمًا أحمر، على شكل علقة مستطيلة، تعلق في جدار الرحم.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ﴾، أي: صيرناها بعد أربعين يومًا ﴿مُضْغَةً﴾، أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالإفراد: «عَظْمًا»، وقرأ الباقون: ﴿عِظَٰمًا﴾ بالجمع، أي: فصيرنا المضغة عظامًا، أي: جعلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، وصورناها على شكل الإنسان وهيئته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب؛ منه خلق ابن آدم، ومنه يركب**»(١).

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، أي: فكسونا العظام وسترناها باللحم؛ لتشتد وتقوى.

فالعظام عماد اللحم، واللحم كسوة وسترة للعظام وتقوية لها.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، أي: ثم نفخنا فيه الروح، فانتقل من كونه جمادًا إلى أن صار خلقًا آخر، أي: حيوانًا ذا روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى أن كمل نموه في بطن أمه، ثم ولد طفلًا صغيرًا، ثم احتلم، ثم صار شابًّا، ثم كهلًا، ثم

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «عم يتساءلون» ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، ما بين النفختين ٢٩٥٥، وابن ماجه في الزهد، ذكر القبر والبلى ٤٢٦٦، وأحمد ٢/ ٣١٥، ٤٢٨، ٤٩٩.

شيخًا، ثم هرمًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»(١).

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ لما ذكر دلائل كمال قدرته وحكمته وعنايته ونعمته في خلق الإنسان، ونقله من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، أتبع ذلك بالثناء على نفسه.

أي: فتعالى الله وتعاظم وكثر خيره.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الذي أحسن الخلق وأجمله وأتمه وأعظمه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ﴾ [التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ٣٣٣٢، ومسلم في القدر، كيف خلق الآدمي في بطن أمه ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وفي قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة إلى أنه عز وجل خلق الإنسان على أحسن خلقة؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ثم إنكم بعد خلقكم وحياتكم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لصائرون إلى الموت، أي: تنتهي أطواركم وتنقلاتكم بالموت، وكفى بالموت واعظًا، لكن ما بعده أشد؛ ولهذا قال:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أحياء، فتحاسبون وتجازون على أعمالكم، وليس خلقكم الثاني بأصعب من الأول.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

الفوائد والأحكام:

١- بيان قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته ومنته على الإنسان، وعنايته به في خلقه، ونقله إياه في أطوار حياته، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

٢- أن أصل خلق الإنسان من سلالة من طين، بخلق آدم عليه السلام أبي البشر من ذلك.

٣- أن من أسباب اختلاف ألوان البشر وطبائعهم وأشكالهم تأثرهم بما أخذت منه هذه السلالة من أصناف الأرض وأجزائها.

٤- لا فخر لأحد من البشر على أحد في أصل الخلق؛ لأنهم خلقوا جميعًا من التراب والطين، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، وقد أحسن القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء(١)

وإنما الفضل بتقوى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥- أن جنس الإنسان خلق من نطفة؛ وهي المني والماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾.

٦- عناية الله تعالى التامة بالإنسان منذ كونه نطفة في بطن أمه، بجعله في هذا المستقر المكين المحفوظ المصون وهو الرحم؛ لقوله تعالى: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

٧- انتقال خلق الإنسان في الرحم من نطفة إلى علقة تعلق بالرحم، ثم إلى مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة، ثم إلى عظام يتبين منها شكل الإنسان وهيئته؛ من رأس ويدين ورجلين وغير ذلك، ثم كسوة العظام لحمًا تسترها وتشدها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

٨- نفخ الروح فيه بعد تلك المراحل، وإنشاؤه خلقًا آخر، وانتقاله من جماد إلى حيوان ذي روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى اكتمال نموه في بطن أمه، ثم ولادته طفلًا إلى آخر مراحل حياته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

٩- تعظيم الله تعالى، وثناؤه على نفسه بتعاليه وكثرة خيره وحسن خلقه وكماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

١٠- في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة واضحة إلى نعمة الله على الإنسان في تسوية خلقه، وجعله من أحسن المخلوقات، بل أحسنها على الإطلاق.

١١- أن نهاية أطوار الناس في هذه الحياة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ⑮﴾.

١٢- إثبات القيامة، وبعث الخلائق وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى:

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص٧)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/ ١٠٨).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

١٣- دلالة الخلق الأول للإنسان، ونقله في أطواره المختلفة، ثم إماتته؛ على قدرة الله تعالى التامة على البعث والمعاد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾:

لما بين عز وجل تمام قدرته، وعظيم منته ونعمته بخلق الإنسان، وما في ذلك من الدلالة على وحدانيته، وتمام قدرته على البعث، أتبعه بالاستدلال على ذلك بخلق السموات السبع الطباق.

وكثيرًا ما يقرن عز وجل بين خلق الإنسان وخلق السموات والأرض؛ لأن خلقهما يدل على كمال قدرته وأكبر وأعجب، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾، أي: سبع سموات طباقًا، بعضها فوق بعض؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

أي: وما كنا عن الخلق غافلين، بل كنا عالمين به، محيط به علمنا وعنايتنا إحاطة تامة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال

تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾.

بعدما استدل على عظيم قدرته ومنته ووحدانيته وقدرته على بعث الخلائق، بخلق الإنسان ونقله في أطوار حياته حتى مماته، وبخلق السموات السبع الطباق فوق العباد، أتبع بالاستدلال على ذلك أيضًا: بإنزال المطر، وإنبات النبات، وإنشاء الجنات، وقرن بين خلق السموات وإنزال المطر؛ لأن المطر ينزل من جهة السماء.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ وهو المطر، ﴿بِقَدَرٍ﴾، أي: بمقدار معلوم معين، وبقدر حاجة الخلق وكفايتهم، من غير زيادة فيضر بالمساكن، ويهلك الحروث والزروع، ولا نقص بحيث لا تحيا به الأرض، ولا ينبت النبات والأشجار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ [الزخرف: ١١].

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾، أي: جعلناه يسكن ويستقر في الأرض، فمنه ما ينتفع به وهو على سطح الأرض في الأودية والغدران، ومنه ما تشربه الأرض فيتغذى به ما يخرج منها من النبات والحب والنوى والأشجار وغير ذلك، ومنه ما ينزل ويتسرب إلى باطنها، فتكنزه وتخرج منه العيون والأنهار، أو يخرج بواسطة حفر الآبار؛ وكل ماء في الأرض فهو مما نزل من السماء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢١﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا على ذهاب بهذا الماء لو شئنا ذلك لقادرون، ونكّر «ذهاب» للتفخيم والتعظيم، والإشارة إلى تعدد أسباب الذهاب به، من إمساك إنزاله زمنًا طويلًا، أو تغويره في أعماق الأرض فلا يوصل إليه، أو غير

ذلك؛ كما قال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ﴾، أي: بذلك الماء، ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، أي: بساتين من نخيل وأعناب، مما يقتات بثمره ويتفكه به رطبًا ويابسًا.

﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، أي: لكم في تلك الجنات فواكه كثيرة مما يتلذذ بطعمه، ويتفكه به من غير قصد القوت.

﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ الواو عاطفة، والجملة في محل نصب عطفًا على جملة: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ﴾، أي: ومنها تأكلون طعامًا وقوتًا لكم.

﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين: «سِينَاءَ»، وقرأ الباقون: ﴿سَيۡنَآءَ﴾ بفتحها.

﴿وَشَجَرَةٗ﴾، «شجرة» منصوبة بفعل مقدر تقديره: وأنشأنا لكم به شجرة، وهي شجرة الزيتون، التي هي من أطيب الأشجار وأفضلها، وأكثرها بركة، وأعظمها نفعًا.

﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بين مصر وأيلة من أرض فلسطين من أرض الشام المباركة، وشجرة الزيتون تخرج فيه وفي غيره، وإنما خص منها ما يخرج منه؛ لأن خروجها منه يزيدها بركة؛ لبركة أرضه وطيبها، أو لأن أول خروجها كان من تلك الأرض المباركة.

وخص هذه الأصناف الثلاثة: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا، مما يقتات ويتفكه به، وإلا فإن المطر سبب لحياة الأرض كلها، وخروج جميع النباتات المختلفة الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ

مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿تَنۢبُتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم التاء وكسر الباء: «تُنْبِتُ».

وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الباء: ﴿تَنۢبُتُ﴾.

﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ الباء للتعدية، أي: تنبت الدهن، أي: الزيت، وقيل: الفعل مضمن معنى: تخرج بالدهن، أي: تأتي بالدهن، وهو الزيت، الذي يدَّهن به ويستصبح به، ويتداوى به، وغير ذلك.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾، أي: أدم لهم لطعامهم من خبز وغيره.

عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلوا الزيت وادّهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته ومنته في خلق الإنسان، وخلق السموات، وإنزال الماء من السماء وإنشاء الجنات به، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنعام التي خلقها وسخرها يشربون من ألبانها، وينتفعون بها منافع كثيرة، ويأكلون منها، ويحملون عليها وعلى الفلك.

قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: وإن لكم في الأنعام- الإبل والبقر والغنم- لعبرة تعتبرون بها، تدلكم على عظم نعمة الله تعالى عليكم، وعلى تمام قدرته، فاعتبروا بذلك واشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون:

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٧، والترمذي في الأطعمة ١٨٥٢.

«نَسْقِيكُمْ»، وقرأ أبو جعفر بتاء التأنيث مفتوحة: ﴿تَسْقِيكُمْ﴾ على أن الضمير للأنعام، وقرأ الباقون بالنون مضمومة: ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

أي: نسقيكم من الذي في بطونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من الحرث عليها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦﴾ [النحل: ٥، ٦].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: وتأكلون من لحومها وشحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، أي: وعلى هذه الأنعام وعلى السفن تحملون، فتنقلون عليها من بلد إلى آخر، وتحملون عليها أمتعتكم وتجاراتكم من قطر إلى قطر، فالإبل سفن الصحراء والبر، والفلك سفن البحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٧﴾ [النحل: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- بيان كمال قدرة الله تعالى وعظمته في خلق السموات السبع الطباق، وحكمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لما في ذلك من المصالح والمنافع، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على بعث الخلائق يوم المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾.

٢- علم الله تعالى التام بالخلق كله، وإحاطته وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

٣- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ فإنه مطلع ورقيب عليهم وشهيد؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

٤- قدرة الله تعالى التامة على إنزال المطر من السماء، وإسكانه في الأرض، وحكمته ورحمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى الْأَرْضِ﴾.

٥- تخويف العباد بالذهاب بهذا الماء؛ ليشكروا الله تعالى عليه، وبيان تمام قدرته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾.

٦- الامتنان على العباد بما أنشأ عز وجل لهم بهذا الماء من جنات النخيل والأعناب، لهم فيها فواكه كثيرة، يأكلون منها قوتًا وتفكهًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٧- امتداح شجرة الزيتون التي تخرج من طور سيناء الأرض المباركة، ودهنها وأدمها، والامتنان على العباد بإنشائها لعظيم منافعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- تخصيص هذه الأصناف بالذكر: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها من أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا.

٩- تذكير العباد بما في الأنعام لهم من العبرة؛ ليشكروا، يُسقون لبنًا مما في بطونها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ويأكلون من لحومها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١٠- الامتنان على العباد بحملهم وأمتعتهم في البر على الإبل، وحملهم في البحر على السفن؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

بعدما ذكر عز وجل دلائل قدرته وحكمته ورحمته، ومنته في خلق الإنسان والسموات السبع الطباق، وإنزال الماء من السماء، وإنشاء الجنات به، من النخيل والأعناب والزيتون، وغير ذلك، وفي خلق الأنعام لهم، يشربون من ألبانها، وينتفعون بها، ويأكلون من لحومها، وتحملهم هي والسفن في البر والبحر، أتبع ذلك، بذكر ما هو أعظم منة امتن بها على العباد، وهي: إقامته الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم.

وقد قص الله عز وجل أخبار الرسل وأممهم، وكررها في مواضع كثيرة من كتابه؛ للتأكيد على سلوك منهجهم في الدعوة إلى الله والتأسي بهم، والحذر من مسالك المكذبين لهم، ومن أكثر السور بسطًا لهذه القصص سورة هود والأعراف.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ «نوح» هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض؛ لينذر قومه ويحذرهم عذاب الله لما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ليس لكم معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تتقون الله وتخافونه، وتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان؟!

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: السادة والرؤساء والأكابر والأشراف منهم، على وجه المعارضة لنوح عليه السلام، والتحذير من اتباعه.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يريد»، أي: يريد التفضل عليكم، أي: يريد أن يظهر أنه أفضل منكم، ويترفع ويتعاظم عليكم بدعوى النبوة، وإلا فما الذي يفضله عليكم وهو بشر مثلكم ومن جنسكم؟! وكيف خص بالوحي دونكم؟

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: ولو شاء الله أن يبعث رسولًا لأنزل ملكًا، ولم يبعث بشرًا. وهذا من جهلهم؛ لأنه لو كان ملكًا لم يقدروا على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩].

وكانت هذه الدعوى الباطلة سبب ضلال كثير من الناس وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال المشركون لنبينا محمد ﷺ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أي: ما سمعنا ببعثة رسول من البشر.

﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: في أجدادنا وأسلافنا السابقين، وفي الأمم الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل به مس من الجنون، أي: مجنون؛ كما قال تعالى عنهم في سورة القمر: ﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

ودعواهم أنه مجنون مناقض لقولهم قبل هذا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾، أي: فانتظروا به واصبروا عليه مدة، أي: حتى يموت فتستريحوا منه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

لما كذبه قومه واتهموه أنه يريد التفضل عليهم ورموه بالجنون استنصر الله ودعا عليهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ الباء للسببية، أي: يا رب انصرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥ – ٧٦].

وذلك بعد أن طال لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وأيس منهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾، أو على مقدر، أي: فاستجبنا دعاءه وأوحينا إليه.

﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أوحينا»، أي: أوحينا إليه صنع الفلك، أي: صنع السفينة سببًا ووسيلة للنجاة من الغرق قبل وقوعه.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بمرأى منا، وبحفظنا وكلاءتنا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الكوني القدري بإرسال الطوفان بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غمر الأرض وغطى السهل والجبل؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ – ١٢].

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، أي: ونبع الماء من التنور المعروف «محل النار»، الذي جرت العادة ببعده عن الماء.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص بالتنوين: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾، وقرأ الباقون بإضافة «زوجين» إلى «كل»: «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ».

أي: فأدخل فيها، أي: في السفينة من كل شيء زوجين، ذكرًا وأنثى من الحيوان وغيره.

﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: وأدخل فيها أهلك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا الذي سبق عليه القول بالهلاك والغرق منهم كابنه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٠ - ٤٣].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: لا تكلمني فيهم وتدعني أن أنجيهم شفقة منك عليهم، أو طمعًا في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولا تخاطبني فيهم، بل قال: ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾؛ للدلالة على أن سبب شدة غضبه عليهم وإغراقه لهم هو ظلمهم، وقد أكد هذا أيضًا في الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لأنهم مغرقون لا محالة، قد قضيت بذلك وقدرته عليهم، فقضائي نافذ فيهم ولا بد.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: فإذا اعتليت أنت ومن معك على الفلك، وركبتم فيها، واستقلت بكم على ظهر الأمواج المتلاطمة.

﴿فَقُلِ﴾، أي: فقل شاكرًا لله تعالى مثنيًا عليه أنت ومن معك:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده، ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾، أي: خلصنا وأنقذنا:

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأهلكهم بالغرق، وسلمنا منهم، ومن عملهم، ومن الغرق.

وقد امتثل نوح عليه السلام هذا؛ كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]، فذكر الله عند ابتداء سيره كما ذكره عند انتهائه، فقال: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ روى أبو بكر عن عاصم «مَنْزِلًا»

بفتح الميم وكسر الراء، اسم لمكان النزول.

وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الزاي: ﴿مُنزَلًا﴾ اسم مفعول، أو مصدر.

وقد استجاب الله دعاءه وأنزله خير منزل وأبركه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: إن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه؛ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات وحجج واضحات على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وصدق رسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، أي: وإن كنا لمختبرين العباد بإرسال الرسل إليهم، ومبتلين الرسل وأتباعهم، والناس أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي حديث هرقل: «**وكذلك الأنبياء تبتلى ثم تكون العاقبة لهم**»(١).

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من المشركين، وتعريض بتهديدهم، وأن ما يواجهه الرسل بلوى تزول، ثم تكون الدائرة على أعدائهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

٢- أن أساس دعوة نوح عليه السلام وجميع الرسل إثبات العبادة لله تعالى وحده، وإبطال إلهية من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

٣- إنكار نوح عليه السلام على قومه ما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان؛ وعدم تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- معارضة الملأ الذين كفروا من قومه لدعوته، وتكذيبهم إياه، وتحذيرهم قومهم من اتباعه، بحجة أنه بشر مثلهم، وليس بملك، وإنما يريد التفضل عليهم بدعوى النبوة، وكيف خص بالوحي دونهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٥- أن الملأ والسادات والكبراء وذوي المناصب والجاه والغنى في مقدمة معارضي الرسل، والمكذبين لهم، والتحذير من اتباعهم، اغترارًا بحالهم؛ لهذا لا ينبغي الاغترار بهم.

٦- شدة جهل هؤلاء في اعتراضهم على كون الرسول بشرًا مثلهم؛ إذ لو كان ملكًا ما استطاعوا مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل فيعود اللبس عليهم.

٧- جرأة مكذبي الرسل على تلفيق الاتهامات لهم، وتفننهم في ذلك؛ ليمنعوا الناس من اتباعهم؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٨- دورانهم في فلك حظوظ الدنيا ومناصبها الفانية؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٩- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى.

١٢- تقليدهم الأعمى لآبائهم، واحتجاجهم بما هم عليه من جهل وضلال؛ لقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا دليل على جهلهم وجهل آبائهم، فليس فيه حجة لهم.

١٣- اتهامهم لنوح عليه السلام بالجنون، وأمرهم بانتظار هلاكه وموته؛ لقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

١٤- عدم تورع أعداء الرسل من وصفهم وأتباعهم بأقبح الأوصاف؛ كالجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك؛ لينفروا الناس منهم، وهكذا قيل لسيد الرسل وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

١٥- تناقضهم في وصفهم لنوح عليه السلام بين العاقل والمجنون، فأولًا قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، ثم عادوا وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾ وهذا يدل على حيرتهم وتذبذبهم وفقدانهم الصواب.

١٦- دعاء نوح عليه السلام ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم، ودعاؤه عليهم بعد أن طال لبثه فيهم وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾.

١٧- استجابة الله تعالى له ووحيه إليه بصنع السفينة بمرأى منه عز وجل، وعناية ووحي منه؛ لتكون سببًا ووسيلة لنجاته ومن معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

١٨- إثبات صفة الأعين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

١٩- أمر الله تعالى لنوح إذا جاء أمره عز وجل القدري بإرسال الطوفان والغرق، بفتح أبواب السماء بماء منهمر، وتفجير الأرض عيونًا، وفوران التنور؛ بأن يُدخل في السفينة من كل شيء زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى، من الحيوانات وغير ذلك، وأهله إلا من سبق عليه القول منهم بالهلاك والموت على الكفر كابنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ﴾.

٢٠- إثبات القدر، وأن ما قدر الله كائن لا محالة، وأن من سبق عليه القول بالهلاك على الكفر فلا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

٢١- شدة غضب الله تعالى على هؤلاء المكذبين الظالمين، ونهيه عز وجل نوحًا أن يكلمه في شأنهم بدعائه إياه بنجاتهم، شفقة عليهم، أو طمعًا في إنظارهم لعلهم يهتدون، وتيئيسه منهم، وأنهم مغرقون لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

٢٢- أن سبب شدة غضب الله تعالى عليهم، وإغراقه إياهم هو ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢٣- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام إذا استوى هو ومن معه على السفينة واستقلت بهم؛ بحمد الله تعالى والثناء عليه على إنجائه إياهم من القوم الظالمين وما هم عليه، وإنجائهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾، وهكذا فعل عليه السلام، فذكر الله في ابتداء سيره ونهايته، وهكذا شرع عز وجل لهذه الأمة الدعاء عند الركوب والسفر.

٢٤- أمره عز وجل له بدعاء ربه أن ينزله هو ومن معه في السفينة منزلًا مباركًا، ويثني عليه بكونه خير المنزلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل هو خير المنزلين، ومشروعية الثناء عليه بذلك والدعاء بهذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

٢٧- أن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه آياتٍ ودلالاتٍ عظيمةً على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، وصدق رسله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾.

٢٨- ابتلاء الله العباد بإرسال الرسل إليهم، وابتلاء الرسل وأتباعهم بما يحصل لهم من الأذى من مخالفيهم، وأن الابتلاء بالخير والشر سنة كونية؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، والكافر من المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتهديد للكافرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: جيلًا آخرين وأمة أخرى، يحتمل أن المراد بهم: «عاد»؛ لأنهم هم المستخلفون بعد قوم نوح، وقد جاء في مواضع كثيرة من القرآن ذكرهم بعد قوم نوح.

ويحتمل أن المراد بهم: «ثمود» وهو الأقرب- والله أعلم- لأن هذه القصة تشبه قصة ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وغير ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، أي: يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛ ليكون ذلك أقرب لانقيادهم له، وليبين لهم وتقوم الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤]، وهو «هود» أو «صالح».

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فقال لهم رسولهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ كما قال نوح لقومه، وقد سبق الكلام على هذا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الذين أنكروا رسالته وكذبوه وجحدوا وحدانية الله تعالى.

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: كذبوا بلقاء الله تعالى، والدار الآخرة، وأنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: أغدقنا عليهم الأموال والأرزاق والنعم في الحياة الدنيا، فاغتروا بذلك، وبطروا.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، أي: من جنسكم، ليس له مزية عليكم، وليس بملك.

﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾، أي: يأكل من الذي تأكلون منه من المطاعم، ويشرب من الذي تشربون منه، فما الذي يفضله عليكم؟ أي: فهلا كان ملكًا لا يأكل ولا يشرب؛ كما قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أطعتم بشرًا مثلكم وصدقتموه واتبعتموه ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جملة جواب القسم، و«إذًا» بالتنوين: حرف جواب لا عمل له، واللام: واقعة في جواب القسم.

وهذا قلب للحقائق؛ فإن مخالفيه هم الخاسرون، وإن مطيعيه هم الرابحون، وهذا كقولهم في سورة القمر: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٤ – ٢٥].

﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: أيعدكم أنكم إذا متم وبليتم وكنتم ترابًا ورميمًا وعظامًا نخرة ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ من قبوركم ومبعوثون أحياء بعد ذلك؟!

﴿۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ قرأ أبو جعفر بكسر التاء: «هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ﴾، أي: بَعُد بَعُد.

﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، اللام: للتوكيد، و «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بعُد وعدكم، أو بعُد الذي توعدون.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ «إن» نافية في الموضعين بمعنى «ما»، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، أي: يموت أناس ويحيا أناس، ويموت قوم ويحيا آخرون.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ أحياء بعد الموت؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، أي: لا ثمة بعث ولا آخرة ولا حساب ولا جزاء.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل اختلق على الله كذبًا فيما جاء به من دعوى الرسالة، والدعوة إلى عبادة الله وترك عبادة الآلهة،

وفيما يعد به من البعث ويحذر منه من الحساب والجزاء.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن له بمصدقين، ولا منقادين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾، أي: يا رب انصرني وأظهرني عليهم بسبب تكذيبهم إياي، فأجاب الله دعاءه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله عن ﴿قَلِيلٍ﴾، أي: بعد زمن قليل قريب ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليصيرن نادمين، أي: متأسفين على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لك.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: أهلكتهم الصيحة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: أخذًا ملابسًا ومصاحبًا للحق، أي: أخذًا بالحق والعدل، وذلك بأن صاح بهم جبريل صيحة شديدة قطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: ٥]، أي: بالصيحة الشديدة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، أي: فصيرناهم غثاء كغثاء السيل الذي يطفو على الماء من الأعواد والورق اليابس ونحو ذلك، ويلقيه السيل في جنبات الوادي، مما لا قيمة له، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾ [القمر: ٣١].

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«بعدًا»: مفعول مطلق، أي: أُبعدوا بعدًا، أي: فهلاكًا وإبعادًا للقوم الظالمين من الرحمة.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: فبعدًا لهم؛ لبيان أن سبب إهلاكهم وإبعادهم عن الرحمة هو ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزخرف: ٧٦].

وفي هذا تحذير للظالمين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١ - إنشاؤه عز وجل بعد قوم نوح قرنًا آخرين، وإقامة الحجة عليهم بإرساله فيهم رسولًا منهم، يحتمل أنهم قوم هود عليه السلام، ويحتمل أنهم ثمود وقوم صالح عليه السلام، وهو الأقرب لشبه ما ذكر بقصتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٢- منة الله تعالى على كل أمة بجعل رسولهم منهم؛ ليبين لهم، ويطمئنوا إليه.

٣- إطباق دعوة الرسل كلهم على الأمر بعبادة الله تعالى، وإبطال إلهية غيره، والأمر بتقواه، وإنكار عبادة من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- تكذيب الملأ والأكابر من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفوا في الحياة الدنيا له بحجة أنه بشر، وليس بملك؛ كما قال قوم نوح وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا دليل جهلهم وضلالهم.

٥- جمع هؤلاء الملأ بين الكفر والتكذيب بلقاء الآخرة والترف؛ ولهذا كذبوا رسولهم، وأنكروا رسالته.

٦- إثبات لقاء الله تعالى، والدار الآخرة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٧- الحذر من الترف؛ فإنه قد يحمل على البطر والغرور، ورد الحق ومعارضته.

٨- أن من طبيعة البشر حاجتهم إلى الأكل والشرب، بخلاف الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

٩- تحذير هؤلاء الملأ لقومهم من طاعة رسولهم أشد التحذير، وتهديدهم بالخسران إن أطاعوا بشرًا مثلهم واتبعوه؛ لقولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

١٠- تعجبهم من وعد رسولهم لهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا، بإخراجهم من قبورهم، واستبعادهم لذلك؛ لقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

١١- أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال حق؛ لوعد الرسل كلهم بذلك.

١٢- تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم له، وزعمهم أن الحياة مجرد هذه الحياة الدنيا، يموت أناس ويحيا آخرون، ولا بعث ولا جزاء؛ لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

١٣- زعمهم كذب رسولهم، وأنه إنما هو رجل اختلق على الله كذبًا بدعواه النبوة، ولن يؤمنوا له؛ لقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

١٤- استفتاحه عليه السلام ودعاؤه ربه بنصره عليهم بسبب تكذيبهم له؛ لقوله

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾.

١٥- استجابة الله عز وجل له، ووعيده لهم بالعذاب القريب، وتنديمهم على تكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾.

١٦- إهلاكهم بالصيحة بالحق والعدل بسبب تكذيبهم وكفرهم، وجعلهم غثاء لا قيمة لهم كغثاء السيل، والحكم عليهم بالإبعاد عن الرحمة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد إهلاك المكذبين من قوم نوح والقرن الآخرين بعدهم، ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: أممًا وأجيالًا آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما تسبق أيُّ أمة أجلها وما يستأخرون، أي: أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل وقتًا محددًا لهلاكها، لا تسبقه ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين: «تَتْرًا».

وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَتْرَا﴾.

أي: ثم أرسلنا إليهم رسلنا متتابعة يتبع بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾، أي: كلما جاء أمة من هذه الأمم رسولها كذبوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ بالإهلاك والاستئصال؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾، أي: صيرناهم أحدوثات وأخبارًا يتحدث الناس بها أصابهم. قال الشاعر:

وإنـــما المـــرء حـــديث بعـــده فكـــن حـــديثًا حسـنًا لمـــن وعـــى[1]

وفي هذا تهديد للمكذبين، وعظة للمتقين، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: فإبعادًا وهلاكًا لهم، وما أشقاهم وأخسر صفقتهم!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾، أي: ثم بعد إهلاك تلك القرون والأمم المكذبة أرسلنا موسى وأخاه هارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ البينات ودلائلنا الواضحات.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: حجة بينة، وبرهان قاطع على صدقهما، وصحة ما جاءا به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، منها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص الثمرات، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧ - ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: سادات قومه وكبار جنوده وقياداته كهامان وغيره.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبروا عن الإيمان بالله، وعن الانقياد لموسى وهارون واتباعهما، وعن طاعتهما بإرسال بني إسرائيل معهما.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾، أي: مستكبرين متطاولين على الناس، فجمعوا بين الاستكبار

---

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ١/ ١٩٤، «جمهرى الأمثال» ١/ ٣٥٢، «زهر الأكم» ١/ ٣٣٥.

عن قبول الحق، وبين التعالي على الخلق، وقد قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(١)، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ منكرين لبعث الرسل كحال المكذبين قبلهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ يعنون: موسى وهارون، أي: ما كان لنا أن نؤمن لهما ونصدقهما وهما بشران مثلنا، وليسا من الملائكة.

﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ يعنون: بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾، أي: لنا متذللون معبَّدون مطيعون، وقد كانت بنو إسرائيل خولًا للقبط وخدمًا لهم، يعبِّدونهم بالأعمال الشاقة؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: ٢٢].

والمعنى: كيف نؤمن لهما ونتبعهما بعد أن كانوا تابعين لنا؟ وكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وهذا من كبرهم وعلوهم، ونظير هذا قول قوم نوح: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: ١١١]، وقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بحجة أنهما من البشر.

﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالغرق، أهلكهم الله، وبنو إسرائيل إليهم ينظرون؛ كما قال: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ الضمير يعود إلى بني إسرائيل، أي: لأجل أن يهتدي بنو إسرائيل بما في التوراة من الهدى وبيان الحق والشرائع والأحكام.

قال ابن كثير(٢): «وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: ٤٣]».

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾، أي: وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٤٦٩.

﴿ءَايَةً﴾، أي: علامة ودلالة على عظيم قدرة الله تعالى؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر، كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾، أي: جعلنا لهما مأوى.

﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، أي: مكان مرتفع من الأرض.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، أي: صاحبة استقرار، أي: مكان صالح للاستقرار عليه.

﴿وَمَعِينٍ﴾، أي: ماء جارٍ ظاهر للعيون لا ينضب. وهذا- والله أعلم حين وضعها عيسى، وذلك في بيت المقدس.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وتأييد الله لهما بالآيات الواضحات والحجج البينات، بعد إهلاك قرون وأمم كثيرة جاءتهم رسل الله فكذبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

٢- استكبار فرعون وملئه عن الإيمان بالله، وعن اتباع موسى وهارون والانقياد لما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتعالي على الخلق، وغمطهم وانتقاصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾.

٤- امتناع فرعون وملئه عن الإيمان لموسى وهارون وتصديقهما واتباعهما، بحجة أنهما بشران مثلهما، وليسا من الملائكة، وبحجة أن قومهما بني إسرائيل كانوا معبدين لهم بالخدمة، فكيف يكونون تابعين بعد أن كانوا متبوعين؟! كبرًا منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- تسلط فرعون وقومه القبط على بني إسرائيل، واستعبادهم إياهم بالخدمة والأعمال الشاقة، وإذلالهم لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

٦- تكذيبهم لموسى وهارون، وإهلاكهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟

مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴿٤٨﴾﴾.

٧- إيتاء موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك فرعون وقومه، وخروجه ببني إسرائيل وإنجائهم من فرعون وقومه؛ ليهتدوا بما فيه من بيان الحق والشرائع والأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴿٤٩﴾﴾.

٨- الإخبار والامتنان بجعله عز وجل عيسى ابن مريم وأمه آية، أي: علامة ودلالة على كمال قدرته عز وجل؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ ولهذا يذكر عيسى عليه السلام في القرآن غالبًا منسوبًا إلى أمه: «عيسى ابن مريم»، بينما يذكر غيره من الأنبياء بلا نسبة.

٩- الامتنان على عيسى وأمه بإيوائهما حين وضعها له إلى مكان مرتفع مستوٍ مناسب للاستقرار عليه، فيه الماء المعين، وذلك- والله أعلم- في بيت المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ بدل من «أي»، أو عطف بيان، والنداء موجه لكل رسول، والأمر لهم كلهم في قوله: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المراد بـ«الطيبات» هنا: الحلال من الرزق، أي: كلوا من الرزق الطيب الحلال.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ الواو: عاطفة، أي: واعملوا عملًا صالحًا؛ شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليكم من الطيبات.

والعمل الصالح ما كان خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه. والأمر للوجوب.

﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بجميع الذي تعملونه، أو بعملكم كله ﴿عَلِيمٞ﴾، أي: ذو علم تام به، مطلع عليه، وسأجازيكم عليه أتم الجزاء وأوفاه وأفضله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب

لذلك؟!»[١].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الهمزة: ﴿وَإِنَّ﴾.
وقرأ الباقون بفتحها: «وَأَنَّ»، وسكن النون من «أن» ابن عامر، وشددها الباقون.

﴿أُمَّةً﴾ حال منصوبة من «أمتكم»، والمراد بالأمة هنا: الملة، أو الجماعة، أي: وإن هذه ملتكم أيها الرسل ملة واحدة، ودينكم دين واحد، وهو الإسلام وعبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى ذلك، وإن هذه جماعتكم جماعة واحدة هي الأمة الإسلامية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[٢].

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بفعل ما آمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، والخطاب والأمر لهم ولأتباعهم.

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾، أي: تفرقت الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: شأنهم ودينهم، واختلفوا على ملل ونحل كثيرة، وعدلوا عما جاءتهم به الرسل من توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، والاستسلام له بذلك، والانقياد لطاعته.

﴿زُبُرًا﴾ قرأ أبو عمرو- على خلاف عنه- بفتح الباء: «زُبَرًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿زُبُرًا﴾، أي: شيعًا وأحزابًا وفرقًا.

قال ابن القيم: «والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله به رسوله»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، قبول الصدقة من الكسب الطيب ١٠١٥، وأحمد ٢/ ٣٢٨، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٨٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٣/ ٢٣٣.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: كل فريق بالذي عندهم من العلم والرأي والقول والمعتقد والعمل ﴿فَرِحُونَ﴾ يرون أنهم على الحق والهدى دون غيرهم، وإن كانوا على الباطل والضلال؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝﴾ [الروم: ٣١ – ٣٢].

وكما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك[١]

ومن المؤسف أن المجتمعات الإسلامية قد أصيبت بهذا الداء العضال، وهو تقطع الأمر، حتى على مستوى البيوت والأسر والقرابات، وجماعات المساجد، وسكان الحي، وكثير من المؤسسات التعليمية والخدمية وغيرها. فافتقد كثير من هذه المجتمعات التعاون والتناصح والتواصي بالحق، والتنافس المثمر البنّاء، مما ينذر بتفكك المجتمع، وبعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع والأمة. وهذا يوجب علينا جميعاً- أفراداً ومجتمعات- العمل جميعاً بروح الفريق الواحد، وبث روح التعاون والإخلاص والنصيحة ، وتحمل المسؤولية؛ ليصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، ونسعد في الدنيا والآخرة.

ولنعلم أن التفرق والاختلاف وتقطع الأمر أساس كل بلية، وسبب كل رزية، في الأمم والمجتمعات صغيرها وكبيرها، حتى بين الأقارب والأسر والإخوة والأصحاب، وهو مركب شياطين الإنس والجن الذين يفرقون بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والأخ وأخيه، والجار وجاره، وقد حذر الله منه ورسوله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٢].

---

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠،

وقال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»(١).

ولم تُصَب الأمة الإسلامية منذ عهد الرسالة إلى يومنا هذا بأعظم من هذا المصاب؛ حيث تفرقت شيعًا وأحزابًا، وطوائف وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام؛ كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر(٢)

ولن يعود للأمة مجدها وعزها إلا برجوعها إلى دينها، والاجتماع على كلمة سواء، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ في شأن المشركين المكذبين، تسلية له ﷺ، وتهديدًا لهم، أي: اتركهم في غيهم وضلالتهم وجهلهم، ولا تبالهم، فهم من جملة الذين ﴿تَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فمنهم من عبد اللات، ومنهم من عبد العزى، ومنهم من عبد مناة، ومنهم من عبد غير ذلك، وفي هذا إشارة لعدم انتفاعهم بالوعظ؛ لأن كلًّا منهم يزعم أنه على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨].

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت نزول العذاب وإهلاكهم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٧].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أيظنون.

«أن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ما نزودهم به ونعطيهم إياه من الأموال والأبناء.

والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيت بلا نسبة، كما في «ديوان الحماسة» (١/ ١٧٦).

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ «نسارع» خبر «أن»، أي: أيحسبون أن الذي نمدهم به من مال وبنين، أو أن إمدادنا لهم من ذلك مسارعة منا لهم في الخيرات، أي: بإعطائهم ما يحبون لفضلهم عندنا؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: **«ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»**[1]، أي: في إعطائك ما تحب.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنما نمدهم بذلك إملاء واستدراجًا لهم؛ ليزدادوا إثمًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

قال قتادة: «﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: مكر، والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»[2].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»** قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: **«غشمه وظلمه. ولا يكسب عبد مالًا حرامًا فيبارك له فيه، ولا**

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٨، ومسلم في الرضاع ١٤٦٤، والنسائي في النكاح ٣١٩٩، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٠، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٧٣.

يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١﴾.

لما ذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، والوجل من عدم القبول.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ «إن» حرف توكيد، و«من»: للتعليل، أي: إن الذين هم بسبب شدة خوفهم من ربهم ﴿مُّشْفِقُونَ﴾، أي: وجلون خائفون، وهم المؤمنون أتباع الرسل، جمعوا بين الأكل مما أباح الله من الطيبات، والعمل الصالح، وبين الخوف من الله وعذابه، فجمعوا بين الإيمان وإحسان العمل، وبين الخوف من الله، معرفة به، وخوفًا من أن يضع عليهم عدله، واتهامًا لأنفسهم بالتقصير.

قال الحسن: «المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمنًا»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾، أي: والذين هم بآيات ربهم الكونية والشرعية، الدالة على عظمته ووحدانيته يصدقون، يتدبرون آياته الشرعية وتزيدهم إيمانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

ويتفكرون في آياته الكونية وتزيدهم له تعظيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ قدَّم المعمول في المواضع الثلاثة، وهي قوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ تعظيمًا له عز وجل، وفيه

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٧٣.

مراعاة الفواصل.

أي: والذين هم لا يعبدون إلا الله، ولا يشركون به أحدًا سواه، لا شركًا جليًّا، كاتخاذ آلهة مع الله، ولا شركًا خفيًّا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون له العبادة تمام الإخلاص.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ كرر الموصولات للاهتمام، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: يعطون ما أعطوا من العطاء، ويعملون ما عملوا من العمل، أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والنفقات والصدقات والهبات والهدايا وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾ [النمل: ٣]، [لقمان: ٤].

ويعملون ما عملوا من الأعمال الصالحات؛ من صلاة وصوم وحج وبر، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ودعوة إلى الله تعالى، وغير ذلك.

﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون قلوبهم وجلة، أي: خائفة من ربهم، ومشفقة من عدم القبول، وهذا دأب الصالحين، لا يحملون همًّا للعمل؛ فهو يسير عليهم لقوة إيمانهم وشدة عزائمهم، وإنما يحملون هم القبول، ويخافون من الرد.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا ابنة أبي بكر، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم**»(١).

﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ الجملة تعليلية، أي: ليقينهم بأنهم إلى ربهم راجعون، أي: أن مردهم وإيابهم إليه عز وجل، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، أي: يسارعون في عمل الخيرات، ويسابقون إليها، وينافسون فيها، امتثالًا لأمر ربهم، قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المؤمنون ٣١٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٨، وأحمد ٦/ ١٥٩، ٢٠٥.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وهم للخيرات سابقون، أي: مدركون لها، ومحصلون لثوابها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ولكل مجتهد نصيب، ومن جد وجد، ومن زرع حصد، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد أحسن القائل:

الجـد بالجـد والحرمـان بالكسـل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل(١)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢):

ومـا المـرء إلا حيـث يجعـل نفسـه ... فكـن طالبًا في النـاس أعـلى المراتـب

وقال الشافعي رحمه الله(٣):

ومـن طلـب العـلا مـن غـير كـد ... أضـاع العمـر في طلـب المحـال

وقال الآخر:

ومـن طلـب العـلا مـن غـير كـد ... سـيدركها متـى شـاب الغـراب(٤)

وقال الآخر:

ومـن زرع الحبـوب ومـا سـقاها ... تـأوه نادمًـا يـوم الحصـاد(٥)

الفوائد والأحكام:

---

(١) البيت لصلاح الدين الصفدي من لاميته. انظر: «نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص١٥).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٥).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص٩٧).

(٤) انظر: «بيان المعاني» (٤/ ٣٨٣).

(٥) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص١٤٨).

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والتعظيم والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾.

٢- امتنان الله عز وجل على الرسل وأمره لهم بالأكل من الحلال، وعمل الصالحات؛ شكرًا لله تعالى على ذلك، وهو امتنان على أتباعهم، وأمر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾.

٣- اتفاق شرائع الرسل على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائث، وعلى كل عمل صالح.

٤- أن كل ما أباحه الله تعالى وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

٥- ينبغي الحرص على تطييب المأكل والمشرب، والتعبد لله بذلك؛ لأن ذلك من طاعة الله تعالى، وعون على العمل الصالح، وهذا دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام، فما منهم من أحد إلا رعى الغنم، قال ﷺ: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

وعن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»(٢).

٦- أن الرسل عليهم السلام مكلفون بالعمل كسائر الناس، خلافًا لما يزعمه غلاة الصوفية، من أن الإنسان إذا بلغ درجة في الدين يرتفع عنه التكليف، وهذا من تحريفاتهم الباطلة.

٧- وجوب شكر الله تعالى على نعمه، وعلى ما أباحه من الطيبات بالعمل الصالح.

٨- يجب مقابلة المحسن بالشكر والإحسان، ورد الجميل بالجميل.

٩- أن كل ما أباحه الله وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

١٠- لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١١- علم الله عز وجل الواسع المحيط بأعمال العباد، يحصيها ويكتبها عليهم، ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، رعي الغنم على قراريط ٢٢٦٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في البيوع، كسب الرجل من عمل يده ٢٠٧٢.

١٢- أن ملة الرسل عليهم السلام ملة واحدة؛ هي الإسلام وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأمتهم كلهم وجماعتهم هي أمة وجماعة واحدة، هي الأمة الإسلامية.

١٣- إثبات ربوبية الله الخالصة للرسل وأتباعهم المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وقوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾.

وإثبات ربوبيته العامة لجميع أمم الرسل وسائر الخلق.

١٤- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

١٥- عدول الأمم عما جاءتهم به الرسل من توحيد الله تعالى، والاجتماع على ملة واحدة، واختلافهم وتفرقهم شيعًا وأحزابًا وطوائف، كل يرى أن الحق معه دون غيره، وتلك بلية البليات، وأعظم المصائب والرزيات؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

١٦- وجوب الحذر من التفرق والاختلاف، والحرص كل الحرص على لم الشمل والائتلاف بين المسلمين، على مستوى الأمة والدول والقبائل والعوائل والقرابات والأسر، والمجتمعات كبيرة أو صغيرة، فإن الاجتماع والألفة خير، والخلاف والفرقة والتباغض والتعادي والتهاجر شر مستطير.

١٧- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، وتهديدهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾، أي: اتركهم ولا تبالهم إلى حين حلول العذاب بهم.

١٨- ذم المشركين المكذبين له ﷺ، وأنهم سادرون في غيهم وجهلهم وضلالهم، جمعوا بين الإساءة والأمن من مكر الله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾.

١٩- الإنكار عليهم في ظنهم أن ما يمدهم الله به من الأموال والأولاد مسارعة لهم في الخيرات لخيريتهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾، أي: لا يظنوا ذلك.

٢٠- جهلهم وعدم علمهم أن ما يمدون به من الأموال والأولاد إملاء واستدراج لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

٢١- ثناء الله عز وجل على أتباع الرسل المؤمنين، الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين خشية ربهم والخوف منه ومن عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢٢- امتداحهم بالإيمان بآيات لله الكونية والشرعية والتصديق بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٣- امتداحهم بجمعهم بين إعطاء العطاء والقيام بالعمل، مع وجل قلوبهم وخوفهم من ربهم، ومن عدم القبول، وعدم الإدلال على الله بما يعطونه وما يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

٢٤- إيمانهم ويقينهم أنهم إلى ربهم راجعون، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

٢٥- ثناء الله تعالى عليهم بالمسارعة إلى الخيرات، وإدراكهم لها، وتحصيلهم لثوابها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: لا نكلف نفسًا إلا ما تستطيع القيام به وتقدر عليه وتطيقه؛ فعلًا أو قولًا أو بذلًا.

﴿وَلَدَيْنَا﴾، أي: وعندنا، ﴿كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو كتاب الأعمال، الذي سُطرت فيه جميع أعمال العباد صغيرها وكبيرها؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: لا يظلمون بأن ينقص من حسناتهم، أو يزاد في سيئاتهم، بل يجازى كل بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: في غفلة وجهالة وضلالة، ﴿مِّنْ هَذَا﴾، أي: من هذا القرآن الذي أنزله الله على النبي ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراطه المستقيم، أي: أنه لا يصل إلى قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ﴾، أي: ولهم أعمال سيئة مكتوبة عليهم، زيادة على ما هم فيه من الغمرة والغفلة عن القرآن، والكفر والشرك.

أي: لا بد أن يعملوها قبل هلاكهم؛ ليضاعف عذابهم، وتحق كلمة العذاب عليهم؛ ولهذا أمهلوا وأنظروا، ولم يعجل عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقيل: الإشارة في قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ إلى ما ذكر من صفات المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم

بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ على هذا، أي: ولهم أعمال سيئة مخالفة لأعمال المؤمنين وصفاتهم هم لها عاملون؛ من الكفر والشرك والاستكبار ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم، وأنهم وإن أملي لهم وأمهلوا ليزدادوا إثماً؛ فإنهم معذبون لا محالة، ولنزول العذاب بهم أجل وغاية.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ «حتى» لابتداء الغاية، ﴿إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ «إذا» شرطية غير عاملة، ﴿مُتْرَفِيهِم﴾، أي: المترفين المنعمين منهم، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الباء للملابسة، أي: بالعذاب الدنيوي، أي: إذا أصابهم العذاب ووجدوا مسه وألمه.

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ «إذا» هي الفجائية، والجملة جواب الشرط «إذا»، أي: إذا هم يصرخون ويستغيثون ويتوجعون، ويرفعون أصواتهم متضرعين؛ كما قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ٣].

وخص مترفيهم، مع أن العذاب يعم المترف وغيره؛ لأن وقْع العذاب عليهم أشد؛ لما اعتادوه من الترف والتنعم؛ كما أن عذابهم أشد وأعظم، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١١ - ١٣].

﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: فيقال لهم تبكيتاً وتنديماً: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: لا تصرخوا وتستغيثوا اليوم بعد وقوع العذاب، فذلك غير نافع لكم، سواء جأرتم أو سكتم.

﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لا ناصر لكم منا يرفع عنكم العذاب، وإذا الله لم ينصرهم فلا ناصر لهم من أنفسهم ولا من غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ثم ذكر سبب أخذهم بالعذاب، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تقرأ عليكم؛ لتهتدوا بنورها، وتؤمنوا بها،

وتعملوا بمقتضاها.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ الأعقاب: جمع «عقب»؛ وهو: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع إلى الوراء، أي: فكنتم على أعقابكم ترجعون القهقرى إلى الخلف والوراء؛ لإعراضكم عن آيات الله وصدودكم عنها ونفوركم من سماعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١٢].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنكِصُونَ﴾.

﴿بِهِۦ﴾ الضمير يحتمل عوده إلى القرآن وآياته؛ لقوله قبله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: مستكبرين بالقرآن، أي: مكذبين به تكذيب استكبار، فضمن الاستكبار معنى التكذيب، أو الباء بمعنى «عن»، أي: مستكبرين عن اتباعه.

ويحتمل أن المراد بالضمير: الحرم؛ لأنه معهود عند المخاطبين، والباء للسببية، أي: مستكبرين متعالين على الناس بسبب الحرم، تقولون: نحن أهل الحرم وسدنته، وقوّامه وخدامه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقيل: الباء على هذا ظرفية، أي: مستكبرين في الحرم.

﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم: «يُهْجِرُونَ»، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم: ﴿تَهْجُرُونَ﴾.

﴿سَـٰمِرًا﴾ حال، أي: تسمرون الليل بالحرم.

﴿تَهْجُرُونَ﴾، أي: تهجرون القرآن بالإعراض عنه، وبقولكم القول السيئ فيه؛ كقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم: ٥٩ – ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣].

وكقولهم: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، وأيضًا: تهجرون، أي: تقولون هجرًا أو سيئًا من القول وأنتم في الحرم.

الفوائد والأحكام:

١- تمام عدل الله عز وجل في التكليف، فلا يكلف نفسًا إلا ما تطيقه وتقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٢- إحصاؤه عز وجل على العباد أعمالهم، وكتابته إياها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها بالحق والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾.

٣- تمام عدله عز وجل في محاسبته الخلائق ومجازاته إياهم، فلا يُظلم أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٤- غفلة المكذبين والمشركين عن القرآن وآياته، وما فيه من الهدى والنور، وإعراضهم عنه، وضلالتهم وجهالتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

٥- إمهال هؤلاء المكذبين، وتأخير عذابهم؛ لما قدر عليهم من أعمال سيعملونها؛ ليزدادوا بها إثمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

٦- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وتقديره لها قبل أن يعملوها، وأن ما قدره الله تعالى كائن لا محالة.

٧- صراخ مترفيهم واستغاثتهم وتضرعهم بعد أخذهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٨- تبكيتهم وتيئيسهم، بأن صراخهم لن يرفع العذاب عنهم بعد وقوعه، ولا ناصر لهم من الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٩- أن من خذله الله تعالى وتخلى عنه فلا ناصر له، لا من نفسه ولا من غيره؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

١٠- تقريعهم وتوبيخهم على إعراضهم عن آيات الله، والتكذيب بها، وعدم الاهتداء بنورها، ونكوصهم على أعقابهم في ضلالتهم وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

١١- أن التقدم حقًّا إنما يكون باتباع ما جاءت به الرسل، والاهتداء بهدى الله تعالى، وأن النكوص والتأخر والرجوع إلى الخلف والوراء بالإعراض عن ذلك.

١٢- استكبار المشركين عن اتباع القرآن، وتعاليهم على الناس بسبب أنهم سكان الحرم وسدنته؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾.

١٣- سمرهم في ليلهم بقول الهجر والسيئ من القول بالقرآن، بوصفه بالسحر والشعر والكهانة والكذب، وقول الهجر والسيئ من القول وهم في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

*　　*　　*

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء: عاطفة، أي: أجهلوا فلم يدبروا القرآن ويتفهموه ويتفكروا به؛ ليعلموا أنه الحق المبين، أي: أن الذي منعهم من الإيمان هو جهلهم وعدم تدبرهم القرآن.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «أم» في المواضع الأربعة هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ و«ما»: موصولة، أي: الذي لم يأت آباءهم الأولين وأسلافهم، أي: أفمنعهم من الإيمان ومن تدبر القرآن أنه جاءهم رسول وكتاب لم يأت آباءهم الأولين، فردوا ما جاءهم من الحق وعارضوه؛ لمخالفته ما كان عليه آباؤهم من الضلال؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢ – ٢٣].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾، أي: بل ألم يعرفوا رسولهم، أي: أومنعهم من الإيمان واتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم، فيشكون في صدقه وأمانته؟ أي: ليس الأمر كذلك، فهو ﷺ معروف عندهم معرفة تامة، يعرفون منه كل خلق جميل،

ويعرفون صدقه وأمانته، وكانوا يسمونه قبل بعثته: «الأمين»؛ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: «إن الله قد بعث إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته».

وهكذا قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفارًا لم يسلموا؛ ولهذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك[1].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾، أي: بل أيقولون به ﷺ جنة؟ أي: جنون، وهو الخلل في العقل، فيهذي بما لا يدري وبالباطل، ولا عبرة بكلامه.

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ «بل»: للإضراب والانتقال مما تقدم، أي: بل جاءهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصدق العدل، وهو الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، أي: بل الذي منعهم من الإيمان به، واتباع ما جاء به أنه جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون؛ لمخالفته لأهوائهم الباطلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: ما تهواه أنفسهم مما هم عليه وآباؤهم، من الشرك والكفر والظلم والفساد، وسيئ الأعمال والأخلاق.

﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لفسدت السموات والأرض ومن فيهن من المخلوقات والعوالم، واختل نظام الكون؛ لأن ذلك كله إنما قام على الحق والعدل والتوحيد.

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أتيناهم بما فيه تذكيرهم وموعظتهم وعزهم وشرفهم وسؤددهم، إذا قاموا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٧٧.

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، فلم يتدبروه بقلوبهم، ولم ينقادوا له، ولم يتبعوه بجوارحهم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾، أي: بل أتسألهم خرجًا؟ أي: أجرًا وجعلًا، أي: أومنعهم من الإيمان بما جئت به واتباعك أنك تسألهم على ذلك أجرًا؟ كما قال تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، أي: أنك لم تسألهم خرجًا؛ ولهذا قال:

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ قرأ ابن عامر: «فخرج ربك»، وقرأ الباقون: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾.

الفاء تعليلية، أي: لأن خراج ربك خير، أي: جزاؤه وثوابه وعطاؤه خير لك ولكل من دعا إلى الله تعالى من الرسل وأتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧].

وهكذا قال كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لقومهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠ - ٢١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، أي: هو الرازق والرزاق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

والتفضيل في قوله: ﴿خَيْرُ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن التفضيل قد يكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

وكذلك الجمع في قوله: ﴿الرَّازِقِينَ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن الرازق قد يطلق على من كان سببًا في الرزق، والله وحده عز وجل هو الرازق؛ لأنه هو موجد الأسباب ومسبباتها.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتدلهم إلى طريق عدل مستقيم موصل إلى السعادة في الدارين، والفوز بالجنة والنجاة من النار، بأخصر طريق وأقربه.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، بل يكذبون بذلك وينكرونه.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم المعهود الذي تدعوهم إليه، وهو صراط الله والصراط: الطريق.

﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: مائلون منحرفون، زائغون جائرون عنها.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وإنهم»، بل قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لبيان أن سبب تنكبهم الطريق المستقيم هو عدم إيمانهم بالآخرة.

﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥﴾ «لو» شرطية، ﴿رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾: فعل الشرط، أي: ولو رحمناهم برحمتنا العامة لجميع الخلق، ﴿وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ «ما»: موصولة، أي: وأزلنا الذي بهم من ضر يتضررون به من مرض أو فقر أو غير ذلك.

﴿لَّلَجُّواْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لتمادوا واستمروا ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، أي: في تجاوزهم الحد بالكفر والشرك والكبر والمعاصي.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾، أي: يترددون ويتحيرون ويتخبطون في الضلال والطغيان؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عنه، وأن ذلك هو الذي حرمهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾.

٢- وجوب تدبر القرآن، وأن من تدبره دلّه إلى الحق، وهداه إلى الصراط المستقيم.

٣- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيمان وتدبر القرآن؛ لمخالفته ما كان عليه آباؤهم الضالون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

٤- ينبغي الحذر من التعصب لما عليه الآباء والأجداد، ورد الحق ومخالفته لأجل ذلك.

٥- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيمان واتباع الرسول ﷺ مع معرفتهم له، ومعرفتهم صدقه وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾.

٦- أن قيام الحجة على قريش آكد من غيرهم؛ لكونه ﷺ منهم، يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته.

٧- الإنكار عليهم في رميهم إياه ﷺ بالجنون، وردهم ما جاء به من الحق؛ لأجل ذلك؛ مع علمهم أنه ليس فيهم أعقل منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾.

٨- جرأة المكذبين والمشركين على وصف الرسل بأقبح الأوصاف؛ لتنفير الناس منهم ومن دعوتهم.

٩- أن الذي حملهم على تكذيبه ﷺ ورد ما جاءهم به؛ أنه جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

١٠- إن أكثر الخلق كارهون للحق، مخالفون مجانبون له، فلا يغتر بما عليه الكثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

١١- أن كراهة أكثر الخلق للحق؛ لمخالفته لأهوائهم الضالة؛ ولهذا أتبع قوله: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ بقوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

١٢- أن الحق لا يمكن أن يتبع أهواءهم؛ لأنه لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفسد الكون بما فيه؛ لما هم عليه من الكفر والشرك والظلم وسيئ الأعمال والأخلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾.

١٣- أن السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ إنما قامتا على الحق والعدل والتوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤- أن الله عز وجل أنزل القرآن تذكيرًا وعظة للناس، وعزًّا وشرفًا لمن آمن به واتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾.

١٥- إعراض المكذبين والمشركين عن القرآن الكريم، وعدم تذكرهم واتعاظهم

به بقلوبهم، وعدم الانقياد له والعمل به بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ لم يسألهم على تبليغهم الدعوة، واتباعهم إياه أجرًا، فيستثقلوا ذلك ويمتنعوا عن اتباعه بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾.

١٧- أن أجره ﷺ في تبليغه رسالة ربه للناس على الله عز وجل، وكذا غيره من الرسل، وذلك أعظم أجر وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٩- أن الله عز وجل هو خير الرازقين، والأرزاق كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٢٠- ثناء الله عز وجل وامتداحه لمنهجه ﷺ ودعوته إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

٢١- تنكب الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء، وانحرافهم وعدولهم عن الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٣- تمادي هؤلاء المكذبين بالآخرة في طغيانهم وكفرهم، وعدم شكرهم حتى بعد كشف ما بهم من ضر من مرض أو فقر أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الفعلية العامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾.

٢٥- أنه لا يكشف الضر من مرض أو شدة أو فقر أو غير ذلك ولا يزيله إلا الله تعالى.

٢٦- حيرة أهل الكفر والطغيان، وترددهم وتخبطهم في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

٢٧- علم الله تعالى بما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلهِز- يعني: الوبر والدم- فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾»[1].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد من الفقر والجوع، وغير ذلك، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش لما أبطأوا عن الإسلام، فقال: «**اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف**» فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام»[2].

﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾، أي: فما خضعوا وذلوا لربهم، ورجعوا له، بل استمروا على كفرهم وضلالهم وطغيانهم.

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: وما يتضرعون إليه ويدعونه ويفتقرون إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالقتل يوم بدر، أو بالمجاعة والفقر، أو

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ٦/ ٤١٣ رقم ١١٣٥٢، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢٤٧ رقم ٩٦٧، والطبري في «جامع البيان» ١٧/ ٩٣.
وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

بعذاب يوم القيامة في النار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم في العذاب الشديد آيسون من النجاة ومن كل خير، متحيرون، قد انقطعت آمالهم، وأحاط بهم الشر وأسبابه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، أي: وهو سبحانه الذي خلقكم وأوجد لكم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم؛ لتسمعوا وتبصروا وتتفكروا في آيات الله الكونية والشرعية، الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

وهذه الأدوات الثلاث: السمع، والبصر، والعقول؛ هي أدوات إدراك الأشياء ووصول الإنسان إلى العلم والمعرفة؛ ولهذا امتن بها وحدها دون بقية الأعضاء.

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: قليلًا شكركم على ما أنعم الله به عليكم من هذه الجوارح وغيرها من النعم باستعمالها فيما خلقت له، والاستعانة بها على طاعة الله تعالى ونسبتها إلى مسديها، وهو الله عز وجل، وقليلًا الشاكر منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: نشركم وبثكم وفرقكم في الأرض، واستخلفكم فيها، ومكنكم من استخراج خيراتها وعمارتها، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده بعد موتكم ﴿تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، أي: تجمعون ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: وهو وحده عز وجل المتفرد بالإحياء والإماتة،

والمتصرف في الحياة والموت.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: وله عز وجل وحده اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبهما، وتناوبهما، وتسخيرهما، كل واحد منهما يطلب الآخر حثيثًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أليس لكم عقول تتفكرون وتتأملون بها، فتعرفون أن الذي خلقكم وامتن عليكم بهذه النعم؛ من السمع والبصر والأفئدة ونشركم في الأرض، والذي يحيي ويميت، ويقلب الليل والنهار، هو الله وحده المتفرد بكمال الوحدانية في ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره، ولا رب سواه، فتخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتشكروه على نعمه، وتؤمنوا بتمام قدرته على البعث وعلى كل شيء؟

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل قال هؤلاء المكذبون.

﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: مثل قول المكذبين الأولين قبلهم. أو موصولة، أي: مثل الذي قاله الأولون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِتْنَا»، وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾، أي: وكنا ترابًا ورميمًا وعظامًا بالية.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

الاستفهام: للإنكار والتعجب، واللام: للتوكيد.

أي: قالوا إنكارًا للبعث واستبعادًا له: أإذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، أي: هذا لا يمكن ولا يتصور بزعمهم.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ وفي سورة النمل قُدم اسم الإشارة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: ٦٧ – ٦٨].

والمعنى: لقد وعدنا نحن وآباؤنا أننا نبعث بعد كوننا ترابًا وعظامًا، ولم نره، ولم

يبعث أحد من آبائنا. وهذا تعليل للإنكار وتأكيد وتقوية له.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث بعد كوننا ترابًا وعظامًا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وما سطروه في كتبهم من الخرافات والقصص والأكاذيب، وهذا كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ [النازعات: ١٠ - ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- أخذ المكذبين بالعذاب الدنيوي بالابتلاء بالمصائب والشدائد من الجوع والفقر وغير ذلك؛ ليستكينوا ويخضعوا لربهم ويتضرعوا إليه، ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾.

٢- شدة قسوة قلوب هؤلاء المكذبين، وتماديهم في الطغيان والكفر، وعدم رجوعهم وخضوعهم لربهم، وعدم تضرعهم إليه مع أخذهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: ٤٣].

٣- أن الابتلاء بالمصائب من أسباب رجوع العبد الموفق إلى ربه وخضوعه له، وتضرعه إليه.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾.

٥- تهديد المشركين المكذبين، وتوعدهم بالعذاب الشديد، الذي يجعلهم آيسون من النجاة ومن كل خير، قد أحاط بهم الشر وأسبابه، إما في الدنيا وإما في الآخرة في النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٧﴾.

٦- امتنان الله تعالى على العباد بخلقهم ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة، ونشرهم في الأرض، وتسخيرها لهم يستخرجون خيراتها ويعمرونها؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٧- أن من أعظم ما منحه الله للعباد نعمة السمع والأبصار والأفئدة، فهي أدوات الإدراك والعلم والمعرفة؛ ولهذا امتن الله بها وحدها دون سائر الأعضاء.

٨- قلة شكر العباد لربهم على نعمه العظيمة عليهم، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

٩- إثبات بعث الخلائق، وحشرهم إلى ربهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

١٠- إثبات تفرده عز وجل وحده بالحياة والموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

١١- تفرده عز وجل وحده بتقليب الليل والنهار وتصريفهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

١٢- الإشارة إلى نعمته عز وجل ومنته على الخلق باختلاف الليل والنهار، وتقليبهما، وتمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٦].

١٣- الإنكار الشديد على المكذبين والمشركين عدم انتفاعهم بعقولهم في التفكر في عظمة الله تعالى وكمال قدرته، الذي أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وذرأهم في الأرض، وتفرد بالحياة والموت، وتقليب الليل والنهار؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى، فيخلصوا له العبادة، وعلى عظيم نعمه ومننه عليهم، فيشكروه، وعلى تمام قدرته على البعث، فيؤمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى معرفة ربه عز وجل، وكمال قدرته، ووحدانيته، وعظيم نعمه، ووجوب شكره، بإخلاص العبادة له وحده، فليس بعاقل.

١٥- سلوكهم مسلك المكذبين الأولين في إنكار البعث، وترديدهم مقالتهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

١٦- تأكيدهم هذا الإنكار، وتعليلهم له بأنهم وعدوهم وآباءهم بهذا البعث، ولم يروه ولم يبعث أحد من آبائهم. وزعمهم أن الوعد بذلك ما هو إلا من أساطير الأولين وحكاياتهم الكاذبة؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾.

١٧- قدرة الله التامة على بعث الموتى بعد كونهم ترابًا وعظامًا بالية، وعلى كل شيء مما قد لا تدركه العقول، لكن يجب التسليم به؛ لإخبار الله ورسوله بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في هذه الآيات تقرير المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الاستفهام: للتقرير هنا، وفي قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث- محتجًا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية، وبعث الناس بعد الموت- : ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات والعوالم، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؟.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أجيبوني إن كنتم تعلمون ذلك.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «سَيَقُولُونَ اللهُ» في المواضع الثلاثة بألف الوصل قبل اللام، ورفع الهاء من الجلالة.

وقرأ الباقون: ﴿لِلَّهِ﴾ بغير ألف مع خفض الهاء، أي: سيقولون لله وحده ذلك كله، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، أي: متصرف فيها.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أفلا تعتبرون وتتعظون وتستدلون بهذا على وحدانيته في إلهيته وحده لا شريك له.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ تدرج من سؤالهم عن الأرض

ومن فيها إلى ما هو أكبر وأعظم؛ وهو سؤالهم عن رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها، وأكبرها وأوسعها، وأحسنها؛ كما قال في آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، أي: الحسن الباهر.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: هي لله وحده، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في ذلك.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أفلا تتقون الله وتخافون عقابه في عبادتكم معه غيره، وإشراككم به مع إقراركم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم الذي هو أكبر المخلوقات؟!

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ انتقال وتدرج مما سبق إلى تقريرهم بما هو أعم من ذلك كله، أي: من بيده ملك كل شيء في هذا الكون وخزائنه علوية وسفلية. و«ملكوت»: صيغة مبالغة بمعنى: «ملك».

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾، أي: يحمي ويغيث من يشاء، ويحفظ عباده من الشرور، ويدفع عنهم المكاره.

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أي: ولا يغاث أحد ويحمَى منه، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فأجيبوني.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: سيقرون بأن ملكوت كل شيء لله، وأنه الذي يجير ولا يجار عليه.

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ الاستفهام للتقريع، أي: فكيف تذهب عقولكم؟! تعبدون غير الله، وأنتم تعلمون أن بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وأن معبوداتكم لا تملك شيئًا!

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ «بل» حرف إضراب وابتداء، أي: بل جئناهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصحيح، وهو إعلامهم أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأقمنا الأدلة الكونية والشرعية على ذلك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، واللام: للتوكيد، أي: وإنهم لكاذبون في عبادتهم مع الله غيره، وجعلهم معه آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد له، تعالى

الله عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، أي: ما جعل الله له ﴿مِن وَلَدٍ﴾ «من» هنا وفي الموضع الذي بعده: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما جعل الله لنفسه أيَّ ولد؛ لكمال غناه عن خلقه، وعدم حاجته إلى الولد، وهذا رد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾، أي: وما كان معه عز وجل أي إله غيره.

وقدّم نفي الولد على نفي الشريك- والله أعلم- لأن شبهة من زعموا أن الملائكة بنات الله وعبدوهم من دون الله أقرب للتمويه من زعم المشركين الحجارة شركاء لله؛ لأن الملائكة غير مشاهدين.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ «إذ»: حرف جواب، واللام: واقعة في جواب «لو» مقدر، و«ما»: موصولة، أي: لو كان على سبيل فرض المحال مع الله إله آخر؛ ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ﴾، أي: لانفرد كل إله بخلقه.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾، أي: ولغالب كل منهما الآخر، يريد الانفراد بالأمر دون الآخر.

قال ابن القيم: «فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المربوبون المقهورون. وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إله غيره؛ كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان»[1].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣٥.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى وتقديسًا له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: عن الذي يصفون، أو عن وصفهم، أي: عما يصفه به المشركون وينسبونه إليه من الولد والشريك.

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ نافع وأبو حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عَالِمُ» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿عَٰلِمِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم وإدراكهم، وما يشاهدونه ويحسونه ويدركونه.

﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تعاظم وتقدس وتنزه.

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي: عن الذي يشركون به من الشركاء، وعن شركهم به.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية الذي ينكرونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ الآية.

٢- تقرير المشركين بأن لله الأرض ومن فيها من المخلوقات، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾.

٣- تقريع المشركين على عدم تذكرهم واتعاظهم، وعبادتهم مع الله غيره مع إقرارهم بربوبيته، وعلمهم أن له الأرض ومن فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤- تقرير المشركين بأن الله هو رب السموات ورب العرش العظيم، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾.

٥- تقريع المشركين على عدم تقواهم عذاب الله وعقابه؛ لعبادتهم غير الله، مع إقرارهم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- تقرير المشركين بأن بيده عز وجل ملكوت السموات والأرض، وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

٧- تقريع المشركين؛ كيف تذهب عقولهم؟! يعبدون غير الله مع إقرارهم بربوبيتهم، وعلمهم أن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه!

٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لكل شيء.

١٠- إقامة الحجة على المشركين ببيان الحق؛ بأنه لا معبود بحق إلا الله، وإقامة الأدلة والبراهين على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾.

١١- تأكيد كذب المشركين في جعلهم مع الله آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد إليه، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

١٢- النفي القاطع المؤكد أن يكون الله اتخذ ولدًا، أو كان معه إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

١٣- أنه يمتنع أن يكون للكون أكثر من إله؛ إذ لو كان له أكثر من إله لاختل بنيانه وما استقام نظامه؛ لأنه لا يخلو إما أن ينفرد كل إله بخلقه، أو يعلو بعضهم على بعض، ولأن انتظام أمر العالم علويه وسفليه، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم دقيق، لا يختل ولا يختلف ولا يفسد، أدل دليل على أن مدبره واحد لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤- تنزيه الله وتقديسه عما يصفه به المشركون من الولد والشريك؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

١٥- علم الله تعالى الواسع بما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وبما يشاهدونه؛ لقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

١٦- تعاليه عز وجل وتعاظمه عما يشركه به المشركون من الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ۝٩٥ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ۝٩٥ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾:

قوله: ﴿قُل رَّبِّ﴾، أي: قل يا محمد داعيًا: ﴿رَّبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾، «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: إن أريتني.

﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي يوعدون، أي: الذي يوعد المكذبون من العذاب، أي: إن عجلت عذابهم في حياتي، فعذبتهم وأنا أنظر إليهم، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤﴾، أي: يا رب فلا تجعلني فيهم فيصيبني ما أصابهم من العذاب؛ لأن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢].

وفي الحديث: «**ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج**». وحلق بين أصبعيه السبابة والوسطى، فقلت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1].

ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «**وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون**»[2].

وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: «فيهم»؛ للدلالة على أن ما توعدوا به من العذاب بسبب ظلمهم، وليعم هذا الوعيد معهم غيرهم من الظالمين.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن ٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٥، وأحمد ٥/ ٢٤٣، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، و«ما»: موصولة، واللام: للتوكيد، أي: وإنا على أن نريك الذي نعدهم به من العقوبات والنقم لقادرون بأن نعجل ذلك في حياتك فتراه.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع بالحسنة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي: عامل بالإحسان من أساء إليك، واعف واصفح عمن آذاك من قومك، واصبر على أذاهم، ففي ذلك عظيم الأثر، وجزيل الأجر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: نحن أعلم بالذي يصف ويقول هؤلاء المكذبون من قومك من الأقوال الباطلة المتضمنة للكفر والتكذيب لك، ولما جئتهم به من الحق، أي: فدعهم واترك أمرهم إلينا. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد لهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

أمر بالدفع بالتي هي أحسن في معاملة المسيء من البشر؛ لأن ذلك قد ينجع فيه ويكف شره، ثم عطف بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن شرهم لا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منهم؛ لأنهم لا يكفيهم ولا يقنعهم إلا إهلاك الإنسان وزجه في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وقل: يا رب أعتصم وأستجير بك، وألتجئ إليك، وألوذ بجنابك.

﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: من وساوسهم ونزغاتهم، وتسويلهم وتزيينهم الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ - ٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وكان ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان ويقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه**»(١).

ولما رأى رجلًا قد اشتد به الغضب وانتفخت أوداجه، قال ﷺ: «**إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١).

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: وأعوذ بك يا رب من حضورهم، أي: من حضورهم إياي في أي أمر من أموري؛ عند قراءة القرآن، أو عند النزع والسياق، أو في أي شيء من أمري.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**»(٢).

وعن عمرو بن شبيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند الفزع من النوم: «**باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»(٣).

كما أمر بذكر الله عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ لأن في ذكر الله مطردة للشيطان؛ لأنه إذا سمع ذكر الله خنس وأدبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في الاستعاذة ١٥٥٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الطب -كيف الرقى ٣٨٩٣، والترمذي في الدعوات ٣٥٢٨، وأحمد ٢/ ١٨١- وقال الترمذي: «حسن غريب».

تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، أي: حتى إذا حضر أحد هؤلاء المكذبين الظالمين المفرطين الموت، وكُشف عنه غطاء الغفلة، ورأى مآله، وذكر قبح أفعاله؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

﴿قَالَ﴾ ندمًا على تفريطه حين لا ينفعه الندم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، أي: ردوني إلى الدنيا.

﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾، أي: لأجل أن أعمل عملًا صالحًا.

﴿فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾، أي: فيما تركت من العمل، وفرطت في جنب الله.

قال قتادة: «والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل أو عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله؛ لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل»(١).

﴿كَلَّآۚ﴾ حرف ردع وزجر، أي: لن تجاب إلى سؤالك، ولا سبيل إلى الرجعى؛ لأن الله قد قضى أنهم إليها لا يرجعون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٥٠].

وهكذا يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار وهم في غمرات الموت، ويوم النشور، وعند العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى:

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٧.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ الجملة للتعليل للزجر السابق، والضمير في «إنها» يعود إلى مقالة هذا المحتضر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

و«كلمة»: مستعملة في الكلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»(١).

أي: هي مجرد أمنية يتمناها، ومقالة لا تفيد قائلها إلا الحسرة والندامة والأسى، وكلام كاذب لا عمل معه، فلو رد لعاد إلى ما نُهي عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: ومن أمامهم؛ كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم.

وقال لبيد(٢):

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

و«البرزخ»: الحاجز بين شيئين، أي: ومن أمامهم حاجز بين الدنيا والآخرة، وهو مقامهم في القبور منذ موتهم إلى يوم يبعثون، يُنعم فيه المؤمنون، ويعذب فيه الكافرون، إلى قيام الساعة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعوه إن عجل عذاب المكذبين الظالمين في

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، وابن ماجه في الأدب ٣٧٥٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص٥٧، «البيان والتبيين» ٣/ ٥٧، «الأغاني» ١٥/ ٣٦٣.

حياته وأراه الله إياه: ألا يجعله في القوم الظالمين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٩٤﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَّبِّ﴾.

٣- أن وعيده عز وجل للمكذبين واقع بهم لا محالة، وآتٍ ولا بد.

٤- أن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، والصالح والطالح.

٥- أن تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به، والشرك بالله أعظم الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٦- قدرة الله تعالى التامة على تعجيل ما توعد به الظالمين من العذاب في حياته ﷺ، فيريه عذابهم لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾.

٧- أمره عز وجل له ﷺ بالإحسان إلى من أساء إليه، والصبر على أذى قومه؛ لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾.

٨- الترغيب والحث على مقابلة الإساءة بالإحسان؛ لأمره عز وجل به رسوله ﷺ، وامتداحه لأثره، وتكفله بأجره.

٩- إثبات علمه عز وجل التام بما يصف المكذبون ويقولون من الأقوال الباطلة، المتضمنة للتكذيب له ﷺ، والكفر بما جاء به من الحق، وإعلامه ﷺ بذلك؛ ليدعهم ويكل أمرهم إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد لهم.

١٠- أمره عز وجل له بالاستعاذة به من همزات الشيطان، والاستعاذة به من حضورهم أيَّ أمرٍ من أموره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾.

١١- مشروعية الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن الله أمر بذلك الرسول ﷺ، ولنا به أسوة، وحاجتنا إليها أشد وأعظم.

١٢- أن شر شياطين الإنس قد يندفع بالإحسان إليهم؛ لهذا أمر الله بذلك، بخلاف شر شياطين الجن؛ فإنه لا يندفع إلا باللجوء إلى الله، والاستعاذة به من شرورهم، ومن حضورهم؛ لأنه لا يقنعهم ولا يكفيهم إلا إهلاك بني آدم.

١٣- ندم كل واحد من المكذبين الظالمين المفرطين عند الموت والاحتضار وسؤاله الرجعة؛ ليتدارك ما فاته، ولكن هيهات ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

١٥- معرفة المفرط عند الاحتضار تمام المعرفة أنه لا ينفع إلا العمل الصالح، لكن بعد فوات الأوان.

١٦- تيئيس هذا السائل من الرجوع إلى الدنيا، وردعه وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا سبيل لك إلى الرجعى.

١٧- أن مقالة هذا السائل: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كلمة لا قيمة لها، ومجرد أمنية يتمناها، لا تفيد قائلها إلا الحسرة والندامة، وكلام كاذب لا عمل معه، فلو رد لعاد لما نهي عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

١٨- أن الكلمة تطلق على الكلام وإن كثر وطال.

١٩- إثبات البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، من المقام في القبور إلى قيام الساعة والبعث، وتهديد المكذبين الظالمين المفرطين بعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

٢٠- إثبات البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الفاء: استئنافية، و«الصور»: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل النفختين: النفخة الأولى، وهي الراجفة؛ ليموت كل من على وجه الأرض من الأحياء إلا من شاء الله، والنفخة الثانية، وهي الرادفة؛ ليحيا كل من في باطنها من الأموات، والبعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦ ـ ٧].

والمراد بالنفخة في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: النفخة الثانية للبعث والنشور وخروج الناس من القبور وحشرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨].

أي: تنقطع الأنساب بينهم، فلا يرثي والد ولده، ولا يلوي عليه، ولا ينتصر أخ لأخيه، ولا قريب لقريبه، وذلك من شدة الكرب والهول.

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه وهو يبصره؛ لانشغال كل منهم بطلب النجاة والفكاك لنفسه، بل يفر كل منهم من الآخر مخافة أن يطالبه بشيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ

يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ [المعارج: ١٠ – ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤ – ٣٧].

وقد كانوا في الدنيا ينتصر القريب لقريبه، والنسيب لنسيبه، إما بالحق، أو بالباطل؛ كما قال قائلهم:

أخـاك أخـاك إن مـن لا أخـا لـه ... كسـاع إلى الهيجـا بغـير سـلاح(١)

لكن في ذلك اليوم ينتهي هذا كله، وينشغل كل منهم بنفسه، ولا يفكر في غيره.

لا نسـب اليـوم ولا خلـة ... اتسـع الخـرق عـلى الراقـع(٢)

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمة، فليجئ فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته، وإن كان صغيرًا، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾»(٣).

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: كثرت حسناته فرجحت على سيئاته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، أي: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب، الفائزون بالجنة، والناجون من النار، وأكد فلاحهم وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: كثرت سيئاته فرجحت على حسناته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ الخسران المبين، الذين بلغوا الغاية في الخسران والهلاك والخيبة.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، أي: مآلهم جهنم، ماكثون فيها، مقيمون أبد الآبدين؛

---

(١) البيت لمسكين الدرامي. انظر: «ديوانه» (ص٢٩).

(٢) البيت ينسب لأنس بن العباس بن مرداس، وينسب لأبي عامر جد العباس بن مرداس. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/ ٢٨٥، «سمط اللآلي» ٢/ ٣٦، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٠١. وفي بعضها: «اتسع الخرق على الراتق».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٨٨.

لكفرهم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: تغشى وتحرق وجوههم النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وخص الوجوه بالذكر إهانة وإذلالًا لهم؛ لأنها مواضع الحسن والتشريف والإكرام، وإلا فإن عذاب النار يغشاهم من كل جهة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، أي: وهم في جهنم كالحون، أي: عابسون، قد قلصت شفاههم، وبرزت أسنانهم من أثر تقطب أعصاب الوجه من شدة العذاب والألم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لما ذكر العذاب الحسي لأبدانهم، أتبع ذلك بذكر العذاب المعنوي لقلوبهم، بالتقريع والتوبيخ لهم، الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهام: للتقريع، أو الإنكار، أي: ألم تكن آياتي الشرعية وحججي تقرأ عليكم فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ودعوتكم إلى الإيمان، وتحذيركم من عواقب الكفر والإجرام، بما لا حجة لكم بعده؛ كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: فكنتم بآياتي تكذبون؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ - ٩].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: أقروا بقيام الحجة عليهم بالآيات؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين وألف بعدها:

«شَقَاوَتُنَا».

وقرأ الباقون بكسر الشين وإسكان القاف من غير ألف: ﴿شِقْوَتُنَا﴾، أي: غلبت واستولت علينا شقاوتنا، وإعراضنا عن الآيات، وما كتب علينا من الشقاء في سابق علمك.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أي: تائهين عن الحق، مبتعدين عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، أي: من نار جهنم؛ لنرجع إلى الدنيا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝١١ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١١ - ١٢].

﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، أي: فإن رجعنا إلى ما كنا عليه من التكذيب والضلال.

﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، أي: مستحقون للعقوبة، وهم كاذبون في وعدهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝١١١﴾.

قوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾، أي: امكثوا في جهنم أذلاء صاغرين مهانين، وفي هذا زجر لهم وإهانة وإذلال.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: ولا تكلموني في طلب الخروج مرة أخرى، ولا في رفع العذاب أو تخفيفه؛ فإنكم لن تخرجوا، ولن يرفع عنكم العذاب أو يخفف، وفي هذا تيئيس لهم من الخروج، ومن النجاة مما هم فيه.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

لما توعدهم بالخسران والعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي بالتقريع

والتوبيخ، وأيسهم من كل خير؛ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى العذاب وقطع عنهم الرحمة، وهو سخريتهم بالمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾، الهاء: ضمير الشأن، أي: إنّ الشأنَ أنّ فريقًا من عبادي- وهم المؤمنون- كانوا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾، أي: يا ربنا ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا بآياتك، وانقدنا لما جاء فيها من الحق بجوارحنا.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾، أي: استر ذنوبنا، وتجاوز عنا.

﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ برحمتك الخاصة الواسعة.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بضم السين: «سُخْرِيًّا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿سِخْرِيًّا﴾، أي: جعلتموهم سخريًا، تسخرون منهم وتستهزئون بهم؛ لإيمانهم وسؤالهم ربهم المغفرة والرحمة، وانشغلتم بذلك.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾، أي: حتى نسيتم ذكري بسبب اشتغالكم بالسخرية والاستهزاء بهم.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أي: وكنتم مما هم عليه من الإيمان والعبادة تضحكون؛ استهزاء بهم، مما أنساكم ذكر الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٢].

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: أثبْتُهم وأكرمتهم بسبب صبرهم على أذاكم وسخريتكم بهم، وعلى طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر لهمزة: «إِنَّهُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّهُمْ﴾.

أي: بأن جعلتهم هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة

من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

وقد أكد عز وجل الفوز وحصره فيهم بـ«أن»، وضمير الفصل «هم»، وبكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- انقطاع الأنساب يوم القيامة بين الأقارب، فلا يلوي والد على ولده، ولا ولد على والده، ولا أخ على أخيه، ولا قريب على قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

٢- عدم تساؤل الأقارب والأصدقاء وغيرهم فيما بينهم؛ لانشغال كل منهم بطلب الخلاص والفكاك لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

٣- فلاح وفوز من ثقلت موازينه، فرجحت حسناته على سيئاته، وتأكيد فلاحهم، بل حصر الفلاح فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٤- خسران الذين خفت موازينهم أنفسهم بمصيرهم إلى جهنم وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٥- شدة عذاب جهنم، وإذلالها لأهلها بلفح وجوههم وإيلامها، حتى تكون كالحة عابسة من شدة تقطيبها؛ لقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

٦- تقريع المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بالآيات وعدم الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

٧- اعترافهم بغلبة الشقاوة واستيلائها عليهم، وضلالهم، وكتب الشقاء عليهم في سابق علم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

٨- سؤالهم ودعاؤهم ربهم أن يخرجهم من جهنم؛ ليرجعوا إلى الدنيا فيستدركوا، وأنهم إن عادوا إلى الضلال فهم ظالمون يستحقون العقوبة؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

٩- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.

١٠- زجر الله تعالى لهم، وتخسئتهم، وإذلالهم، وإهانتهم، ونهيه إياهم عن تكليمه

بطلب الخروج، أو رفع العذاب، أو تخفيفه، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ الآية.

١١- ثناء الله تعالى على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والخضوع والتضرع والتوسل إلى ربهم، ودعائه بطلب المغفرة والرحمة، والثناء عليه بسعة رحمته وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

١٣- أن سبب تعذيب المكذبين بالعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي بالتقريع والتخسئة والإذلال لهم؛ تكذيبهم بآيات الله، وسخريتهم واستهزاؤهم بالمؤمنين، وانشغالهم بذلك، ونسيانهم ذكر الله والعمل لأنفسهم، وضحكهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠﴾.

١٤- مجازاة الله تعالى المؤمنين بالجزاء العظيم، بسبب صبرهم على أذى المكذبين، وصبرهم على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، وتخصيصه إياهم بالفوز والفلاح دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾.

١٥- الترغيب في الصبر على الأذى، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لعظم أجر الصابرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «قُلْ» بغير ألف على الأمر.

وقرأ الباقون: ﴿قَالَ﴾ بالألف على الخبر.

أي: قال الله تعالى لهؤلاء المكذبين على سبيل التوبيخ لهم على تفريطهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، أي: كم مكثتم وأقمتم في الدنيا من عدد السنين؟ أي: أنكم أقمتم فيها سنين يمكنكم فيها العمل- وإن كانت قليلة- ولكنكم فرطتهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ استقصروا لبثهم في الدنيا؛ لأنهم قضوا ذلك بالكفر واللهو واللعب والغفلة واتباع الشهوات، والسخرية والاستهزاء بالمؤمنين، والضحك منهم.

﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾، أي: فاسأل الحاسبين الضابطين للعدد، وهذا من باب التأكيد بأن لبثهم في حدود ما ذكروا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما لبثتم إلا زمنًا قليلًا؛ لأن الدنيا كلها في الآخرة قليل.

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لاستفدتم من هذا القليل بالإيمان والعمل الصالح كما استفاد منه المؤمنون، ولم تضيعوه بالكفر واللهو واللعب والغفلة والشهوات.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفظننتم أيها المكذبون

﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ «عبثًا»: مصدر في موضع الحال، أي: عابثين، أو مفعول لأجله، أي: لأجل العبث.

ومعنى ﴿عَبَثًا﴾: باطلًا، وبلا حكمة، تأكلون وتتمتعون وتمرحون وتسرحون، بلا أمر ولا نهي، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، أي: وحسبتم، أي: ظننتم أنكم لا ترجعون، أي: لا تردون فنحاسبكم ونجازيكم على أعمالكم، أي: لا تظنوا ذلك، ولا يخطر لكم ببال، فمردكم إلينا وحسابكم علينا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾، أي: تعالى وتعاظم وتقدس عن هذا الظن الباطل، بأنه خلق الخلق عبثًا، وأنهم إليه لا يرجعون؛ لما في ذلك من القدح في حكمته عز وجل.

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ «الملك» و«الحق» من أسماء الله عز وجل، أي: الملك للكون كله، خالقه ومالكه، والمتصرف فيه.

﴿الْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فهو عز وجل حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسماؤه وصفاته حق، وأمره ونهيه حق، وخبره حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعده حق، ووعيده حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق، وجنته حق، وناره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ خالق العرش ومالكه وصاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

﴿الْكَرِيمِ﴾، أي: ذو الحسن والمنظر البهي.

وخص العرش؛ لأنه سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وهو سبحانه رب ما دون العرش من المخلوقات من باب أولى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا

يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: ومن يعبد مع الله معبودًا آخر ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الجملة معترضة بين الشرط وجوابه، أي: لا حجة له به ولا بينة، ولا دليل له البتة.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فإنما حسابه وعقابه على شركه بالله عند ربه، فهو الذي يحاسبه. وفي هذا تهديد ووعيد له.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: لا يفوزون البتة، بل يخسرون الخسران المبين، وفي هذا ضرب من رد الصدر على العجز، فقد افتتحت السورة بذكر فلاح المؤمنين ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وختمت بنفي فلاح الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: وقل يا رب ﴿ٱغۡفِرۡ﴾، أي: اغفر لنا بستر ذنوبنا، والتجاوز عنا؛ لننجو من عذابك.

﴿وَٱرۡحَمۡ﴾، أي: وارحمنا برحمتك الخاصة؛ لنفوز برضاك، ونحصل على ثوابك.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ المكذبين وتنديمهم على تضييع أعمارهم بما يضر ولا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

٢- استقصارهم لمدة لبثهم في الدنيا؛ لأنهم شغلوها بالكفر واللهو واللعب والغفلة واتباع الشهوات؛ لقولهم: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾، وقد عُمِّروا ما يتذكر فيه من تذكر.

٣- أن مدة لبثهم- وإن كانت قليلة- فهي كافية للعمل لخلاص أنفسهم كما فعل المؤمنون، لو كانوا يعلمون ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

٤- الإنكار عليهم وتقريعهم في ظنهم، أنهم إنما خلقوا عبثًا؛ ليأكلوا ويشربوا ونحو ذلك، دون حكمة فوق ذلك كله، وهي تكليفهم بعبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾.

٥- الإنكار عليهم في تكذيبهم بالمعاد، ورجوعهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

٦- تقديس الله وتعظيمه وتعاليه عن أن يكون خلق الخلق لغير حكمة، وأنهم لا يردون إليه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾.

٧- إثبات أنه عز وجل هو «الملك الحق» الذي لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- إثبات عظمته عز وجل، وربوبيته للعرش، ولجميع المخلوقات ربوبية عامة، والاستدلال بذلك على إثبات إلهيته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾.

٩- إثبات الحكمة لله تعالى في خلقه وقدره وشرعه.

١٠- أنه لا برهان ولا حجة ولا دليل لمن دعا مع الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾.

١١- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن أشرك مع الله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾.

١٢- أن الكافرين لا يفلحون أبدًا، بل هم الخاسرون الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

١٣- أن من دعا مع الله إلهًا آخر فقد أشرك، وبلغ غاية الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

١٤- الأمر والندب إلى دعاء الرب عز وجل وسؤاله المغفرة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾.

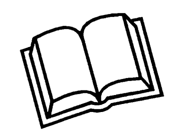
١٥- إثبات ربوبية الله الخاصة له ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾.

١٦- الحث على الثناء على الله عز وجل بأنه خير الراحمين، فهو أرحم بالعبد من الأم بولدها، وأرحم به من نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

* * *

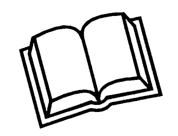
فهرس الموضوعات

* * *



مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

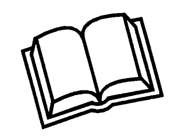
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

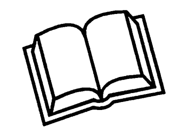
✍

✍

✍

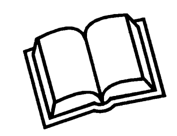
✍

✍

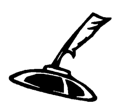


مفكرة





مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

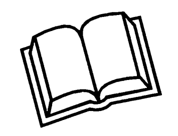
✍

✍

✍

✍

✍



مفكرة



✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍

✍


دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958